

ابن بطوطة ورحلاته

تحقيق ودراسة وتحليل

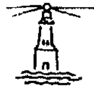
ابن بطوطة ورحلاته

تحقيق ودراسة وتحليل

تأليف

د. حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب – جامعة القاهرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى أخي أنيس منصور
رحالة العرب في العصر الحديث
أهدى حديث رحالة الإسلام في العصر الوسيط . .

بين يدى الكتاب

باسم الله أبتدئ وبحوله أستعين ، له الفضل والمنة سبحانه .

سبقنى إلى الكتابة عن ابن بطوطة ورحلته علماء أجلاء كثيرون ، وقد قرأت ما كتبوا وأفـدت منه ، ولكنى أحسست كلما قرأت « الرحلة » أو « الرحلات » أنها مازالت تحتاج بالنسبة للقارئ العربى خاصة - إلى تحقيق ودراسة : تحقيق أعلام الأشخاص وأعلام الأماكن والطرق التى سلكها الرحالة فى البر والبحر ، والدروب التى سار فيها فى رحلاته الفرعية أو الجانبية ، وهى كثيرة جدا ، ثم دراسة الرحلة كلها وإظهار قدرها كوثيقة تاريخية واجتماعية ذات قيمة كبيرة ، فهذا رجل حمل نفسه مهمة لا تضطلع بمثلها إلا جمعية علمية كبيرة ذات مال وافر ، وهى مهمة استطلاع العالم الإسلامى كله فى عصره استطلاعاً مباشراً يقوم على المشاهدة والمعاينة والمعاناة وكتابة « تقرير » واف قدر الإمكان عن ذلك العالم الإسلامى الذى ذرعه بالطول والعرض ، وشقه بشجاعة وإقدام وصبر ومحبة .

وهذا على وجه التحديد هو الوصف الدقيق لهذه الرحلة : إنها « تقرير » عن أحوال الأمة الإسلامية خلال القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وهذا التقرير تعوّد القارئ العربى أن يقرأه على أنه قصة ممتعة ، أو رحلة سندبادية حافلة بالغرائب ، وبلغ الأمر أن بعضهم عمل للرحلة مختصرات تسمى «المنتقى».. حينا و « المهذب » حينا آخر ، وهذا فى تصورى أسوأ ما يمكن أن يعامل به هذا التقرير العظيم القيمة ، وهل هناك مساءة يمكن أن تلحق برحلة كهذه أكثر من أن يقوم رجل مثل محمد بن فتح الله ابن محمد البيلونى ، فيستخرج من الرحلة مختصرا يسميه « المنتقى » ؟ وما الذى انتقاه هذا الفاضل ؟ وما الذى تركه ؟ وعلى أى أساس كان الانتقاء ؟ فهذه رحلة تتحدث عن بلاد وعباد ، وليس هنالك فيما نرى بلد أفضل من بلد حتى تنتقيه من دون غيره ، أو عبادٌ هُم أحق بالدراسة من غيرهم ، فنصطفى الحديث عنهم ونترك الباقى !

وهل هناك أدل على الجهل بقيمة الرحلة من أن تمسخ فى صورة « مهذب » يستعمل كتاب مطالعة لتلاميذ المدارس ؟ كما فعل المشرفون على التعليم فى مصر فى العشرينيات من هذا القرن ، عندما عمدوا إلى اثنين من مفتشى اللغة العربية هما الشيخان أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى فى عمل تلك المسخة التى تسمى بمهذب رحلة ابن بطوطة ! ولا ندرى كيف يمكن أن يهذب وصف رحلة بهذه القيمة ؟ وما الأجزاء التى ينبغي استبعادها حتى تكون الرحلة مهذبة ؟

ولكن رب ضارة نافعة ! فقد ضمت وزارة المعارف إذ ذاك إلى الشيخين الجليلين شيخاً جديراً بأن تُدارَعليه دراسة ، وهو الشيخ محمد فخر الدين المدرس آن ذاك بدار العلوم ، وكان خرائطيًّا موهوباً ، فرسم خرائط لبعض مراحل الرحلة ، تعتبر الشفيع الوحيد لهذا المهذب السخيف ! وقد انتفعت بهذه الخرائط فى عمل خريطة الرحلة ، كما انتفعت بالخرائط التى أدرجها هاملتون جيب وهنرى يول وخراتشسكوجابرييلى ضمن ما ترجموه ، ونشروه فى لغاتهم من الرحلة ، وما قاموا به هم وغيرهم من دراسات لبعض أجزائها .

وأحسن ما قرأت فى العربية من أعمال علمية خاصة بهذه الرحلة كتاب « رحلة مع ابن بطوطة » للأستاذ محمود الشرقاوى (القاهرة ١٩٦٨) ، و « رحلة ابن بطوطة » للدكتور شاكر حضباك الأستاذ بجامعة بغداد (بغداد ١٩٧٢) وهما عملان جيدان انتفعت بهما أحسن انتفاع ، وشكرت لصاحبيهما ما بذلا من جهد مشكور.

وبقى بعد ذلك تحقيق الرحلة ووضعها فى إطارها الجغرافى والتاريخي من بدايتها لنهايتها ، ثم دراستها جملة واحدة ، وإظهار قيمتها كصورة صادقة إلى حد بعيد لعالم الإسلام فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وهذا هو الذى ندبت نفسى للقيام به فى هذا الكتاب ، وقد بدأت الدراسة بمقدمات عن الرجل نفسه ، وكيف قام برحلته تلك التى دامت نحو خمسة وعشرين عاما دون أن ينفق من عنده مالاً ، فقد خرج من بلده طنجة ، وليس معه إلا بضعة دنانير ، ومع ذلك فلم يَشْكُ هذا الرجل العوز أو الضائقة أو الحاجة يوماً واحداً ! لأن الأمة الإسلامية هى التى قامت بنفقات رحلته ، وتولت كل شئونه بفضل ترابط هذه

الأمة واهتمامها بأبناء السبيل الذين أُوصِيَ بهم فى القرآن الكريم مرة بعد مرة : فعلى طول الرحلة كان الرجل ينزل فى الزوايا والمدارس المنتشرة فى جميع نواحى العالم الإسلامى ، وكان هناك دائماً أهل الخير أو أهل الطرق الصوفية الذين يعنون بأمر هذه الزوايا والمدارس والنازلين فيها ، ولم يقتصر الأمر على مجرد تقديم الزاد الضرورى والمأوى الخشن لأبناء السبيل ، بل تعدى ذلك إلى الطعام الطيب الوافر المتنوع ، والمأوى المؤثث الوثير ، وفى أحيان كثيرة كان القائمون بأمر هذه الزوايا يعطون ابن السبيل شيئاً من المال والكسوة .

ثم إن الأمة كانت مقسمة اجتماعيا إلى « مراتب » وأصناف بحسب العمل والحرفة ، وكان أهل كل مرتبة وأهل كل حرفة يعنون بابن حرفتهم الغريب المار ببلدهم ، وكان رئيس العشيرة نفسه يعنى بذلك ، ويرى كيف أن الغريب من أهل مرتبته أو صنعته يستضاف ثلاثة أيام على الأقل ؟

وقد حرصت على أن أسترعى النظر إلى هذه الناحية الاجتماعية وكثير غيرها فى هذه الدراسة مؤيدا ذلك بشواهد من رحلة ابن بطوطة وكلامه ، واجتهدت فى أن أعرض صورة هذه الأمة المترابطة عرضاً يعين على فهمنا لتاريخ تلك العصور .

* * *

ثم مضيت مع الرجل مرحلة مرحلة ، وكلما دخل بلداً شرحت الظروف السياسية وقت دخوله ، وعرّفت بالحكام أو الملوك أو الأمراء وحققت ما احتاجَ إلى تحقيق من أسماء الأماكن وأسماء المشاهد والمزارات ، واسترعيت النظر إلى ما يذكر ابن بطوطة من صناعات وزراعات ومايطعم من مأكول ومايشرب من مشروب ، وما يتحدث عنه من ملبس ، ومايركب من سفين ومايسير فيه من طريق ، وبذلت فى ذلك أقصى ما استطعت فى ذلك الحيز الضيق الذى قدرته لهذا الكتاب .

ثم زوّدت الكتاب بخريطة دقيقة لمسار رحلات ابن بطوطة الثلاث ، وأتيت بأسماء الأماكن محررة صحيحة على الخريطة .

وفى الفهرس الأبجدى فى آخر الكتاب أتيت بأسماء كل ما عرضت به من أسماء

أشجار ونباتات ومعادن وصناعات وفاكهة وخضر وأصناف مأكول أو مشروب أو آلة بيت أو أداة صناعة .

ولم أقسم الفهرس أقساما كما يفعل الكثيرون ، بل جعلته فهرساً عاماً ، ووضعت إلى جانب كل لفظ تعريفاً بنوعه قبل ذكر الصفحات .

وقد قسمت الكتاب إلى فصول قصار هى مراحل الرحلات حتى تسهل على القارئ المراجعة ، ولم أخالف هذه القاعدة إلا فى الفصول التى تحدثت فيها عن تغييرات حاسمة فى حياة ابن بطوطة نفسه .

وأختم هذه المقدمة بسؤال الله سبحانه وتعالى أن يوسع فى جنان رحمته لأخى ومعينى فى معظم أعمالى العلمية مصطفى عبد المجيد صالح الذى اختاره الله إلى جواره سنة ١٩٧٧ ، فقد كان رحمه الله يقرأ ما أكتب ، ويعيده بخطه الجميل ، ثم يقف على تجارب الطبع ، وكان مثالاً فى خلقه وعمله . وهذا الكتاب هو آخر ما بيّضه لى بخطه .

والحمد لله فى البداية والنهاية ، له سبحانه الفضل وهو من وراء كل توفيق .

د . حسين مؤنس

١
مدخل

خلال هذه الصفحات ستقوم برحلة ممتعة فى عالم الإسلام فى أثناء القرن الثامن الهجرى – الرابع عشر الميلادى.

وسيكون رفيقنا ودليلنا فى هذه الرحلة رجلاً فريداً فى بابه فى تاريخ الحضارة الإسلامية والحضارة الإنسانية جميعًا ، وهو الرحالة الأشهر أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى رحالة الإسلام دون منازع . وهو واحد من أولئك الأفذاذ الذين فطرهم الله على السعى الدائب نحو المعرفة والكشف عن ستر المحجوب وتحمّل المشاق وركوب الأخطار فى سبيل المعرفة ، ولا هدف لهم من وراء النَّصَب إلا إشباع ذلك الشوق النبيل إلى العلم وإطفاء الغلة إلى توسيع الأفق ، ومعرفة البلاد والعباد .

وقد سمعنا جميعاً عن ابن بطوطة ولكن القليلين منا اهتموا بأن يعرفوا عنه أكثر من الاسم ، وأنه صاحب رحلات وأسفار وأحاديث مستغربة ، وأعتقد أنه لا عذر للناس فى ذلك : فرحلة ابن بطوطة معروفة متداولة بأيدى الناس ، وهي قصة جميلة تُقرأ فى لذة واستمتاع ، لأنها فى صميمها مغامرة طويلة حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطرف ، وراويها رجل صدوق لا يتكلف شيئاً فى أحاديثه ، بل كان هو نفسه لا يفكر فى تسجيل رحلته لولا أن الناس ألحوا عليه فى ذلك ، ولولا أن سلطان بلده – أبا عفان فارس المتوكل وهو الحادى عشر من سلاطين بنى مرين (٧٤٩ – ٧٥٩) (١٣٤٨ – ١٣٥٨) طلب إليه تدوين الرحلة بناء على إشارة الوزير أبى عبد الله الوطاسى ، فمضى ابن بطوطة يكتب .

ويبدو أنه كان لا يملك أسلوباً طيعًا فى الترسل ، فعهد السلطان إلى وزير من وزرائه من أهل الأدب والاهتمام بأدب الرحلات وهو أبو عبد الله بن جزى ، وكلفه أن يعيد

صوغ ما يكتبه ابن بطوطة من حديث رحلته ، فجعل ابن بطوطة يكتب وابن جزى ينقح ويصوغ ، ثم عاد ابن جزى على ما كتب فنقّحه ، وربط بين أجزائه ، وأضاف إليه بعض ما لديه من حديث عن البلاد ، وخاصة بلاد الحجاز والأراضى المقدسة والشام .

وعلى الرغم من أن ابن بطوطة قد عرّف هذه الأرض المقدسة كما لم يعرفها أحد من الرحالة الذين كتبوا عنها فقد زارها وحج ست مرات ، فإن ابن جزى لم يرض عن حديث ابن بطوطة عن الحجاز ومكة المكرمة والمدينة المنورة وموسم الحج ، فرفعه ووضع مكانه صفحات من رحلة أبى الحسين أحمد بن جبير الأندلسى الغرناطى الذى قام بثلاث رحلات من وطنه الأندلس إلى الحجاز والمشرق قبل قيام ابن بطوطة برحلته بقرن كامل ، وكتب وصف رحلاته فى كتاب ممتع معروف .

ومع أن ابن جبير عاش فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى : أى قبل ابن بطوطة بقرن كامل ، فإن ابن جزى أجاز لنفسه هذا العمل ، وكاد يفسد الكثير من صفحات رحلة ابن بطوطة بتدخلاته تلك التى تحمل أسلوب فقيه متأدب يريد أن يعرض للناس شيئاً من علمه ومحفوظه ، ولكن لحسن الحظ لم يضف شيئاً أو يعدل شيئاً إلا قرر ذلك صراحة بقوله : « قال ابن جزى » . ومن حسن الحظ أيضاً أن تدخلاته قليلة ، ولا صعوبة فى التعرف على إضافاته ونسبتها إلى أصحابها . ومعنى ذلك أن رحلة ابن جبير فى مجموعها أصيلة وسليمة إلى حد كبير .

صعوبة دراسة الرحلة دراسة علمية

ونسأل الآن : ما السبب فى عزوف الناس فى بلادنا عن دراسة رحلة ابن بطوطة دراسة تحقيق وتمحيص ؟ والجواب أن تلك الدراسة تتطلب من صاحبها اطلاعًا واسعاً على الأدب الجغرافى الإسلامي : أى العربى والإيرانى والتركي ، حتى يستطيع الدارس تحقيق أسماء الأمكنة والتعرف على الأشخاص : ذلك أن أكثر من نصف رحلة ابن بطوطة يدور خارج نطاق البلاد العربية .

صعوبات تحقيق الأعلام الجغرافية

وإذا كنا نستطيع دون كبير جهد تحقيق الأعلام الجغرافية والشخصية فى بلاد العروبة فإن ذلك عسير خارجها ، وخاصة فى بلاد الترك والبلغر – أى البلغار – وكانوا فى ذلك العصر يسكنون شمال البحر الأسود ، ولم يستقروا بعد فى وطنهم المعروف

باسمهم اليوم ، وهم فى الأصل ترك مسلمون فى غالبيتهم ، ثم تحولوا إلى النصرانية فى مسيرهم نحو بلادهم الحالية .

وتزداد هذه الصعوبة فى فصول الرحلة عن بلاد الهند والصين وما يعرف اليوم بجنوب شرقى آسيا وجزر الفيلبين ، وقد زارها كلها هذا الرجل الطلعة الذى لا يكل ، وهو يذكر أسماء المواضع كما كانت تعرف فى أيامه ، وقد تغير معظم هذه الأسماء اليوم ، والتعرّف عليها يحتاج إلى درس وبحث طويلين حتى نعرف عم يتكلم ؟

ثم إنه كان يرسم الأسماء كما كان يسمعها ، ولم يكن هذا السماع دائماً صحيحاً ، فيتطلب الأمر البحث عن النطق الصحيح ، وهذا أمر فى غاية العسر ، بل إن زياراته لبعض بلاد العرب مثل عُمان وظفار – حافلة بأسماء أماكن وأعلام وقرى صغيرة دَثَرت ، ولم يعد لها وجود ، فلا تزال تبحث عنها وتنقب حتى تهتدى إلى حقائقها إذا يسر الله لك ذلك .

ولهذا فإن القارئ العابر لا يلبث أن يمل ويسأم القراءة عن بلاد لا يعرفها ، وقد تجشمت عناء هذا البحث والتحقيق ما وسعنى مستعيناً فى ذلك بكتب الجغرافية العربية ، وما تيسر من المؤلفات عن البلاد غير العربية فى عصر ابن بطوطة ، واستعنت فى ذلك بما كتبه الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون من دراسات لأجزاء من رحلة ابن بطوطة وما ترجموه إلى لغاتهم منها .

وإنه لما تجدر بنا ملاحظته ولوم قومنا فيه أن أولئك الأجانب بذلوا أضعاف ما بذلنا من الجهد فى دراسة أعمال هذا الرحالة العربى المجيد . وقد آن لنا أن نرجو قومنا أن يتكلفوا فى البحث والدرس جهداً أكبر مما يتحملونه اليوم ، وأن يعبروا عن حبهم لبلادهم وحضارتها بالانصراف عن السهل الميسور وإنفاق الجهد الجاد فيما يبدو لهم عسيراً ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء تيسير عُسْره وفتح مغاليقه .

وجدير بنا أن نذكر هنا أن هذا الرجل تجشم هذا الجهد كله ؛ لكى يرى بعينيه عالم الإسلام من أوله إلى آخره ، ولو أنه قام بهذه الرحلات فى أيامنا هذه ووسائل المواصلات ميسرة والرحلات قصيرة الأوقات لا يكاد الإنسان يحرم نفسه فى أثنائها متعةً – لكانت رحلة طولها مائة وأربعون ألف كيلو متر ، تنقل الإنسان عبر المعمور مرة ،

بعد مرة ، ولكانت مشقة كبيرة ! فما بالنا وقد قام بها هذا الرجل فى عصور كانت وسائل الانتقال فيها لا تخرج عن المسير أو على ظهور الدواب أو متون سفن يرهب الإنسان منظرها فضلاً عن ركوبها !

فما قولك مثلاً فى السفن التى كان الناس يعبرون بها البحر الأحمر من عيذاب على ساحل النوبة الحالية إلى جدة ؟ كانت تبنى لرحلة واحدة تتحطم بعدها ، فكان صاحب السفينة يجتهد فى استيفاء ثمنها قبل إقلاعها ، ولا عليه بعد ذلك إن غرقت ، فقد استوفى ماله !

وما قولك وقد ركب ابن بطوطة هذه السفن مرة بعد مرة غير هياب ؟ بل ركبها مرة من جدة فحملتهم الرياح إلى رأس دوائر شمال ميناء سواكن فى السودان ، فنزل الرجل على شاطئ السودان وزار قطعة طيبة من سواحله ، ثم ركب السفن نفسها مرة أخرى إلى الصومال ، فلم يبد الرجل ضجراً ولا ندّت منه شكوى ، وإنما أقبل يتفرج على الأرض التى حملته الأقدار إليها فى لذة السائح المشغوف بها ، وأتانا من خبرها بكل ممتع ومفيد وطريف !

ولقد خرج ابن بطوطة لرحلته وهو بَعْدُ فى الحادية والعشرين من عمره لم تكتمل دراسته بعد ، فاستكملها على الطريق ، وخرج خاوى الوفاض لا يملك إلا بضعة دنانير ، فلم يحفل الشاب لذلك ولا ضجر ، وإنما أقبل على السير فى شجاعة تستوقف النظر ، وأحسن تدبير أمره فلم يشك طول رحلة زادت على ربع القرن مسغبة ، ولا هو اضطر إلى التصعلك أو الكدية ، بل سار على سمته .شيخاً كريماً على نفسه وعلى الناس ، قانعاً بالمبيت فى الزوايا وبما يقدمه القَوَمَةُ عليها من طعام بسيط أكثره الثريد وشىء من التمر .

وهذا كله يضفى على هذه الرحلات متعة وجمالاً ، بالإضافة إلى الفائدة التى لا شك فيها .

لهذا أقدر أننا سنسعد بهذه الأحاديث ، وسندع أنفسنا تمضى مع الرياح فى رفقة هذا الرجل الطرفة الفريد فى بابه الذى يصدق فيه قول ابن زُرَيق البغدادى فى قصيدته التى يبدؤها بقوله :

عذليه فإن العذل يولعه   قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعه !

لك حيث يقول :

آب من سفر إلا وأزعجه   شوق إلى سفر بالعزم يتْبِعه !

هو فى حل ومرتحل   موكل بقضاء الله يذرعه !

الزمان أتاه بالرحيل غدا   ولو إلى السد[1] أضحى وهو يزمعه !

---

(١) المراد : سد يأجوج ومأجوج .

٢

ابن بطوطة ودوافعه إلى الرحلة

قدمت فى مدخل هذا الكتاب فكرة عامة عن رحلات ابن بطوطة ، وألقيت نظرة جامعة عليها وعلى قدرها كعمل جليل يعتبر عَلَماً من معالم التاريخ الحضارى العربى .

وكان ينبغى أن أخصص هذا الحديث الثانى عن الرجل نفسه وما نعرف من أحداث حياته وخصائصه المميزة ، وسأكتفى هنا بالقدر الضرورى من المعلومات عنه تاركاً بقية التفاصيل للرحلة نفسها ؛ فإن ابن بطوطة يتحدث فى ثناياها عن نفسه وما وقع له ، ويعرض لنا أفكاره وآراءه وأنظاره فى الدنيا والناس ، ولهذا فإننى أوثر أن نوجز هنا ما لابد من معرفته عنه قبل قيامه بالرحلة تاركين القارئ يستبين خصائص الرجل وفلسفته فى الحياة من خلال التفاصيل التى يذكرها فى سياق أوصاف رحلته .

مولد ابن بطوطة ونشأته

ومن أسف أن معلوماتنا عن نشأة ابن بطوطة وبيته قليلة جدّا ؛ لأن أحداً من أصحاب كتب التراجم لم يقدم لنا شيئاً شافياً عنه ، وكل ما نستطيع قوله هو أنه ولد بحسب ما ذكره ابن جزى فى مدينة طنجة فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هجرية/الرابع والعشرين من فبراير سنة ١٣٠٤ ميلادية لأب من أوساط الناس يسمى عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى فى درب صغير يحمل الآن اسمه فى تلك المدينة الجميلة طنجة ، وهى جوهرة من جواهر بلاد الإسلام جمالاً وإشراقاً .

ولكن النفس تحزن عندما تقع العين على ضريح أبى عبد الله محمد بن عبد الله ابن بطوطة فى طنجة ؛ فهو ضريح يقوم فى زاوية – أى مسجد صغير – قد لوّنوا قبته وشيئاً من مئذنته باللون الأخضر .

ولقد زرته أكثر من مرة قرب سوق أَحْرَضَان فى طنجة ، وصليت فى زاويته ، ودعوت الله أن تتاح لى فرصة القيام بحقه . وقد كنا قد شرعنا بالفعل فى تنظيم ندوة

علمية فى بلده هذا سنة ١٩٦٩ ، ووافقت الحكومة المغربية على ذلك ، ولكن الظروف لم تأذن فى تحقيق هذا الأمل .

ويقول ابن بطوطة نفسه فى سياق حديثه : إنه ينحدر من بيت فقهاء تولى الكثير من أفراده القضاء ، ويذكر فى أثناء رحلته فى الأندلس أنه لقى فى مدينة رُنْدَة أحد أعمامه وكان قاضياً : فهو إذن ينحدر من أسرة من مساتير أهل العلم والفقه . ولا يبدو من حديثه أن أباه كان من المياسير ، وعلى أى حال فقد كان أفراد أوساط الفقهاء يعيشون فى سعة ، ويتمتعون بتقدير كبير من الناس فى عالم الإسلام كله فى تلك العصور .

أما اسم « ابن بطوطة » فليس جزءاً من اسمه وإنما هو شهرته ، وما زال ذلك الاسم معروفاً إلى اليوم فى المغرب .

ولا بد أن أبا عبد الله محمد ابن بطوطة قد درس على طريقة أمثاله من الشبان فى ذلك العصر : حفظ القرآن ، وبدأ يدرس على الشيوخ لكى يكون فقيهاً كأبيه وبقية النابهين من أهل بيته ، ولكنه لم يتم دراسته ، لأن سن الحادية والعشرين التى خرج فيها للرحلة تدل على أنه لم ينتظر حتى يستكمل دراسة الفقه ، وكانت هذه الدراسة وقتها تطول فلا يفرغ الشاب من دراسته لها إلا فى حدود الثلاثين .

وجوه تشابه بين ابن بطوطة والشريف الإدريسى

والواضح أن رغبته فى السفر والجولان أعجلته عن إتمام الدراسة ، وهو يشبه فى ذلك الشريف الإدريسى الذى ولد فى سبتة المجاورة لطنجة ، فهو الآخر لم ينتظر حتى يكمل دراسته فى بلده ، بل خرج للرحلة وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وكلاهما أكمل دراسته على الطريق ، وقد كان الكثيرون من طلبة العلم يفعلون ذلك ، ولكن الفارق بين الشريف الإدريسى وابن بطوطة من ناحية ، وبقية طلبة العلم التقليديين من ناحية أخرى هو أن كلا الرجلين – الجغرافى والرحالة – لم يخرجا للدراسة على شيوخ بعينهم : أى لم يتما دراستهما على طريقة منهجية : أى أنهما لم يجاورا الشيوخ لإتمام سماع أصول الفقه وعلوم الدين ؛ ليحصلا على الإجازات الدراسية ؛ وإنما سمعا ما تيسر لهما سماعه دون حرص كبير على إتمام الدراسة ؛ لأنهما فى الحقيقة لم يريدا أن يكونا فقيهين ، بل كانت لهما فى الحياة مطالب واهتمامات أخرى .

فماذا كان مطلب ابن بطوطة ؟ وماذا كانت اهتماماته ؟ إنه يحدثنا عن ذلك فى مطلع رحلته فيقول : « وكان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله وزيارة قبر الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون فى جملته لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم ، فحزمت أمرى على هجر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور ، وكان والداى بقيد الحياة ، فتحملت لبعدهما وَصَباً ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصباً ، وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة » .

الدافع الأول لابن بطوطة على الخروج للرحلة

وإذن فقد كان دافعه إلى الخروج هو الرغبة فى أداء فريضة الحج ، وهذا صحيح ، ولكن ما الذى جعله يتعجل الخروج على هذا النحو دون أن ينتظر موعد خروج الركب لكى يسير فى جملته ؟

لقد كانت عادة الخارجين للحج فى تلك العصور أن يخرجوا فى قوافل خاصة بالحج منظمة تنظيماً دقيقاً ، وفيها ناس متخصصون فى كل ما يتصل بالحج من معرفة بالطريق ومراحله وأوقاته ، ومزودة بكل مطالب الحجاج ، وكان هذا الركب يسمى فى المغرب باسم ركب الحاج المغربى .

ولدينا قصيدة مشهورة عن ذلك الركب منظومة على طريقة الألفيات تتضمن كل ما لابد للحاج منه من مال وطعام وزاد وآنية ، حتى الإبرة والخيط لهما ذكر فى هذه القصيدة الطريفة . وكانت السلطات تزود ركب الحاج بالكتب والتوصيات والحراس على طول الطريق ، فما الذى جعل هذا الشاب يتعجل الأمر ، ولا ينتظر موعد خروج ركب الحاج المغربى ؟

الشوق إلى رؤية الدنيا والناس

لا تعليل إلا أن دافعه إلى ذلك كان هذا الشوق إلى رؤية الدنيا والناس : فقد ولد هذا الرجل رحالة بطبعه ، ومع أنه يقول – إن دافعه للرحلة هو الحج – فإننا نضيف إلى ذلك أنه كان وراء هذا الدافع شوقٌ آخر شديد إلى المعرفة . وستلاحظ ذلك على طول رحلته . وهذه الظاهرة ، ظاهرة الشوق إلى رؤية الدنيا والناس نجدها عند كبار الرحالة فى أدبنا الجغرافى الفنى : فالمقدسى أيضاً يقول فى فاتحة كتابه : إنه خلق مولعاً

بالتنقل والمغامرة والتجربة ومعرفة أحوال الدنيا ؛ وكذلك المسعودى فى تقديمه لمروج الذهب ، وأبو حامد الغرناطى فى حديثه فى تحفة الألباب .

ولكننا لا ينبغى أن نحسب أنه خرج للرحلة وحده : أى منفرداً بنفسه كما يظن بعض الناس ؛ فإن ذلك كان مستحيلاً فى تلك العصور . وقوله : إنه خرج منفرداً عن رفيق يأنس بصحبته وركب يكون فى جملته – معناه أنه لم يكن له فى الجمع الذى سافر معه رفيق من معارفه وأهل بلده أو قرابته ؛ فقد كانت تلك هى عادة الناس .

أما ابن بطوطة فقد خرج مع ناس لا يعرفهم ، ولم يخرج فى ركب الحاج ، ولكنه خرج فى رفقَة أى جماعة مسافرين ، ولقد التحق وهو فى الطريق بركب الحاج التونسى ، وبدّل رفقته مرة بعد مرة ؛ لأن اهتمامه برؤية الناس والغرائب كان يضطره إلى التخلف عن ركبه أو رفقته ؛ ليقضى ، مأربه ثم يلحق بأى رفقة أخرى ويمضى فى سبيله .

وفى بعض الأحيان نجده يغير اتجاهه تماماً ، ويتجه إلى ناحية أخرى غير التى كان يقصد إليها ؛ لأن الهدف الرئيسى عنده كان الرحلة فى ذاتها ، وكل البلاد عنده سواء : فإذا كان قاصداً مصر مثلاً اتجه به المسير إلى الشام – لم يأسف لذلك أو يفقد دافعه إلى المسير ، بل نجده سعيداً بهذا التغيّر مقبلاً على رؤية معاهد الشام دون أن يفارقه الشوق أو الابتهاج . . !

قوة بدنه واحتماله

ولقد أعان ابن بطوطة على القيام بهذه الرحلات بدن قوى يتحمل المتاعب ، ويقاوم الأمراض بصورة تدعو إلى العجب : فقد كان يأكل أى طعام – عدا المحرمات – دون أن يشكو مرة سوء هضم أو تعب ، ما عدا مرة واحدة ، وكان لا يتخير طعاماً بل يأكل ما يجد ، وفى أحيان كثيرة نجده يصوم عن الطعام أياماً ؛ ليصح بدنه إذا ألمّ به سقم ، وقد مرض أكثر من مرة فى أثناء رحلاته ، وأصابته الحمى مرة بعد مرة ، وآذاه دوار البحر حتى كاد يهلك ، ولكنه كان يخرج من هذه المتاعب سليماً بفضل ما آتاه الله من صحة وقوة بنيان ، وهو يحدثنا عن كثير من أصحابه ماتوا من الأمراض أو الطعام الفاسد ، ونجا هو من الموت برغم مشاركتهم فى أكل هذا الطعام ؛ لأنه كان قوى البدن ، وقد رزقه الله مناعة يسرت له النجاة من المهالك أكثر من مرة .

معرفته بالطب والأعشاب

وكانت له بعض المعرفة بالطب والأعشاب التى كان الناس يتداوون بها من الأمراض الشائعة ، فكان شديد الحرص على أن يكون له زاد منها ، وكان يداوى نفسه بنفسه ، وربما داوى غيره .

وخلاصة القول فى هذا المجال أن الرجل كان مهيئاً نفسيًّا وجسديًّا للمطلب العسير الذى أراده ، وأعانه الله عليه فاستمتع بما أراد ، وأمتعنا معه .

ومن لطائف حديثه فى رحلته أنه كان يذكر كل شىء حتى الصداع الذى يلم به أو المغص الذى يصيبه أو الرمد الذى يشكوه ، فيزيدنا ذلك استمتاعاً بقراءته ، فنحن مع محدث بارع وحديثه كله مفيد ، حتى حديثه عن أمراضه وأوجاعه عظيم الفائدة ؛ فهو يعطينا فكرة عن الأدوية وأساليب التداوى فى أيامه ، ويكشف لنا عن حقيقة أكبر ، وهى أن مستوى العلاج لم يكن منخفضاً كما نظن ، فقد كان للناس معارف طبية كثيرة جدًّا ، وكانت أدويتهم على بساطتها – نافعة ناجعة ، وهذا جانب من جوانب الحضارة الإسلامية عظيم .

٣
كيف قام برحلاته كلها دون مال ؟

أخطار الرحلات والأسفار في الماضي

قلنا : إن ابن بطوطة علل خروجه للرحلة برغبته فى أداء فريضة الحج ، وقلنا : إن ذلك كان مجرد تعلة سترت عن عينيه شوقه الشديد إلى السفر والتنقل فى البلاد ، لأن السفر وتجشم متاعب الرحلة لغير غاية واضحة يعترف بها المجتمع لم يكن شيئاً مفهوماً فى تلك العصور ، ولعل الرجل لو قال – كما نقول نحن اليوم – إننى مسافر للنزهة أو الفرجة أو الترويح عن النفس لاستقلوا عقله ورموه بالحمق وسوء التصرف ! لأن السفر فى تلك العصور لم يكن متعة ولا راحة ولا نزهة ، إنما كان مغامرة بالنفس والمال ، فما كانت هناك طرق مواصلات مأمونة ، ولا كانت هناك وسائل للراحة !

ومن أهم ما تنبغى ملاحظته أن الحكومات فى تلك الأعصر كانت شديدة الوطأة على المسافرين : فكانت تتقاضى منهم الضرائب والمغارم والرشا على الدخول والخروج ومعابر الأنهار ، ومع هذا فلم تكن تضمن لهم السلامة ، لأن القبائل كانت فى حاجة إلى مرور القوافل بأراضيها ، فتجلب لها ماتحتاج إليه من سلاح وماعون وسرج ولجم للخيل لاينتجونها فى الصحراء ولايستغنون عنها ، وتحمل عنهم مازاد من إنتاجهم المتواضع من الصوف والجلد والملح وما يكون فى أرضهم من شىء نافع كالشب والكلس أو العشب النافع للعلاج وما إلى ذلك ، ولهذا كان شيوخ القبائل يحرصون على سلامة القوافل ورجالها ، ويصحبونهم فى سيرهم فى أراضيهم حتى يسلموهم لحماية من يليهم وهكذا .

وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل . فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجرٍ ، يبيع ويشترى ويسد نفقات الرحلة على الطريق ؟

الجواب على هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية . وهي ناحية ترابط الأمة وتآخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ،

حقيقة تاريخية تؤيدها رحلة ابن بطوطة : وحدة عالم الإسلام

واجتهادهم فى المحافظة على وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام .

ذلك أنه كان هناك دائما عالمان إسلاميان : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ، وعالم الأمة نفسها ، وهي وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا . ورحلة ابن بطوطة – مثلها فى ذلك مثل كل كتب أدب الرحلات العربية – توضح لنا هذه الحقيقة بأجلى بيان : فهذا الرجل قطع العالم الإسلامى كله من المغرب إلى إندونيسيا – التى يسميها بلاد جاوة أو سُمَطْرة وجزر الفيلبين التى يسميها بلاد طوالسى والجاليات الإسلامية فى مدن السواحل الشرقية والجنوبية فى الصين وتمادى فى الرحلة حتى دخل بكين ، هذا الرجل قطع هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ، ووجد فى كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا على سبيل التكرم والتفضل ، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة :

ذلك هو نظام الزوايا والمدارس والرُّبُط – جمع رباط ، وهى دور ضيافة ينشئها رجال الطرق الصوفية أو بعض أهل الخير أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص ، وقد تنشئها الجماعة نفسها ، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها من أموال تجمع لهذا الغرض .

شبكة الزوايا والمدارس والرُّبُط تغطى عالم الإسلام

وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطْعامه . وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه المسافر على الطريق الذى يحتاج – إلى جانب الطعام والمأوى – إلى أن يشعر بأنه بين أهله وإخوانه فى أى ركن من أركان عالم الإسلام كان ، وقد أحصيت ست آيات على الأقل فى القرآن الكريم أوصى الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً فى أموال الناس ، ففى الآية ٢١٥ من سورة البقرة مثلا تقرأ : (يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) ، وفى الآية ٤١ من سورة الأنفال : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير) ، وفى الآية ٦٠ من سورة التوبة : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم

وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم) ويتكرر النص على حق ابن السبيل فى الآية السادسة والعشرين من سورة الإسراء ، والثامنة والثلاثين من سورة الروم ، والسابعة من سورة الحشر ومواضع أخرى من الكتاب الكريم .

الإسلام وابن السبيل والزوايا

لهذا حرصت الأمة – وهى القيمة الحقيقية على الدين – على تنفيذ هذا التوجيه القرآنى العظيم ، فأقامت الزوايا والرُّبُط ودور الضيافة فى كل مكان . ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل على ذلك : فهذا الرجل لا ينزل بلداً إلا آوى إلى الزاوية أو الرباط ، ووجد فيه ما يتيسر من الإكرام : ففى بعض الأحيان لا يظفر إلا بالنوم وشىء من الزاد ، وفى أحيان أخرى يجد الطعام الطيب والمبيت المريح والحلوى ، ولكنه لا يترك فى العراء أبداً ، وسنعطى أمثلة كثيرة على ذلك فى سياق هذه الدراسة .

وجدير بالملاحظة أن هذه الزوايا كانت أغنى وأحسن حالاً فى آسيا الصغرى وكل نواحى وسط آسيا من إيران إلى الهند ، لأن البلاد أغنى وعهد الناس بالإسلام فيها قريب ، ثم إن سكان هذه البلاد من أتراك ومغول وهنود كانوا يرحبون أشد الترحيب بمن يزورهم من العرب ، وخاصة إذا كان الزائر من أهل الفقه والدين ، هنا يتجلى فضل الإسلام على الناس فى صورة باهرة ، فإن أولئك الناس كانوا يحرصون على إكرام العربى ، لأن العرب قوم الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم منهم ، والقرآن عربى ، فما يكاد الناس يرون فقيهاً عربيًّا حتى يقبلوا عليه ويتنافسوا فى إكرامه .

وجانب آخر من جوانب التنظيم الاجتماعى الذى قامت به الأمة من تلقاء نفسها تكشف لنا عنه رحلة ابن بطوطة . وهو أن الناس كانوا ينقسمون إلى مراتب وأصناف :

تقسيم الناس إلى مراتب وأصناف

فأما « المراتب » فهم أصحاب الوظائف الفكرية والدينية ومن فى مستواهم من كبار رجال الدولة والتجار وأهل الأموال ، وأما « الأصناف » فهم أهل الحرف اليدوية على اختلاف أنواعها من بنائين ونجارين وحدادين ونساجين وصغار التجار والنواتية ، وهم عمال البحر ومن إليهم . وقد تحدث مؤرخونا عن هذه المراتب وتلك الأصناف ،

وذكروا أن أهل كل مرتبة وكل حرفة كانوا يكوِّنون فيما بينهم شبه نقابة أو رابطة ، فيتعاونون فيما بينهم ، ويكرم بعضهم بعضاً بدافع ذلك الرباط .

وكانت أصناف أهل الحرف أكثر ترابطاً ، لأنهم في العادة – كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية الكثيرة : من شاذلية وتيجانية ورفاعية وقادرية وجُزُولية ، وكانت العادة أن ينتسب أبناء الحرفة الواحدة إلى طريقة بعينها ، وكانوا يسمون أنفسهم « العشيرة » ، وكان شيخ العشيرة في كل بلد أشبه بأبٍ لأهل الحرفة ورئيس مطاع لهم ، يلجئون إليه في حل مشاكلهم حتى الخاصة منها ، فيصلح بين الأزواج ، ويعنى بتزويج اليتيمات ، ويراقب الأوصياء على اليتامى ، وكان سلطانه على أفراد عشيرته أقوى من سلطان الدولة .

وفي رحلة ابن بطوطة نرى براهين ذلك واضحة متعددة : فهو نفسه سلك نفسه في سلك القضاة ، لأنه – كما يقول – من بيت قضاء ، ثم إنه تولى القضاء أول مرة بعد خروجه من تونس مع الركب ، فأصبح يعد نفسه قاضياً ، وصار لا ينزل إلا على القضاة ، فإذا نزل بلداً ولم يجد فيه زاوية أو رباطاً سأل عن القاضي ، ونزل عليه ، فإذا لم يجد كان نزوله على الفقيه ، فيجد الإكرام الذى يريد .

ونلاحظ طوال الرحلة كيف كان الناس يكرمون بعضهم بعضاً بروابط العمل والحرفية دون أن نلاحظ وجود طبقات اجتماعية ، وليس معنى ذلك أن الناس كانوا سواسية أو أن عالم الإسلام كما نراه عند ابن بطوطة – كان مدينة فاضلة أو أوتوبية ، فقد كان هناك فقراء وأغنياء ، وأقوياء وضعفاء ، ولكن الأمة كانت تجتهد في إزالة هذه الفوارق وتحقيق المثل الأعلى الإسلامى بطريقة تلقائية ودون تكلف .

وهذا هو عالم الإسلام الآخر الذى تكشف رحلة ابن بطوطة النقاب عنه ، عالم أمة الإسلام .

عالم الإسلام الأول

أما عالم الإسلام الأول فهو عالم السياسة والحرب والصراع الذى تحدثنا عنه كتب التاريخ ، وهو عالم بغيض لا ترتاح إليه النفس ، ويشعر الإنسان وهو يقرأ أخباره أن أمة الإسلام تسير في طريق مخوف ، وعندما تقرأ رحلة ابن بطوطة ورحلات غيره فإننا نجد أنفسنا في عالم واسع تسكنه أمة واحدة يربط بين أفرادها رباط الإسلام والمودة والإنسانية

وهذه فضيلة أكبر من فضائل هذه الرحلة فهى فى الحقيقة رحلة فى عالم أمة الإسلام ، رحلة فى صميم المجتمع الإسلامى نراه من خلالها على حقيقته ، وهى حقيقة تسعد الإنسان ، وتشعره بأن الدنيا بخير ما دام الإسلام بخير.

وجدير بالملاحظة أن ابن بطوطة قام برحلته تلك بعد انقضاء قرابة القرن والنصف على زوال خطرى الصليبيين والمغول اللذين كادا يوقفان مسيرة الحضارة فى مساحات واسعة من عالم الإسلام ، ونحن إذ نمضى معه فى عالم الإسلام الذى أفلح فى بناء نفسه من جديد نجد أن جراح أمة الإسلام قد اندملت وأننا أمام عالم إسلامى جديد ولد بعد الكارثة وبنى نفسه ، وأقام السلام والأمان على أرضه . وكل ذلك بفضل الإسلام الذى جمع أمته وأنزل عليها السكينة بعد طول روع وتدهور . والكثير من أمم الإسلام التى سيجدها ابن بطوطة مستظلة بظل الإسلام كانت حفدة أولئك المغول الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله ، فطواهم نور الله وهداهم ، وأدخلهم الإسلام وجعلهم من خدامه والعاملين على رفعته .

٤
عصر ابن بطوطة

عصر الأولياء والصوفية

على طول رحلة ابن بطوطة نلاحظ اهتمامه الشديد بلقاء الأولياء وشيوخ الصوفية والزهاد وأصحاب الكرامات ، ويبلغ اهتمامه بهذا الأمر أن يتخلف عن الركب ، ويمضى لزيارة عابد زاهد منفرد بنفسه فى مكان بعيد ، ليسأله الدعاء والبركة . وهو يؤمن إيماناً شديداً بأولئك الأولياء ، ويعطينا الأدلة على صدق ولاَيَتِهم ، واستجابة الله سبحانه وتعالى لشفاعتهم ، وما يتوجهون به إليه من رجاء . وفى وقت من الأوقات نجد ابن بطوطة على وشك أن يترك الرحلة ، وينقطع لخدمة واحد من أولئك الأولياء ، ولكن حب الرحلة غلب عليه ، فترك الفكرة ومضى .

وهذه الناحية عند ابن بطوطة تعطينا جانباً هامًّا من جوانب ملامح العصر الذى عاش فيه ، وهو القرن الثامن الهجرى – الرابع عشر الميلادى ، لأن هذا العصر فى عالم الإسلام كله كان عصر الأولياء وأصحاب الكرامات والطرق الصوفية وشيوخها .

الاسباب التاريخية لشيوع ظاهرة الأولياء .

وهذه الظاهرة طبيعية ومنطقية من الناحية التاريخية والنفسية فى عالم الإسلام فى الشرق والغرب على السواء : فقد ابتلى العالم الإسلامى كله خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بنكبات متوالية يرجع السبب فى معظمها إلى تدهور نظم الحكم وفسادها وضياع هيبتها ويأس الناس منها : فقد نزلت به جائحة الصليبيات ، وتحول العدوان الصليبى فى الأندلس وبلاد الشام من غارات وغزوات إلى احتلال أراضٍ وإدخالها فى الأرض النصرانية ، كما حدث فى الأندلس ، وإنشاء إمارات وممالك نصرانية على أرض إسلامية كما حدث فى الشام والعراق .

وإزاء ذلك العدوان المستمر الخطر وقفت دول الإسلام فى المغرب والمشرق عاجزة لا تستطيع القيام بشىء يحمى دار الإسلام ، ويصون أنفس المسلمين وأموالهم : ففى الأندلس انتثرت الوحدة ، وضاعت دولة بنى أمية ، وتفرقت بلادها فيما يعرف بممالك

الطوائف ، وأخذت دول إسبانيا النصرانية تقتطع أراضى المسلمين جزءاً جزءاً دون أن تنهض لإيقافها إحدى هذه الدويلات .

وعندما سقطت طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون سنة ١٠٨٥ ميلادية ضاع الأمل تماماً فى إنقاذ الأندلس على أيدى أمرائه ، لأن أولئك الأمراء لم يكتفوا بخيانة الوطن العربى الإسلامى ، بل وضع معظمهم نفسه فى حماية النصارى ، وأدوا إليهم الإتاوات مما أيْئَس الناس جميعاً من الدول والحكومات ، ولولا تدخل المرابطين فى أعقاب نكبة طليطلة لضاعت بقية الأندلس قبل نهاية القرن الخامس الهجرى .

وأما فى الشرق فقد ضاع الحزم جملة ، ووقف السلاجقة المتأخرون أمام العدوان الصليبى موقف العاجز ، وهبط أمر الخلافة العباسية حتى لم يعد لها فى العالم السياسى أى وزن ! أما الفاطميون فلم يدركوا حقيقة الغزو الصليبى إلا فى وقت متأخر ، وعندما استولى الصليبيون على عسقلان آخر معاقلهم فى الشام خرجوا من ميدان الصراع الصليبى جملة ، ودخلت دولتهم دور الاحتضار الأخير .

فى هذه الظروف أحست أمة الإسلام كلها أنها تقف عزلاء مكشوفة أمام أعداء لايرحمون ، فاتجهت القلوب والنفوس إلى الله سبحانه وتعالى تستلهمه القوة على مواجهة هذه الشدائد ، وتسأله الغوث للإسلام وأهله ، وتتلفت العيون والقلوب نحو طوائف الصوفية وشيوخهم والزهاد والعباد ومن نسميهم بالأولياء : أى أولياء الله .

ولقد كانت هذه الطوائف موجودة منذ زمن طويل ، ولكن ظروف اليأس الشامل زادتهم أهمية فظهروا فى المجتمع وكثرت أعدادهم وتنوعت أشكالهم ، وأصبحوا يمثلون قوة روحية كبيرة أفاد منها الناس كثيراً . ونحن فى العادة نقول :

إذا عجز الطبيب ظهر الولى .

فى ذلك العصر – وهو القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى – نجد لكل مدينة عدداً من الأولياء يحتلون مراكز روحية ، ولهم سلطان معترف به حتى لتستطيع أن تقول : إنهم كانوا أصحاب وظائف رسمية ، يعترف بها الناس ، بل يعترف بها أصحاب السلطان . والناس يرون أن هؤلاء الأولياء هم السلاطين بالفعل ، لأن

إلا مملكة غرناطة ، فقد عوض الإسلام هذه الخسارة بالتقدم الكبير الذى حققه فى آسيا الصغرى على يد إمارات الغزاة من سلاجقة الروم ثم طلائع التقدم العثمانى فى بلاد الدولة البيزنطية . ولقد زار ابن بطوطة هذه الإمارات ، ورأى من قوة رجالها وإيمانهم بالإسلام ما يشرح صدر المسلم ويعوضه الكثير من الألم الذى يثقل عليه عندما يذكر الأندلس وما كان يجرى فيها .

كذلك كان الإسلام يتقدم حثيثاً فى الهند وشرقى آسيا وجنوبيّها : أى أن الرجل جال فى عالم الإسلام فى عصر إشراق وأمل ، وفى القرن الذى تلا رحلاته وهو القرن الخامس عشر – يدخل الإسلام فى عصر زاهر من القوة ، عصر الدول العظمى الإسلامية الأخيرة : سلطنة مغول الهند ، ثم أواخر النوريين ، وطلائع الصفويين فى إيران ، ثم سلطنة مصر والشام المملوكية ، وطلائع الأتراك العثمانيين ، ثم يلى ذلك غرباً أواخر الحفصيين ثم أمراء بنى زيان فى تلمسان ، وتنتهى غرباً بدولة آل مرين فى المغرب الأقصى .

هذه كلها كانت دولاً كبيرة قوية ، وبعضها كان تمهيداً لدول أعظم منها كما نرى فى إيران حيث حل الصفويون محل بقايا النوريين والإيلخانات ، وفى آسيا الصغرى والبلقان حيث قامت سلطنة آل عثمان سلاطين الحفصيين فى أفريقيا وجزء من المغرب الأوسط ، ثم سلاطين الشرفاء السعديين الذين حلوا محل بنى مرين وبنى وطاس وبنى زيان .

كان العالم الإسلامى أيام ابن بطوطة – إذن – عالماً آخذاً بأسباب القوة ، سائراً فى طريق الصعود ، ولكن خلف الوجهة الضخمة الخادعة كان يكمن الداء ، بل الأدواء ؛ فإن البناء الإدارى والسياسى لدول الإسلام فى العصور الوسطى المتأخرة كان قد تآكل وفَسَدت نظمه وقواعده ، وتحولت الدول – فى حقيقة الأمر – إلى استبداديات طاغية ، لا هم لها إلا جمع الأموال من الناس وإنفاقها على جندها ، إلا شيئاً يسيراً كانت تنفقه فى مصالح البلاد والعباد .

وسيتجلى ذلك بكل وضوح فى انهيار الدولة المملوكية لأول صدمة جادة من الأتراك العثمانيين ، وفى انهيار الدولة الحفصية أمام هجمات الإسبان ، ثم انهيار دولة

بنى وطاس تحت وطأة الهجوم البرتغالى الذى لم يوقفه إلا مجىء الشرفاء السعديين .

ولكن ابن بطوطة – على أى حال – طاف بنواحى عالم إسلامى مستقر الأحوال قائم النظم ، وإذا كانت الأطر السياسية قد تدهورت فإن الأطر الاجتماعية والأخلاقية ما زالت قائمة . ومن خلال أحاديث ابن بطوطة لا نرى دولاً عظيمة بالمعنى الصحيح ، ولا نظماً سياسية سليمة جديرة بالتقدير ، ولا سلاطين أو أمراء عظاماً يستحب الإنسان الوقوف عندهم ، ولكنا نلقى نظاماً اجتماعيًّا وأخلاقيًّا سليماً ، ونطوف معه فى بلاد جماعة إسلامية آمنة محافظة على أطرها وقواعدها وأخلاقياتها .

وهذا هو الذى يضفى على هذه الرحلة متعة وجمالاً ، ويجعل قراءتها راحة للنفس والقلب . إنها رحلة فى عالم الإسلام الآخر ، عالم الأمة الإسلامية المستقرة الآمنة المطمئنة الفياضة بالخير .

ولم أجد فيما قرأت من كتب التراث عندنا ما يصور ترابط أمة الإسلام واستقرار قواعدها ؛ كما وجدت عند ابن بطوطة ، فبينما نجد الكتب الأخرى تحدثنا عن الحروب والصراعات والغلوات والمجاعات أو تصرفنا عن عالم الواقع صرفاً تاماًّ نجد ابن بطوطة يعرض لنا صورة عالم إسلامى مستقر آمن . والسبب فى ذلك أن الرجل قد قام بهذه الرحلة فى عالم أمة الإسلام الواسع دون أن يتأثر كثيراً بما كان يجرى بين الرؤساء فى عصره من حروب ؛ لأن أمة الإسلام كانت قد أخرجت نفسها من نزاعات السياسة داخل نطاقها ، وعاشت بعيداً عن منازعات الرؤساء ، آمنة فى ظل العقيدة الواحدة ، عقيدةِ التوحيد والسلام .

٥

الطريق من طنجة إلى تونس – إقامته قاضيًا

بعد أن ألممنا بهذه المعلومات عن الإطار العام الذى تمت فيه رحلة أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة – نبدأ فى السير معه خلال هذه الرحلة الطويلة مرحلة مرحلة ، منبهين فى كل مرحلة إلى ما يستوقف النظر ، ويهم المتطلع إلى أحوال دار الإسلام والدنيا فى أيامه من الحقائق التاريخية والظواهر الاجتماعية ، وما عسى أن يطرف الإنسان من الغرائب والعجائب من أحوال الناس فى هذه الدنيا .

ونحن إذ نفعل هذا إنما نقوم مع ابن بطوطة بدراسة شاملة ، أو استطلاع – إذا شئت – لأحوال أمة الإسلام خلال القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى :

تلمسان وإمارة بنى زيان

خرج ابن بطوطة لرحلته يوم الخميس الثانى من شهر رجب سنة ٧٢٥/الخامس من يونيو ١٣٢٦ ، وكانت سنه إذ ذاك اثنتين وعشرين سنة هجرية تنقص خمسة عشر يوماً . وقد ذكرنا أنه خرج فى رحلته تلك مع رفقة مسافرين لا مع ركب الحاج ، وكانت أولى المراحل التى وقف عندها مدينة تلمسان ، وكانت إذ ذاك عاصمة إمارة زناتية تحكمها أسرة بنى زيان أو بنى عبد الواد وهى أسرة زناتية عريقة تمكنت من السيطرة على الجزء الغربى من المغرب الأوسط من نهر المولوية إلى مدينة وهران ، واستمرت تحكمه ما بين سعود ونحوس ثلاثة قرون ونيفاً ، من ١٢٣٦ حتى ١٥٥٠ .

وكان أميرها إذ ذاك أباتا شُفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن أبى يحيى يغمرا سن بن زيان ، وهو أمير جرىء واسع النشاط لا يغفر التاريخ له أنه دبر مصرع أبيه موسى ورآه يقتل بين يديه ، وصعد إلى العرش على هذا النحو ، واجتهد فى تبرير فعلته بالاجتهاد فى تقريب الفقهاء والعلماء وإنشاء المدارس والرُّبط ، واستقدام أهل العلم والفن من الأندلس وأفريقية والمغرب الأقصى . وقد عنى كذلك بمسجد تلمسان

الجامع . فوسعه وزينه ، وجعله فى الصورة التى نراه عليها اليوم ، وهذا المسجد من منشآت يوسف بن تاشفين .

وكانت تلمسان فى أيامه إمارة غنية بفضل ما ساد ربوعها من أمن أزهرت فى ظلاله التجارة ، وتوافد عليها من مُهاجِرة أهل الأندلس الكثيرون من التجار بأموالهم ، فتحولت تلمسان إلى مركز تجارى كبير ؛ لأن التجارة كانت تخرج من موانيها مثل وهران وأرشْقول وقلِّيلَة ، ثم تمضى إلى سِجِلْماسة ، ومن هذه الأخيرة تتفرع طرق التجارة إلى نواحى السُّوس فى جنوبى المغرب الأقصى ، وإلى تِمبُكتو العاصمة التجارية لأفريقية الإسلامية المدارية على نهر النيجر ، وإلى أدار وتاورِيرت من مراكز القوافل فى الصحراء الكبرى .

وكانت هذه القوافل تجلب إلى تلمسان قدراً عظيماً من التبر الذى يجمع من مياه أنهار أفريقية المدارية ، وجلود اللمط ، وهو نوع من الوعول غليظ الجلد تصنع منه الدروع وسرج الخيل وقرابيس الركوب وقد تبطن به السفن ، فكان الطلب عليه شديداً ، وكانت تجلب كذلك سن الفيل وريش النعام والخشب الصَّلب والملح ، وكل هذا كان التجار يصدرونه إلى أوروبا من الموانى التى ذكرناها ويستوردون بدلها بضائع كثيرة أهمها السيوف وآلة الحرب والحديد وبعض النسيج والورق وما إليها .

ولا يحدثنا ابن بطوطة بشىء من ذلك ، وإنما هو يعطينا صورة مشرقة لتلمسان كما رآها بنفسه ، فهى – على هذا – وثيقة تاريخية ؛ ثم يذكر كيف أن الظروف شاءت أن يفد على تلمسان رسولان من قبل أبى يحيى بن أبى ضربة بن أبى زكريا بن اللحيانى ، وهو الحادى عشر من أمراء الدولة الحفصية الذين اتخذوا لقب الخلافة ، وعمّرت دولتهم ثلاثة قرون ونصف القرن ، منها نصف قرن من السعود ، والباقى نحوس وانحدار واحتضار . وكان أبو يحيى هذا قد تولى العرش بعد محن دارت على أبيه وجده وَهَنَ منها كيان الدولة ، فلم تعد بعد ذلك قط إلى بهائها الأول أيام أميرها أبى عبد الله محمد ابن أبى زكريا يحيى الملقب بالمستنصر ، صاحب النصر العظيم على لويس التاسع الملك الفرنسى الصليبى الذى حاول غزو مصر ففشل ، وهزم وأسر وسُجن فى دار بن لقمان فى

المنصورة ، ثم أخلى سبيله ، فعاد ؛ لينتقم من أهل الإسلام فى تونس ، فانهزم وقُتل سنة ١٢٧٠ ميلادية .

ويهمنا من ذلك كله أن ابن بطوطة انتهز فرصة خروج رسولى أمير أفريقية – أى تونس – الحفصى ، فخرج فى رفقتهما ، وليته ما فعل ! فقد لقى فى رفقتهما وصَباً ؛ فقد لحق بهما بعد أن خرجا بأيام فى مدينة مِلْيانة ، وكان الوقت قيظاً فنزلت بهما الحمى ، فلما كانوا على مسافة قصيرة من مِليانة فى الطريق إلى مدينة الجزائر توفى أحدهما ، وكان قاضياً ، فعادوا إلى مليانة ودفنوه فيها ، ووجد ابن بطوطة الشاب أن وقته سيضيع مع هذين الشيخين ، فترك رفقتهما ، والتحق برفقة جديدة ذاهبة إلى مدينة الجزائر ، وكان فى الرفقة الجديدة نفر من كرام الناس عوضوه عن بعض ما بقى من صاحبيه الأولين .

مدينة الجزائر

ووصلوا إلى مدينة الجزائر فلم يطيلوا المقام فيها ؛ لأن الجزائر لم تكن مدينة بعد ، وإنما كانت فرضة صغيرة أمامها فى البحر جزر صغيرة وصخرة بارزة فى البحر عظيمة ، وكانت تسيطر على الناحية قبيلة تسمى ببنى مِزْغَنَّا ، فكانت الفُرضة تسمى بجزائر بنى مزغنا ، ويرجع الفضل فى تعميرها وتمدينها إلى مهاجرة الأندلس ، وقد عُنِىَ بتلك الفرضة المرابطون ، وأنشأ يوسف بن تاشفين فيها مسجداً ، ثم مَدَّنها الموحدون ، ثم اتخذ خير الدين باربروسا – واسمه عروج – الفُرضة والصخرة قاعدة لأعماله ضد الإسبان بعد أن استخلصها منهم خلال القرن الخامس عشر ، ومن ذلك الحين أصبحت جزائر بنى مزغنا تسمى بالجزائر فحسب ، وأصبحت كذلك القاعدة الثانية للمغرب الأوسط ، وحلت محل تاهرت وبجاية . أما القاعدة الأولى للمغرب الأوسط فكانت تلمسان ، وقد تحدثنا عنها .

بجاية

وكانت فى المغرب الأوسط قاعدة كبيرة ثالثة ، وهى بجاية ، ولكنها كانت أيام زارها ابن بطوطة تابعة للحفصيين أصحاب أفريقية وقاعدتهم تونس . وكانت بجاية مدينة جليلة ومركز علم وعلماء ، وكانت قد تمدينت على أيدى الناصر بن عَلَنَّاس وهو أكبر أمراء فرع بنى حماد من دولة بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين خلفاء الفاطميين على أفريقية ، وما دان لهم من المغرب .

وعندما ترك ابن بطوطة ورفقته بجاية كانت الصحبة قد توثقت بين ابن بطوطة

وفقيهٍ وقاضٍ من الرفقة ، ولكنهم عندما وصلوا إلى بجاية نزل القاضى عند قاضى البلد ، ونزل الفقيه على أحد الفقهاء ، أما ابن بطوطة فلم يكن بقاض ولا فقيه ، فتركوه ينزل حيث يستطيع ، وهناك أصابته الحمى وإن لم تنقطع الصلة بينه وبين صديق من أصدقاء القاضى وهو أبو عبد الله الزبيدى وكان من التجار .

ويحكى ابن بطوطة أن تاجراً من الرفقة توفى وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من تجار الجزائر يسمى ابنَ حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس ، « فانتهى خبرها لأبى عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب أمير بجاية للحفصيين ، فانتزعها من يده ، وهذا أول ما شهدته من ظلم عمال الموحدين » (ص١٢) ، والمراد بالموحدين هنا الحفصيون ، لأن أبا محمد عبد الواحد بن أبى محمد بن أبى حفص عمر الهنتاتى مؤسس الدولة الحفصية كان من كبار الموحدين ، وكانت الدولة الحفصية فى أول أمرها فرعاً من دولة الموحدين .

قلنا : إن ابن بطوطة أصابته الحمى ، فنصحه صاحبُه أبو عبد الله الزبيدى بأن يستريح فى بجاية حتى يبرأ ، فأبى وركب الدابة على مرض وقال : « إنْ قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتى على الطريق وأنا قاصد أرض الحجاز » ومنَ المعروف أن الناس كانو يرون أن من مات فى طريق الحج عُدَّ شهيداً ، وقد عنى به الزبيدى وأعاره دابة وخباء ، وقال ابن بطوطة : « وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الإلهية فى تلك الوجهة الحجازية » .

وفى قسنطينة لقى ابن بطوطة مكرمة جديدة من مكارم أهل الجود تؤكد ما قلناه من ترابط الأمة الإسلامية وتعاونها على الخير ورعايتها لابن السبيل . وكان المطر قد هطل على الرفقة وهم نائمون فى الأخبية ، فتلوثت ثياب ابن بطوطة ، قال : « فنظر حاكم المدينة – وهو من الشرفاء الفضلاء – إلى ثيابى وقد لوثها المطر ، فأمر بغسلها فى داره ، وكان الإحرام منها خَلِقا ، فبعث مكانه إحراماً بعلبكياً ، وصَرَّ فى أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فتح علىَّ به فى وجهتى » (ص١٢)

وأصابت ابنَ بطوطة الحمى مرة أخرى وهو فى الطريق من بونة إلى تونس ، فكان يشد نفسه بعمامته فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ، « ولا يمكننى النزول من

الخوف » وعندما وصلوا إلى تونس خرج الناس للقاء صاحبيه أبي عبد الله الزبيدى وأبى عبد الله النفزاوى . وترك ابن بطوطة وحيداً لعدم معرفته أحداً من الناس ، فعزت عليه نفسه وبكى ، واشتد بكاؤه ، فرق له فؤاد بعض الناس ، فأقبلوا عليه يؤنسونه ، فدخل تونس ونزل فيها بمدرسة الكتبيين .

وقد رأى ابن بطوطة سلطان تونس إذ ذاك أبا يحيى أبا بكر وهو يشهد صلاة عيد الفطر سنة ٧٢٥/العاشر من سبتمبر ١٣٢٤ ، ولم يطل مقامه بتونس ؛ إذ كان لابد له من الخروج مع ركب الحاج فأقيم أميراً للحج رجلٌ يسمى أبا يعقوب السوسى ، وكان أكثر الحجاج من المصامدة : أى من سكان جنوبى المغرب الأقصى ، « فقدمونى قاضياً بينهم : أى قاضى طريق كما يقال ، ومن ذلك الحين أصبح ابن بطوطة الشاب قاضياً وحمل لقب القاضى ، وأصبح من أهل المراتب ينزل على القضاة والفقهاء .

٦
من الإسكندرية إلى القاهرة

أولى زيجات ابن بطوطة

خرج ابن بطوطة من تونس فى ركب الحاج التونسى وقد أقيم قاضياً للموكب ، فلما وصلوا إلى صَفاقس خطب بنتاً لأحد أمناء تونس من أفراد القافلة ، والأمين هنا يراد به مانسميه بنقيب أهل حرفة من الحرف فى بلد من البلاد ، وهذا يدل على أن ابن بطوطة لم يكن قد رقى بعد فى السلم الإجتماعى حتى يخطب ابنة أحد القضاة أو التجار ، فلما وصلوا طرابلس بنى بها وذلك فى أواخر المحرم سنة ٧٢٦ أواسط يناير ١٣٢٦ ، وتلك هى أولى زيجات ابن بطوطة .

لا صحة لما يقال عنه من أنه كان مزواجاً

والمشهور أن ابن بطوطة كان مزواجاً لايزال يتزوج ويطلق على طول الطريق ، ولكن ذلك غير صحيح ، فقد كان الرجل عاديًّا من هذه الناحية ، لا يصر على الزواج قبل أن تغيب شمس أى يوم كما يقال ولقد ظل ابن بطوطة على هذه الحال البسيطة حتى دخل آسيا الصغرى ، فانصبت عليه الهبات وكثر المال فى يده وكثرت جواريه ، فبدأت حاله تتغير ، وبدأنا نحس أن صاحبنا الشاب الطيب المتواضع الطنجى بدأ يتحول إلى رجل مترف شديد الحرص على المال والمتاع .

ويشاء الحظ ألا يوفق هذا الزواج الأول لابن بطوطة ، لا لخلاف وقع بينه وبين عروسه ، بل لشجار وقع بينه وبين أبيها ، فطلقت المسكينة ، وكأنما أراد ابن بطوطة أن يغيظ صهره السابق ، فتزوج على الطريق أيضاً بنتاً لأحد طلبة فاس ، قال « وبنيت بها بقصر الزَّعافِية ، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوماً ، وأطعمتهم » (ص١٥) وقصر الزعافية بعد مدينة سُرت بقليل فى الجمهورية الليبية .

الإسكندرية

وفى الأول من جمادى الأولى ٧٢٦/٥ أبريل ١٣٢٦ دخل ابن بطوطة مع الركب مدينة الإسكندرية ، وقبل أن نتحدث عن ابن بطوطة فى الإسكندرية نقول إن مصطلح « الطلبة » الذى مر ذكره كان يطلق على طلاب العلم وصغار الفقهاء الذين

كانوا يتقاضون رواتب من الدولة الموحدية ؛ لأنهم كانوا يقرءون ويحفظون كتب محمد بن تومرت مهدى الموحدين ، حتى بعد أن ألغيت عقيدة إمامة المهدى أيام أبى العلا إدريس المأمون ثامن خلفاء الموحدين (١٢٢٧ - ١٢٣٢) ظل طلبة الموحدين من رجال الدولة القائمين بدعوتها واستمرت رواتبهم .

رخاء البلد فى ذلك الحين

بهرت الإسكندرية أنظار ابن بطوطة بروائها وجمالها ، وكان البلد إلى ذلك الحين محتفظاً بكل بهائه ورونقه وثرائه ؛ لأن التجارة بين آسيا وأوروبا كانت على أشدها ، وكان الجنويون والبيشيون والبنادقة يرسلون المراكب إلى ميناء مصر الكبير ، وهناك يشترى مافيها من بضائع تجار المصريين ، وينقلونها إلى السويس أو القلزم ، وهناك يبيعون متاجرهم للتجار الوافدين من اليمن والهند ، ويشترون منهم بضائع الهند من توابل وأقمشة حرير وتحف لينقلوها إلى الإسكندرية ويبيعوها تجار الفرنج ، وكانت الدولة المملوكية الأولى تجنى من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، وكان ثغر الإسكندرية عامرا بالحركة والمال والناس ، وكانت هناك فنادق تجار الإفرنج ووكلاء الجمهوريات التجارية الإيطالية ، وكانت الخزانة المملوكية عامرة بالمال عن ذلك الطريق .

أبواب الإسكندرية

يتحدث ابن بطوطة عن ميناء الإسكندرية وسورها وأبوابها الأربعة - باب سدرة وباب رشيد وباب البحر والباب الأخضر - وهى معروفة إلى اليوم وهو لا يجد مايماثل مرسى الإسكندرية إلا مراسى كَولم وقاليقوط فى الهند ، ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون فى بلاد الصين ، سنتحدث عن هذه الموانى كلها فيما يلى من الأحاديث .

منارة الإسكندرية

ويتحدث ابن بطوطة عن منارة الإسكندرية ويقول : إنه رأى أحد جوانبها متهدماً ، وبحسب ماأذكر تلك هى أول مرة نقرأ فيها عن بداية تهدم تلك المنارة التى كانت تعد من عجائب الدنيا السبع ثم يقول بعد قليل : « وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة (١٣٤٩) فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله أو الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه »

عمود السوارى

ويتحدث عن عمود السوارى ، ثم يتحدث عن بعض علماء الإسكندرية منهم

قاضيها عماد الدين الكندى الذى كان يعتم « بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً فى صدر محرابه ، وقد كادت عمامته تملأ المحراب » !

أضخم عمامة رآها

وعماد الدين هذا هو أول من يلقاه ابن بطوطة من الرجال الذين يتركب اسمهم من شىء مضاف إليه لفظ « الدين » مثل فخر الدين وركن الدين وبهاء الدين ، وفى هذا العصر كله ما كان من الممكن أن تجد رجلاً من أهل العلم لا يتسمى على هذا الأسلوب ، حتى ابن بطوطة نفسه تسمى بشمس الدين .

أول من لقى من الأولياء

وفى الإسكندرية يلقى ابن بطوطة أوائل أصحاب الكرامات الذين كان يؤمن بهم ويحرص على لقائهم والفوز ببركاتهم على طريقة أهل عصره وإيمانهم بهم ، منهم الشيخ أبو عبد الله الفاسى ، وهو كما يقول ابن بطوطة — من كبار أولياء الله تعالى ، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته (ص ١٩) [1] ، والإمام الزاهد الورع « خليفة » صاحب المكاشفات ، ويذكر أنه دخل مرة على الشيخ خليفة فقال له « أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد » فقلت له : نعم إنى أحب ذلك ، ولم يكن حينئذ بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند ، أخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين ! فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلامَ فعجبت من قوله ، وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم (ص ٢٠) .

ويذكر كذلك من الأولياء الشيخ ياقوت الحبشى تلميذ أبى العباس المرسى ، هذا بدوره تلميذ أبى الحسن الشاذلى ، وسنرى ابن بطوطة يزور قبر الشاذلى فى حُمَيْثَرا فى الطريق من قوص إلى عيذاب ، وبهذه المناسبة يورد ابن بطوطة نص « حزب البحر » أى دعاء البحر الذى كان يقرؤه الشيخ الشاذلى إذا عبر البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة ليسلمه الله من العطب ، وما زال الشاذلية يتلون حزب البحر هذا كل يوم .

حرص سلاطين المماليك على سلامة تجار الإفرنج

ويحكى وهو بالإسكندرية حكاية تدل على حرص والى الإسكندرية على سلامة

(١) أرقام الصفحات هنا تشير إلى طبعة بيروت سنة ١٩٦١ لرحلات ابن بطوطة ، وهى طبعة غير محققه ؛ ولكنها هى التى فى متناول الأيدى اليوم .

تجارالإفرنج فقد وقعت مشاجرة بين تجار الإفرنج وأهل الإسكندرية ، فتحيز الوالى للتجار وعاقب المتشاجرين معهم من أهل البلد ، فثارت ثائرة الناس ، وأرسل السلطان الناصر رسولاً من القاهرة فتحيز هو الآخر للإفرنج ، واسمه طوغان ، ويصفه ابن بطوطة بأنه كان جباراً قاسى القلب يقال : إنه كان يعبد الشمس ، فكان هذا الرجل أقسى من الوالى على أهل البلد ، فحبس كبارهم وأغرمهم الأموال وقتل ستة وثلاثين منهم ، وقطع كل رجل قطعتين وصلبهم صفين ، وكان ذلك يوم جمعة . ولم نسمع بهذا الجزاء إلا من ابن بطوطة ، ولكنه على أى حال يدل على حرص السلطان الناصر بن المنصور قلاوون على تأمين جالية تجار الإفرنج فى الإسكندرية فهم مصدر دخل عظيم للدولة !

وقرب الإسكندرية سمع ابن بطوطة « بالشيخ العابد المنقطع المنفق من الكون أبى عبد الله المرشدى ، والمنفق من الكون هو الولى الذى يرزقه الله من عنده رأسا أى من الكون فلا يحتاج إلى سعى أو عطاء من أحد ، وكان منفرداً فى زاوية له فى منية بنى مرشد فى الطريق إلى دمنهور ، وهناك يقصده الوزراء والكبراء وعامة الناس ، فيشتهى كل منهم مايريد من الطعام ، فيأتيه به مهما كانوا بالطبع كان هذا كله من الكون » .

من الإسكندرية إلى القاهرة عن طريق دمياط

ووصل ابن بطوطة دمنهور ، ومنها إلى فوة ومن هناك قصد إلى زاوية الشيخ أبى عبد الله المرشدى ، فلقى منه إكراماً وبرا ، وقال له الشيخ : « اصعد إلى سطح الزاوية ونم هناك . . فصعدت السطح فوجدت به حصيراً ونطْعاً وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحاً للشرب فنمت هناك »

ورأى ابن بطوطة فى نومه مناماً ، فلم يحدث الشيخ به وانتظر أن يكاشفه الشيخ والمكاشفة هى أن يعلم الشيخ أنك رأيت المنام الفلانى دون أن تحكى له شيئاً عنه فيقصه عليك ويفسر لك ، وقد فعل الشيخ المرشدى ذلك فزاد إيمان ابن بطوطة به .

ومن دمنهور ذهب إلى إبيار ثم إلى المحلة الكبرى ثم إلى دمياط ، وهذا أمر مستغرب ، فهل كان يقصد القاهرة أو يقصد الشام وهو يثنى على دمياط ومدينة البرلس ويذكر شيخاً صالحاً من أهل دمياط يسمى الشيخ جمال الدين الساوى كان يبهر النساء

بجماله ويحكى كيف كاد يقع فى حبائل إحداهن حتى نجاه الله ؟ ثم هبط إلى فارسكور ثم إلى أشمون الرمان ثم إلى سمنود ، ومنها إلى القاهرة ، وهو يسميها مدينة مصر ، وكان على طول طريقه هذا يلقى العباد والزهاد وأصحاب الكرامات ؛ لأن رحلة ابن بطوطة إلى الآن رحلة دينية ، أوكراماتية إذا صح هذا التعبير ؛ فقدكان يقصد من يسمع به من أولياء الله فى بلادهم ، ويوجه رحلته على هذا الأساس لا على أساس الجغرافية .

وهذه ناحية جديرة بالملاطفة عند دراسة رحلة ابن بطوطة ، فهذا الرجل يطوف بنواحى الأرض مدفوعاً بعوامل شتى تجعل خط رحلته يتجه اتجاهات لا يمكن تفسيرها بالمنطق ولاتفسير لها إلا بفهم طبيعة ابن بطوطة .

فهذا رجل سَفَّار بطبعه يرحل للرحلة فى ذاتها ، ويعرب للتنقل فى نواحى الأرض ، كل شىء جديد يشوقه ويجذبه إليه .

وهذا رجل مؤمن عميق الإيمان يثق فى الأولياء ثقة بلا حدود ، إنه يلتمسهم ليسألهم البركات ، ويطرب أشد الطرب إذا هو جلس إلى ولى واستمع إلى صوته الحافل بالبركات وهذا رجل مسلم مشوقٌ لرؤية عالم الإسلام كله ، فهو يطوف بنواحى الأرض فى صبر واحتمال كأنه صحفى أرسلته صحيفته ؛ ليكتب استطلاعاً عن عالم الإسلام ، فهو يطوف بذلك العالم الإسلامى ؛ ليتفرج ويستمتع ومركز حركته كلها مكة أم القرى وقلب عالم الإسلام ، يطوف ويطوف ثم يعود إليها ، ليصيب زاداً روحيًّا جديداً يعينه على مواصلة المسير .

٧

القاهرة – الصعيد إلى عيذاب

ملاحظات طريفة عن مصر وأهلها

يبدأ ابن بطوطة كلامه عن مصر بعبارة مثقلة بالمعانى والعمق ، ولا أحسب أنه ساقها لمجرد المحافظة على السجع ، قال « ثم وصلت إلى مدينة مصر ، وهى أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتناهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وأماكنها ، وشبابها يجد[1] على طول العهد وكوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد » ومع أن الكتاب كله من صياغة ابن جزى ، فإنى أذكر أن هذه العبارة ، أو معناها على الأقل من كلام ابن بطوطة ، فهى لاتصدر إلا عن مشاهد ذكى ينفذ إلى حقائق الأشياء .

ويضيف بعد ذلك عبارة تدل على أن ماامتاز به أهل مصر من تفاؤل وميل للسرور قديم معروف كأنه خاصية شعبية : « وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو . شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير ، ولبثوا على ذلك أياماً (ص٣٢)

كثرة المدارس بمصر–مارستان قلاوون

ويشير إشارة سريعة إلى جامع عمرو ، ثم يقول : « وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ، وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية مالايحصر ، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم (ص ٣٣) وهذه العبارة الأخيرة غير مفهومة ؛

(١) يتجدد .

لأن المعروف أن المارستان وهو المستشفى - لم يكن يُغل مالا بل كان ينفق عليه المال ، فكيف يكون له مجبى ؟ فلعله يريد بذلك أن النفقة عليه ألف دينار فى اليوم .

كثرة الزوايا (الخانقاوات) فى مصر

ويقول : إن الزوايا فى مصر كثيرة وإنها تسمى الخوانق (جمع خانقاه) والأمراء فى مصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، وأكثرهم الأعاجم ، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ، ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب .

ويطنب ابن بطوطة فى مدح « قرافة » مصر التى أعجب بها الكثيرون ممن رأوا مصر قبله وبعده ، والقرافة كانت مدفن الصالحين والعلماء من أهل مصر ، ويقال : إن عدداً من الصحابة دفنوا فيها وعدد التابعين فيها كثيرون .

القرافة روضة الصالحين

وكانت من أبرك مواضع الزيارة بمصر ، وكانت مرتبة على نظام جميل يصفه ابن بطوطة : فعلى القبور قباب ، ويقام حول الضريح سور ، وتبنى فيه الغرف ، وكان الناس يخرجون كل جمعة للمبيت فى القرافة .

ويذكر عدداً من العلماء المدفونين فيها مثل عبد الرحمن بن القاسم العَتَقِى وأشهب بن عبد العزيز وابنى عبد الحكيم . وكانت روضة جميلة رويت فيها أحاديث تؤكد بركتها . وابن بطوطة كان من أواخر من رآها قبل أن يفسد أمرها بكثرة إقبال الناس على الدفن فيها وخروجهم إليها جماعات أيام الخميس وفى الأعياد والنوم والأكل فيها ، فضاع رونقها ونظامها ، وكانت فى الموضع الذى تقوم فيه اليوم إدارة الجامعة الأزهرية .

وكل شىء كان جميلاً فى مصر حتى أيام ابن بطوطة ؛ إنما فسد أمره وتلاشى جماله فى عصر المماليك البرجية الذين جاءوا بعد البحرية ، وأولهم السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس العثمانى اليلبغاوى ، وقد بدأ حكمه سنة ٧٨٤ هـ /١٣٨٢ م . أما فى عصر المماليك البحرية فقد احتفظت مصر برونقها هذا الذى يصفه لنا ابن بطوطة .

ابن بطوطة رأى مصر فى أوج ازدهارها فى العصور الوسطى

وكانت زيارة ابن بطوطة هذه لمصر فى أثناء الفترة الثالثة من حكم الملك الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى ، وهو عاشر سلاطين المماليك البحرية تولى وعزل مرتين ، ثم أعيد إلى الملك المرة الثالثة فى رمضان سنة ٧٠٩ هـ /١٣٠٩م

وظل يحكم حتى سنة ٧٤١ هـ /١٣٤٠ م ، وبعد وفاته مباشرة تأخذ دولة المماليك البحرية فى التدهور السريع ، وكان ابن بطوطة فى القاهرة فى أواخر ٧٢٦ هـ /أوائل ١٣٢٦ م فكان آخر رحالة زار مصر فى أكمل صورها فى العصور الإسلامية ، وبعد ذلك كان الانحدار ، وقد لاحظ ابن بطوطة عندما مر بمصر المرة الأخيرة سنة ٧٥٦ هـ/ ١٣٥٥ م أى فى حكم الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر أن البلد فقد الكثير من بهائه .

ويتحدث ابن بطوطة عمن عرف من علماء مصر ، ويذكر منهم جماعة يستوقف نظرنا فيهم أنهم كانوا من جميع نواحى بلاد الإسلام ، فمنهم : ركن الدين بن القَوْبَع التونسى ، وأثيرالدين أبو حيان الغرناطى ، وبرهان الدين الصفاقُسِى ، وقوام الدين الكِرمانى ، وبدر الدين عبد الله المُنُوفى .

وهذه الأسماء تدل بالفعل على أن مصر كانت قد تحولت إلى مركز العلم الإسلامى الأكبر ، وأن أهل العلم جميعاً كانوا فيها سواء ، لاتفرقة بين مصرى وغير مصرى ، وذلك هو الذى جعل لمصر وجامعها الأزهر ذلك الطابع العربى الإسلامى العام .

ويبدو أن ابن بطوطة لم يسعد فى القاهرة كثيراً ، لأنه لا يذكر إلا مشاهداته القليلة دون أن يضيف ما تعودنا منه من وصف أحاسيسه وانطباعات الأشياء فى نفسه !

رحلته فى صعيد مصر

ولكنه بدأ يشعر بالسعادة حقًّا عندما بارح القاهرة إلى الصعيد فى طريقه إلى قوص ؛ ليصل إلى الحجاز عن طريق ميناء عيذاب . فهو عندما خرج من القاهرة بات فى الرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حِنَّاء بدير الطين ، ودير الطين غيّر اسمها اليوم إلى دار السلام ، وهى ضاحية صغيرة فى الطريق من مصر إلى حلوان .

الآثار النبوية فى رباط دير الطين

ويطيل الكلام عن ذلك الرباط الذى « بنى على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها الله إياه وهى قطعة من قصعة رسول الله ﷺ ، والمِيل الذى كان يكتحل به ، والدرفش وهو الإشفاء (أى المسلة أو الإبرة الكبيرة) الذى كان يخصف به نعله ، ومصحف أمير المؤمنين عثمان الذى كتبه بخط يده رضى الله عنه . »

ويقال : إن « الصاحب تاج الدين بن حِنَّاء اشترى هذه الآثار الشريفة بمائة ألف درهم ، وبنى الرباط ، وجعل فيه للوارد والصادر (أى للمقبل والذاهب) الطعام

والجراية لخُدَّام تلك الآثار الشريفة . نفعه الله بقصده المبارك » (ص ٤٣)

ومن دَيْر الطين عَبَرَ النيل إلى الضفة الغربية إلى مِنْيَة القائد[١] ، وهو نفسه لا يذكر أنه عبر النيل ، ولكننا نعرف ذلك لأن منية القائد على الضفة الغربية للنيل إلى الشمال من بوش فى مديرية بنى سويف الحالية ، وكانت مشهورة بالكتان شهرة عظيمة .

المنيا

ويستمر فى المسير حتى منية ابن خصيب ، وهى مدينة المنيا الحالية ، وكانت تسمى منية ابن الخصيب ، ولفظ المنيا لفظ مصرى قديم ، والبلد مذكور فى الآثار القديمة ، ولكن ابن الخصيب عندما ولى عليها حُرِف الاسم إلى مُنية أو مِنية . وكان الذى ولى الخصيب على مصر هو المأمون ، وكان فى أول أمره خادماً ، ثم نبه شأنه ، وفى المنيا أقام قصراً عظيماً زاره فيه كبار الشعراء ، ومن بينهم أبو نواس ، وقالوا فيه وفى مصر ونيلها أشعاراً جميلة وغير جميلة .

منبر منفلوط

ومن المنيا ينتقل ابن بطوطة إلى مَلَّوى ، ويتحدث عن كثرة معاصر قصب السكر فيها . وفى منفلوط يحكى كيف أن الملك الناصر ابن قلاوون صنع منبراً عظيماً محكم الصنعة برسم المسجد الحرام ، ثم أراد نقله فى النيل إلى قوص ، ليحمل منها إلى عيذاب ، فلما وصلت السفينة إلى منفلوط توقفت ولم تتحرك برغم مساعدة الريح ، وعبثاً حاول الناس زحزحتها عن موضعها ، فأمر الملك الناصر بأن يوضع المنبر فى جامع منفلوط ، ولابد أن أصحابنا أهل منفلوط احتالوا بهذه الحيلة ليحصلوا لجامعهم على منبر عظيم .

وفى كل مدن الصعيد كان نزول ابن بطوطة على القضاة ، ولهذا نجده يتحدث عنهم فى إطناب وإعجاب ، وربما نزل فى المدارس كما فعل فى مدينة « هُو » عندما نزل فى مدرسة تقى بن السراج ، وفى تلك البلدة لقى الشيخ الصالح أبا محمد عبد الله الحسينى من كبار الصالحين الصوفية على طريقة الشاذلى .

ويقف طويلاً فى مدينة قوص ، ويتحدث عن علمائها وصلحائها ، والحق أن قوص كانت فى تلك العصور مركزاً من أكبر مراكز العلم فى عالم الإسلام ؛ فقد كانت ملتقى

(١) يضبطها بعض بضم الميم ظنًّا منهم أن النطق المصرى الجارى (بالكسر) تحريف للفظ مُنية أى ضيعة ، ولكن ذلك غير صحيح حين يتعلق بجغرافية مصر فى لفظ : المينا بكسر الميم قديم قبل الفتح العربى .

طرق عظيم ، ومنها أو من إسنا إلى جنوبها كان الناس يبدءون فى السير نحو عيذاب .

وكان الطريق من وادى النيل إلى ثغر عيذاب يشرع عند قوص أو جنوبها قليلاً ، ويسير فى وادى القلاّقى فى اتجاه جنوبى شرقى حتى يصل إلى ذلك الميناء الذى درس الآن ، وكان فى بلاد النوبة الحالية فى مقابل مدينة جدة .

وابن بطوطة فى هذه المرحلة فى أسفاره متفائل مستبشر حافل القلب بالشوق إلى شهود موسم الحج ، يطرب أشد الطرب لكل ما يتصل بالإيمان والعبادة ، ويسعى سعياً حثيثاً للقاء الشيوخ والأولياء والصالحين ، ولاغرابة فى ذلك فقد كان شابًّا فى مقتبل العمر فى الثالثة والعشرين من عمره ، ونحن لانجد فى حديثه لمحة واحدة من ضجر أو ملل ، بل إننا نجده فى هذه السن الباكرة منطلقاً فى رحلته فى ثقة تامة بنفسه عامر الشوق إلى زيارة المسجد الحرام وأداء الفريضة وزيارة قبر المصطفى صلوات الله عليه فى المدينة المنورة بالغ الطرب لرؤية المسلمين والاجتماع بهم والأنس بمجالسهم والتحدث معهم ومقاسمتهم لقمة العيش والاشتراك معهم فى الصلوات والاستمتاع بصحبة الشيوخ والسماع منهم ورؤية أولياء الله الصالحين والتبرك بهم والثقة فى صدق كراماتهم ، فهو يصدق أن بعض أولئك الشيوخ يصلى الظهر فى الحجاز والعصر فى الهند ، أو أن « ينفق من الكون » : أى أن رزقه يأتيه من عند الله بأى قدر يشاء وفى أى وقت يشاء !

وتلك هى الروح الطيبة السمحة التى تجعل قارئ ابن بطوطة يسعد بما يقرأ فها هنا شاب لا يمتلك درهماً ولكنه سعيد ، بعيد عن بلده وأهله ، ولكنه مستأنس بالناس أجمعين ، ينام ليلة على فراش وليلة على سطح بيت ، وهو فى كلتا الحالين سعيد كل السعادة ، ونحن نشاطره هذه السعادة ، ونرافقه فى رحلته بقلوب عامرة بالمسرة .

٨

بقية مصر وبلاد الشام

فى هذا الفصل من رحلة ابن بطوطة نتحدث عن ثغر عيذاب وتجربة ابن بطوطة عنده وعن بعض مشاهداته فى بلاد النوبة ثم فى بلاد الشام .

وقد ذكرنا فى الفصل السابق كلامه عن « قوص » ذلك المركز العلمى الكبير فى العصور الوسطى فى صعيد مصر الأعلى ، ومن قوص انتقل إلى الأقصر ، وهو لا يشير إلى آثارها أو إلى معابد الكرنك ، ولكنه يشير إلى قبر الشيخ الصالح العابد أبى الحجاج الأقصرى ، وهذا القبر مازال قائماً إلى اليوم فى قلب معبد الكرنك ، وهو عبارة عن مسجد ريفى جميل مطلى بالجص ، وهو يروع النفس وسط المعبد الفرعونى المشهور .

ومنها انتقل إلى أرمنت ، وهنا نقرأ هذه العبارة الطريفة : « وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافنى قاضيها وأنسيت اسمه ، وفى إسنا أيضاً أضافه قاضيها ، ولكنه لحسن حظ القاضى لم ينس اسمه ، وهو شهاب الدين بن مسكين ، ولعله ذكره ، لأنه لم يكتف باستضافته ، بل أكرمه « وكتب إلى نوابه بإكرامى » (ص ٤٩) .

ومن مدينة إسنا – وكانت سوقا تجارية عظيمة – انتقل إلى أدفو ثم عبر النيل إلى الضفة الشرقية ونزل فى بلدة العطوانى ، وهى بداية طريق العَلاَّقى هناك اكترى ابن بطوطة وأصحابه الجمال لكى يقطعوا ذلك الطريق الصحراوى الطويل إلى « عيذاب » وهذا الطريق يمر فى منازل قبيلة عربية تعرف بدغيم ، وليس فيه إلا آبار ماء قليلة ، ولهذا كان الحجاج يجهدون فى حمل الماء ، ولكنه كان آمناً جدًّا ، شهد بذلك الإدريسى أيضاً ، فكان يندر أن يسرق فيه شىء .

وفرضة عيذاب لم تكن لها أهمية إلا لأنها قبالة جدة ، وفيها آبار ذات ماء مالح

عيذاب وأرض البجاة

زعاق ، ولكن الناس كانوا يتحملون كل المصاعب فى سبيل الفوز بالحج إلى بيت الله الحرام وكانت عيذاب فى أرض البجاة ، وقد عظم أمرها فى أثناء القرنين الخامس والسادس الهجريين عندما كان الصليبيون يسيطرون على أرض فلسطين ، ويقطعون طريق الحج التقليدى خلال سيناء ثم العقبة ، وهناك كان يلتقى ركب الحاج المصرى وركب الحاج الشامى

أما فى أثناء الفترة التى نتحدث عنها فقد انقطع هذا الطريق وأصبح حجاج مصر والمغرب يسيرون فى الطريق الذى سار فيه ابن بطوطة صاعدين مع النيل إلى قوص أو إسنا أوأدفو ، ويعبرون النيل ليأخذوا طريق وادى العلاقى إلى عيذاب فى بلاد البجاة .

والبجاة الذين كانت عيذاب فى بلادهم كانوا قبيلاً قريباً من أهل النوبة ، ولكنهم لم يكونوا نوبيين ، وهم يكادون أن يكونوا جنساً منقطعاً مفرداً بذاته ، مثلهم فى ذلك مثل النوبيين ويقال : إنهم من أهل اليمن ، وقد سكنوا ساحل البحر الأحمر من قبالة الأقصر إلى ميناء سواكن ، وهم سمر الألوان يشتهرون بالأمانة والشجاعة ويجولون فى هذه النواحى ، وقد عرفوا بالمهارة التجارية ، ومن بقاياهم اليوم البشارية المعروفون فى جنوبى مصر ووادى حلفاء . وقد ضعف أمر البجاة بعد هجرة عرب رفاعة من صعيد مصر إلى النوبة ، فقد ساروا فى أرض البجاة واختلطوا بهم ، فأضاعوا وحدتهم الاجتماعية القبائلية .

وإلى هؤلاء البجاة يرجع الفضل فيما اشتهر عن طريق عيذاب من الأمن ، إذ كانت فيهم أمانة وصلابة اضطرت حكام مصر إلى أن يشركوهم فى حكم عيذاب ، فكان فيها والٍ لسلطان مصر ورئيس من رؤساء البجاة ، وكانا يتقاسمان إيراد الميناء .

سفن العبور إلى جدة

وكانت السفن تصنع هناك ، ولكنها كانت سفناً ضعيفة سيئة الصنع لايدقون فيها مسماراً ، ظنًّا منهم أن قاع البحر الأحمر فيه حجر المغنطيس ، فإذا سارت سفينة بمسامير اجتذبها المغنطيس فتفكك المركب وغرق ، ولهذا كانوا يربطون ألواح الخشب بعضها إلى بعض بحبال القنب ، ثم يصبون عليها زيت الخروع حتى لاينفذ فيها الماء ، وكانت السفينة — لهذا لا تحتمل إلا رحلة واحدة ، فإما غرقت أو وصلت ثم

تفككت ، وكان الله فى عون من كتب له السفر بهذه السفن !

وقد أعفت الظروف ابن بطوطة من ذلك الخطر ، فعندما وصل إلى عيذاب وجد أن خلافاً نشب بين سلطان البجاة – كما يقول – والسلطة المصرية ، ووقعت الحرب بين الجانبين ووقف الطريق ، بل ذهب غضب سلطان البجاة إلى درجة جعلته يحرق السفن المعدة للحجاج « فبعنا ماكنا أعددناه من الزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكتريناالجمال منهم إلى صعيد مصر » (ص ٥٠)

ابن بطوطة لا يحج عن طريق عيذاب ويعود أدراجه

وهكذا عاد ابن بطوطة أدراجه ، فصعد مع النيل ، ووصل إلى مدينة بلبيس فى منتصف شعبان ٧٢٦هـ/يوليو ١٣٢٦م ، واتجه إلى الشام ، قال : « ثم وصلت إلى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ، ونزلنا منازلها مثل السوادة والورَّادة والمُطَيْلِب والعريش والخَرُّوبة ، وبكل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابّهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته » (ص٥٠)

الحدود بين مصر والشام

وبعد قليل يجتاز نقطة الحدود بين مصر والشام عند قَطْيَا « وفيها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ، ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ، وجباها كل يوم ألف دينار من الذهب ، ولايجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة[1] من مصر ، أو أحد من مصر إلابراءة من الشام » .

ومع أن مصر والشام كانتا سلطنة واحدة ، فإن أخذ الضرائب على الحدود كان أمراً هامًّا بالنسبة لإيرادات السلطنة فى مصر ونيابة السلطنة فى الشام . ويبدو كذلك أنهم كانوا يخافون الجواسيس .

غزة

ودخل ابن بطوطة الشام عند غزة ، وهو يطنب فى مدحها ويقول : إن كبراء المدينة إذ ذاك كانوا بنى سالم ، ومنهم شمس الدين بن سالم قاضى القدس

ومنها انتقل إلى « الخليل » وأطال الحديث عن المقام الخليلى كتب الله له السلامة من مكايد اليهود – ووصفه يدل على عناية المسلمين بالمشهد الخليلى واجتهادهم فى أن

---

(١) أى بوثيقة مرور تدل على أنه دفع الضرائب والمكوس المفروضة على الانتقال بين مصر والشام ، وكانت مبالغ كبيرة ، ومع ذلك كانت تسمى زكاة !

يكون فى أجمل حالة ، وفيه عدد من قبور الأنبياء عليهم السلام .

وهنا نجد دليلاً على عناية ابن بطوطة بقراءة الكتابات والنقوش ؛ فقد أتانا بالنص الكامل لمشاهد قبر السيدة فاطمة بنت الحسين بن على رضوان الله عليهما ، وهو يقوم داخل مغارة .

القدس الشريف

ثم وصل إلى القدس الشريف ووصفه وصفاً مفصلاً ، وذكر مزارات البلد المشرف كلها ، ويذكر نفراً ممن لقى من فضلاء القدس ، وكلهم من الفقهاء ، ويهمنا « منهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أَرْزَن الروم ، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى ، صحِبتُه ولبست منه خرقة التصوف (ص ٥٥) : أى أن صاحبنا ابن بطوطة أَصبح مريداً صوفيًّا على الطريقة الرفاعية ، ولكننا لم نلاحظ قط أى أثر فى سلوكه لانتظامه فى الطريقة الرفاعية .

ابن بطوطة يلبس خرقة التصوف

ونلاحظ أن ابن بطوطة بعد أن يفرغ من المزارات يجول فى البلاد على هواه ، شأن السائح فى أيامنا هذه : فهو يذهب إلى عسقلان مع أنها كانت إذ ذاك خراباً ، ويصف آثارها ومبانيها ، ويزور الرملة ونابلس ، وهى عنده أكثر بلاد الشام زيتوناً ، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق ، وبها تصنع حلوى الخروب ، وهى نوع من الرب أى المربى .

ثم يزور عَجْلون ، وفى الطريق إلى اللاذقية يمر بالغَوْر ، ويزور قبر أبى عبيدة بن الجراح « أمين هذه الأرض » كما يقول ، والأصح أنه أمين هذه الأمة ، يقول : زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل ، وبتنا هناك ليلة (ص٥٦) .

عكا وصور

ثم يزور عكا ويقول : إنها فى أيامه خراب ، ويقول : إنها كانت قاعدة بلاد الإفرنج بالشام ومرسى سفنهم . وعندما يصل إلى صور يقول : إن أكثر أهلها أرفاض أى رافضة[1] ويحكى حكاية لا بأس من روايتها : (ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ ، فبدأ بغسل رجليه ، ثم غسل وجهه ، ولم يتمضمض ولا استنشق ، ثم مسح بعض رأسه ، فأخذت عليه فى فعله) فقال لى « إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس ! »

(١) فى مصطلح أهل المغرب الرافضة : هم الشيعة بصورة عامة .

ويقف ابن بطوطة طويلاً عند أسوار صور ويتغنى بحصانتها ، ثم يمر بصيدا وطَبَرية ويقول : إنها خراب وفيها قبور شعيب وبنته زوج موسى الكليم وقبر سليمان عليه السلام ، وقبر يهوذا وقبر روبيل ، ولم يفته أن يزور الجب الذى ألقى فيه يوسف عليه السلام قريباً من طبرية ، « وهو فى صحن مسجد صغير ، وعليه زاوية والجب كبير عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر ، وأخبرنا قيِّمه أن الماء ينبع منه أيضاً » (ص ٥٨) .

بيروت وأسطورة أبى يعقوب المنصور

ويمر ببيروت ويقول : إنها صغيرة حسنة الأسواق ، ومنها خرج لزيارة قبر أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون أنه من ملوك المغرب ، وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يُطْعم بها الصادر والوارد ، ويقال : إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف وقبله السلطان نور الدين ، وكانوا من الصالحين .

وأبو يعقوب المذكور هنا هو أبو يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين وصاحب النصر العظيم على الفونسو الثامن ملك قشتالة فى موقعة الأَرْك سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥ م ، وقد توفى أبو يوسف يعقوب بعد هذا النصر بأربع سنوات ٥٩٥ هـ/١١٩٩ م وخلفه ابنه محمد الناصر . ولكن نصر « الأرك » رفع مقام أبى يوسف يعقوب إلى مقام أبطال الأساطير وأولياء الله . فقيل : إنه لم يمت ، بل اعتزل العرش وتركه لابنه محمد الناصر ، وخرج إلى الحجاز ، وهناك حج وجاور ، ثم ذهب إلى الشام وجاور فى الأراضى المقدسة . واتسعت أسطورته حتى أصبح كأنه الخضر عليه السلام . وقد كان أبو يوسف يعقوب معاصراً لصلاح الدين . فقد حكم من ١١٨٤ م إلى ١١٩٩ م . وأرسل إليه صلاح الدين سفارة على رأسها أسامة بن منقذ يدعوه إلى التعاون معه على حرب الصليبيين فى الشرق والغرب . ولكن الاتفاق لم يتم .

٩

ابن بطوطة فى الشام

مدينتا طرابلس

أطال ابن بطوطة الإقامة فى الشام لأنه كان ينتظر موعد خروج الركب الشامى إلى الحجاز من ناحية . ولأن بلاد الشام أعجبته من ناحية أخرى ، فمضى يتنقل فى ربوعها على هَيْنَة ، وقد وقفنا عند زيارته للقدس الشريف .

ونعود إلى مصاحبته فى رحلته ، فنجده فى طرابلس وهو يتحدث هنا عن المدينتين : القديمة التى كان الصليبيون قد أنشئوا فيها إمارة صليبية ، ثم الجديدة التى أنشأها المسلمون بعد أن استعاد الظاهر بيبرس ميناء طرابلس من الصليبيين مع حصن الأكراد سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧١م .

وحديثه عن طرابلس طريف ، وهو يعطينا فى سياقه نموذجاً من عدل أمير المدينة المملوكى وهو سِنْد مور ، فقد أتت إليه امرأة تشكو أن أحد رجاله قد اعتدى عليها بأن شرب منها لبناً ولم يدفع ثمنه ، فأمر الأمير بتوسيطه : أى بقطعه قطعتين بالسيف من وسطه . فلما فعل به ذلك ظهر اللبن فى مصرانه !

وهذا – فى رأى ابن بطوطة – مثال بيّن على تحرى العدل ما أمكن ، ولاندرى ماذا كان يفعل الأمير لو لم يجد اللبن فى جوف المسكين ؟

حصن الأكراد

ومن طرابلس انتقل إلى حصن الأكراد ، هذه القلعة الهائلة التى طالما اعتز بها الصليبيون حتى استولى عليها الظاهر بيبرس ، كما ذكرنا ، ومازالت آثارها ماثلة للعين تبهر الأبصار .

حماة وحمص ومعرة النعمان

ثم زار حماة وتحدث عن نواعيرها وأرحائها ، وحمص التى يزينها قبر سيف الإسلام خالد بن الوليد قريباً منها ، ويزور معرة النعمان ، ويذكر قبر عمر بن عبد العزيز بها . ويقف عند سِرْمين ويتحدث عن صناعة الصابون بها . وكان بعض علمائنا ينكرون

صناعة الصابون عند العرب

أننا نحن اخترعنا الصابون ، وعند ابن بطوطة الرد الحاسم ، فهو يقول : إن بهذه البلدة سرمين يصنع الصابون الآجرى : أى فى صورة قطع على هيئة الآجر ، وفى ظنى أن هذا هو الصابون النابلسى ، ثم يقول : إن بهذه البلدة سرمين يصنع « الصابون المطيَّب لغسل الأيدى ، ويصبغونه بالحمرة والصفرة » وقبل ذلك بقرنين ذكر الإدريسى صناعة الصابون فى البهنسا من مدن مصر . وعن العرب أخذ الغرب الصابون صناعة واسماً ، وأول ماظهر فى أوروبا كان فى إيطاليا باسم Sappone وفى إسبانيا النصرانية ؛ وكانوا ينطقون به إذ ذاك jabòn ، واليوم Jabòn [1] فى فرنسا Savon ، ثم ينتقل ابن بطوطة إلى حلب ويطيل الكلام عن قلعتها .

حلب

وهنا يتدخل ابن جزى فى مساق الرحلة تدخلاً طويلاً ، فيتحدث عن مغانى حلب وماقيل فيها من الأشعار .

أنطاكية

وبعد جولان طويل يصل ابن بطوطة إلى أنطاكية ، وهى أيضا من فتوح الملك الظاهر بيبرس ، ويتغنى بأشجارها وأنهارها وبنهر العاصى الذى يمر خارجها ، وينزل بها فى زاوية حبيب النجار « وفيها الطعام للوارد والصادر ، وشيخها الصالح المعمر محمد بن على وسنّه ينيف على المائة » ، ويقول : « ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين ، إلا أنه محدودب الظهر لايستطيع النهوض ، ومن يراهما يظن الوالد منهما ولداً والولدَ والداً ! » (ص ٦٩)

حصون الإسماعيلية « الفداوية » واستخدام الناصر ابن قلاوون لهم

وعندما وصل إلى حصن القدْمُوس وحصن المينقة وحصن العليقة وحصن مصياف وحصن الكهف – ويقول : إن هذه هى حصون الإسماعيلية المعروفين بالفداوية ، ويقول : إنهم سهام الملك الناصر بن قلاوون ، بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه بالعراق وغيرها ، ولهم المرتبات وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته ، فإن سلم بعد تأتّى له مايراد منه فهى له ، وإن أصيب فهى لولده . وقد قرأنا كثيراً عن هؤلاء الفداوية المعروفين بالحشاشين ، ولكننا لانعرف إن كانوا حقًّا فى خدمة السلطان الناصر قلاوون كما يقول ابن بطوطة

ثم يصل إلى جبلَة فيزور قبر إبراهيم بن أدهم الزاهد ، ويطيل الحديث عنه ويحكى

(١) أعنى كانوا ينطقون باللفظ (جَبون) بالجيم واليوم (حبون) بالحاء .

جبلة وقبر إبراهيم ابن أدهم

عنه أخباراً هى الغاية فى الطرافة . وأخبار إبراهيم بن أدهم الزاهد فى الكتب العربية قليلة ، ومعظمها فى كتب الأتراك ، ولهذا فإن حديث ابن بطوطة عنه عظيم القيمة بالنسبة لتاريخ التصوف الإسلامى .

حصن المرقب وجبل لبنان ، بعلبك ، الدِّبس الملْبن ، الشياب البعلبكية

وعند حصن المرْقب يدخل جبل لبنان ويطيل الحديث عنه ، وعما فيه من الخيرات ، وينزل بَعلبك ويعجب بأنهارها الجارية ، ثم يتكلم عن الدِّبس الذى يصنع بها ، وهو المَلْبَن ، وقد ذكره ابن بطوطة بهذا الاسم ويقول : إنه يسمى أيضا بجلد الفرس ويقف طويلا عند الثياب البعلبكية الشهيرة ، وخاصة ملابس الإحرام الناصعة البياض التى كانت تصنع بها .

صناعة الصحاف والملاعق

ولم يقم فى بعلبك إلا بياض نهارها ولكنه يحدثنا عن صناعة الصحاف – أى الأطباق – من الخشب هناك – ويقول : إنهم يسمونها بالدُّسوت ، وكذلك صناعة ملاعق الخشب ، ويبلغ من مهارة أهلها فى صناعة الدسوت أنهم يصنعون منها نوعاً يضم الواحد منها عشر صحاف ، واحداً فى داخل الآخر ، وعشر ملاعق تدخل واحدة منها فى الأخرى وتوضع فى جراب ، ويقول : « ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل فى حزامه وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك ، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعاً ! » (ص ٧٩) .

وهذه الملاحظة جديرة بأن تسترعى إليها أنظار من يحسبون أن تناول الطعام باليد تقليد عربى أصيل ، وأننا لم نعرف الأكل بالملاعق – إلا عن الإفرنج !

دمشق

وأخيراً وصل إلى دمشق فى يوم الخميس ٩ رمضان سنة ٧٢٦هـ/١٠ من أغسطس ١٣٢٥ م وكان شوقه إليها قد طال حتى إنه لم يمكث فى بعلبك إلا نهاراً ثم خرج إلى دمشق .

وحديث ابن بطوطة عن هذا البلد حديث طويل حافل بالمعلومات ، ولكنّ جانباً كبيراً من الكلام مستقى من رحلة ابن جبير أدخله ابن جزى ، وأشار إلى ذلك فى قليل من المرات وترك الباقى غفلاً ، ولهذا فإننا نجد هنا تفاصيل معمارية عن مسجد دمشق – أى الجامع الأموى – لم نألفها من ابن بطوطة .

ابن تيمية

وفى أثناء حديثه عن علماء دمشق يقف طويلاً عند تقى الدين بن تيمية يقول :

إنه : «كبير الشام ، يتكلم فى الفنون[١] إلا أن فى عقله شيئاً » ونفهم من هذه العبارة أن هذا كان رأى العامة فى ابن تيمية ، لأن ابن بطوطة يعرض فى كثير من الأحيان رأى أوساط الناس ، والسبب فى ذلك أنه كان بالفعل يصاحب العلماء والفقهاء والقضاة ، ولكن معظم نزوله ومعيشته كان فى الزوايا والمدارس ، ومعظم وقته كان يقضيه فى المساجد والأسواق ، يستمع أحاديث الناس ، وكان شديد الولع بذلك .

وكان الصوفية وأصحاب الكرامات والأولياء ألد أعداء ابن تيمية ، لا يزالون يتتبعونه ويلصقون به التهم حتى دخل السجن ثلاث مرات ، خرج منه المرتين الأوليين بتدخل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه مات فى الثالثة ، وظل يؤلف فى السجن حتى منع عنه أعداؤه الورق والقلم ، فأسرع هذا بموته .

ولا شك أن هؤلاء الصوفية هم الذين أعطوا ابن بطوطة هذه الفكرة عن إصابة ابن تيمية بلوثة . ويقول : « إنه رأى ابن تيمية قبل دخولِهِ السجنَ للمرة الثالثة »وهذا معقول لأن ابن تيمية توفى سنة ١٣٢٨م وكان ابن بطوطة فى دمشق ابتداء من أغسطس سنة ١٣٢٥م كما ذكرنا .

خطأ لابن بطوطة فى توقيت الحوادث

وهنا نجد ابن بطوطة يخلط فى التواريخ ، فيذكر أشياء وقعت فى الشام وشهدها فى زيارة له تالية بعد ثلاث وعشرين سنة أى سنة ٧٤٩ ، مثل الوباء الكبير الذى اجتاح الدنيا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وهو يسميه الطاعون الأعظم .

وكان ينبغى أن يذكره فى موضعه من الرحلة ، ولكنه ذكره الآن : أى فى سنة ٧٢٥ هـ . والمهم لدينا أن ابن بطوطة يذكر الإجراءات التى اتبعتها الحكومة المملوكية فى مقاومة الوباء .

إجراءات مقاومة الوباء

فقد دعا نائب السلطنة فى دمشق الأمير أرغون المنادى وأمره بأن يجتمع الناس جميعاً فى المسجد الأعظم ، فاجتمع الأمراء والشرفاء والفضلاء والقضاة وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع حتى غص بهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة . وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً صغاراً وكباراً ، وخرج اليهود بتوراتهم

(١) أى فى العلوم .

والنصارى بإنجيلهم ومعهم النساء والولدان . وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا « مسجد الأقدام » وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال .

وعادوا إلى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ماانتهى عدد الموتى إلى ألفين فى اليوم الواحد ، وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا فى اليوم الواحد وربما كان السبب فى ذلك – على حسب رأيه – أن حكومة القاهرة لم تتخذ الإجراءات الحاسمة التى اتخذتها سلطات دمشق .

ومعنى هذا أن ابن بطوطة يرى أن الإجراءات الحازمة التى اتخذها نائب السلطان الأمير أرغون أتت بنتيجة طيبة فى مواجهة الطاعون .

وحديث ابن بطوطة عن الشام حديث زاخر فياض ، لأن الرجل أحب هذا البلد فأفاض فى الكلام عن فضائله ، فهو يعجب باتساع الأوقاف وأنواعها ، ووفرة المال المحبس عليها : فهناك أوقاف للعاجزين عن الحج ، وأوقاف لتجهيز البنات إلى أزواجهن ، وأوقاف لفكاك الأسرى ، وأوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جانبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك . (ص ٩٩) .

ويبدو أن ابن بطوطة حسن الظن فصدق كل ماقاله له الفقهاء ، لأنهم كانوا هم الأوصياء على هذه الأوقاف ، فإذا قرأنا كتاب « منامات الوهرانى » رأينا فيها حديثا عجبا عما كان يصيب الأوقاف فى مصر والشام .

وهنا لابد من الإشارة إلى ما اتصف به ابن بطوطة فى حديث رحلاته كلها من ميل إلى تصديق ما يسمع من الأخبار ، لأنه كان يحسن الظن بالناس ، ولاينكر من أحاديثهم شيئاً إلا إذا خالف العرف والمألوف ، وعلى أى حال فإنه لم يرو إلا القليل من أخبار هذا الطراز .

١٠

الطريق إلى المدينة المنورة

حب ابن بطوطة لبلاد الشام

نقف هنا مع ابن بطوطة فى آخر مراحل زيارته لبلاد الشام ، ولا بد على أى حال أن نختم الحديث عن هذه الزيارة الأولى للشام لأننا لو استرسلنا فى التفاصيل التى يذكرها لما فرغنا لأنه – كما قلنا – مفتونا ببلاد الشام يعجبه فيها كل شىء ، هذا شأن الكثيرين من رحالة المسلمين من أمثال ابن جبير والمقرى التلسمانى الذى نستطيع أن نسلكه فى زمرة الرحالين .

والسبب فى هذا الحب الذى كانت تتمتع به بلاد الشام فى تلك العصور هو جمال مدنها واعتدال جوها وقلة ازدحام السكان بها وكثرة أماكن الزيارة ومواضع الذكريات الإسلامية فيها ، هذا بالإضافة إلى ماطبع عليه أهلها من كرم الضيافة وحسن اللقاء فكان الزائر يستريح ويشعر بالأنس ويفوز ببركة المزارات ، ويفيد علما ويلقى شيوخا يفخر بهم بعد عودته إلى بلاده ، ويطول عنهم حديثه مع صحبه ، خاصة إذا كان من أهل العلم والسماع .

وهذا ما حدث لأبى عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى : فقد وقف فى نهاية هذه الزيارة الأولى وقفة طويلة عند من سمع منهم من شيوخ دمشق وأثنى عليهم ثناء عظيما ، شأن كل طالب علم فى هذه العصور مع كل من سمع منهم من الشيوخ ، فقد كان الإنسان لشيوخه فى تلك العصور ، لأن العلم الذى كان يدرس كان واحدا لا يتغير ، وكان مسطورا فى كتب معروفة يشبه بعضها بعضا فى الموضوعات والتفاصيل ، وكان الاختلاف والتمايز فى أسماء الشيوخ الذين يسمع الإنسان عليهم ، فكان الطلاب يحرصون على السماع من المشاهير وأصحاب الصيت من الشيوخ « الذين تضرب إليهم آباط الابل » كما يقولون وفى أحيان كثيرة جدا نجد أن صيت الشيخ

لايطابق حقيقة علمه ، بل قد يشتهر بجودة التآليف وسوء المحاضرة فى الوقت نفسه ولكن بعد صيته بكتبه يستدعى إليه الطلاب من كل ناحية ، وكان الطلاب يحرصون على السماع على المشاهير للحصول على الإجازات الدراسية منهم .

والإجازة تتلخص فى أن يكتب الشيخ للطلاب عبارة تقول : سمع على فلان بن فلان كتاب كذا وأجزت له روايته عنى « وكان الشيوخ يفتنون فى صيغ الإجازات ، حتى إن بعضهم كان يكتبها شعرا وكلما كان شيوخه أكبر كان هو أكبر ، وحتى إذا كان الشيوخ صغارا اجتهد الطالب فى تعظيم شأنهم تعظيما لشأن نفسه ورفعا لمرتبتها بين فقهاء بلده .

فابن بطوطة يفخر بسماعه صحيح البخارى على ابن الشحنة ، وهو شهاب الدين أحمد بن أبى طالب بن أبى النعم الحجازى ، وهو يصفه بأنه « الشيخ المعمر ، رحلة ، ملحق الأصاغر بالأكابر » ، وهو يذكر أنه سمع عليه البخارى فى أربعة عشر مجلسا آخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان سنة ٧٢٦ هـ/٢٨ من أغسطس ١٣٢٥ م .

مستوى علم ابن بطوطة بالفقه

وقد اجتهد ابن بطوطة فى تعظيم سماعه هذا ؛ لكى يقنع الناس بأنه درس علم الحديث فأتقنه ، فذكر النسخة التى قرأ عليها ووثقها ووثق صاحبها عَلَم الدين أبا محمد القاسم البرزالى الإشبيلى الأصل الذى يسميه « مؤرخ الشام » ولم يقل أحد إن البرزالى هذا يلقب بمؤرخ الشام ، وأطال الكلام على إسناد هذه الرواية على نحو يشعر معه القارئ أن ابن بطوطة يريد أن يؤكد هنا أنه قد استكمل جانباً كبيراً من دراسته ، وأصبح من كبار العلماء ، وأيد ذلك بذكر عدد آخر من الشيوخ سمع عليهم خلال هذه الفترة القصيرة التى قضاها فى دمشق .

وبرغم هذا الاجتهاد فى توكيد دراسته فستلاحظ أن حظَّ ابن بطوطة من الفقه قليل ، وسيتجلى هذا بصورة واضحة عندما يتولى القضاء ويمارسه فى الهند وجزر ملديف . هنا سيقع الرجل فى أخطاء كثيرة فى الأحكام ، وستؤدى به هذه الأخطاء إلى متاعب كثيرة !

خروج ابن بطوطة إلى الحجاز أول مرة

وفى مستهل شوال من تلك السنة ، وهى سنة ٧٢٦ الموافق لشهر سبتمبر ١٣٢٥ ، خرج ابن بطوطة مع الركب الشامى قاصداً الحجاز ، وهو يسمى الركب هنا بالركب

الحجازى ، وهى تسمية أدق ؛ لأن الركب لم يكن يقتصر على حجاج الشام فحسب ، بل كان يضم حجاجاً كثيرين من العراق وخراسان وبلاد الروم – أى آسيا الصغرى – وبلاد ما وراء النهر وغيرها .

تنظيم ركب الحاج

ويعطينا ابن بطوطة تفاصيل نافعة جداً عن تنظيم الركب وخط سيره : فقد كان للركب أمير من المماليك يسمى سيف الدين الجَرْبان ، وهو من كبار أمراء المماليك ، ولم يكن الركب يسير قطعة واحدة ، بل كان يسير مجموعات ، كل مجموعة منها تحت حراسة جماعة من العرب أو العُرْبان – يأتمرون بأمر أمير الحاج ، تؤيده قوة عسكرية من المماليك فى كامل أهبتهم لحماية الركب .

وكان سفر ابن بطوطة مع طائفة من العرب تسمى العَجَارمة أميرُهم يسمى محمد ابن رافع ، ويصفه ابن بطوطة بأنه كان كبير القدر فى الأمراء ، وهذه ملاحظة تدل على أن العلاقة بين المماليك والعرب – أو العُربان كانت طيبة فى ذلك الحين . ومن المعروف أن للعلاقات بين المماليك والعرب تاريخاً طويلاً فى مصر والشام والجزيرة العربية حافلاً بالعداوات والحروب تتخلله فترات قصيرة من الصلح والتهادن ، وكان حكم الناصر بن محمد قلاوون من عصور الصلح والوفاق بين العرب والمماليك ، وقد أفاد منهم الناصر كثيراً فى تثبيت قواعد ملكه .

طريق الحج من الشام إلى مكة

والطريق الذى سار فيه الركب هو الطريق التقليدى ، أو الدرب المعروف الذى ذكره غيره من الرحالة ، وخاصة ابن جبير فى رحلته الثالثة – وهو يخالف الطريق السابق على الحروب الصليبية ؛ لأن سيطرة الصليبيين على نواح واسعة من الشام أوقفت طرق التجارة والحج من الشام إلى الحجاز كما سبق أن قلنا ، فلما زال الصليبيون من الشام نشأت طرق جديدة لها مراحل ومنازل – أى محطات – جديدة تختلف هى وما نجده عند المُقَدَّسى مثلاً .

وهذا الطريق يبدأ من الكِسوة – وهى منزل صغير يتجمع فيه الحجاج إلى جنوب دمشق ، يشبه بركة الحاج إلى شمال شرق الفسطاط (بالنسبة لركب الحاج المصرى) ومن الكسوة إلى قرية الصَّنَمَيْن ، ثم إلى بلدة زُرعة فى حوران ثم إلى بُصْرى ، وهناك

كان الركب ينتظر أربعة أيام ليتلاحق به المتخلفون من دمشق ، ولتنضم إليه روافد أخرى آتية من نواح أخرى من الشام .

ولا يفوت ابن بطوطة أن يذكر أن النبي ﷺ نزل بُصْرى عندما خرج بتجارة السيدة خديجة رضى الله عنها قبل زواجه بها ، ويذكر أن موضع مبرك ناقته هناك معروف قد بنى عليه مسجد عظيم ، وكانت بُصرى مركزاً عظيماً للتزود بالطعام وحاجات الحجاج .

ومن بصرى إلى بركة نزيرة ثم إلى اللَّجون حيث عيون الماء كثيرة تتجمع منها بركة كبيرة ، ومن هنا جاء اسم الموضع فهو لاتينى Lacuna ، ولهذا نجد مواضع كثيرة تحمل اسم اللَّجُون فى صقلية والأندلس ومعناه البركة أو البحيرة .

حصن الكرك

وعندما يصل إلى حصن الكَرَك يقف عنده ابن بطوطة طويلاً ، ويصف حصانته ومدخله المنحوت فى الحجر الصلد ، وهو لا يشير إلى ما كان لهذا الحصن من تاريخ فى الحروب الصليبية ، وكيف أن أحد أصحابه من اللاتين وهو ريجينالد دى شاتِيُّون — أراد أن يخرج منه لغزو الحجاز والأراضى الإسلامية المقدسة ، وكيف عاقبه صلاح الدين على ذلك بقتله عندما ظفر به ؟

ولكن ابن بطوطة يذكر ما كان لهذا الحصن من دَوْر فى حياة الناصر محمد ابن قلاوون ، وكيف كان هذا الحصن ملجأه فى فترات اختلاف الأمراء عليه ، وقد لجأ إليه عندما شغب عليه أمراؤه برياسة سيف الدين سلار ، ثم تولى الأمر بيبرس الجاشنكير حتى استعاد الناصر مُلكه وتتبع بيبرس الجاشنكير وقتله وابن بطوطة يكتب اسمه الشَّشَنْكير ، ولا يفوته أن يترجم اللقب فمعناه أمير الطعام ، أى وزير التموين كما نقول فى أيامنا هذه ، وسنلاحظ أن ابن بطوطة شديد الحرص على معرفة معانى ما يسمع من الألفاظ وترجمتها إلى العربية ، وتلك من فضائل كتابه ، وسنهتم بالتنبيه على أمثلة كثيرة من ذلك ترد فى ثنايا هذه الأحاديث .

معان آخر بلاد الشام

ومن الكرك إلى مَعَان ، وهى عند ابن بطوطة آخر بلاد الشام ، أى أننا بعد ذلك نسير فى الجزيرة العربية . ومن هناك إلى « عَقَبة الصوان » ، وهى غير فرضة العقبة المعروفة ، ثم إلى ذات حج ثم إلى تبوك ، وهنا يشير إلى عين الماء التى كان ماؤها

شحيحاً ، فلما وضع الرسول الكريم يده فيها فاضت بالماء ولا تزال تفيض بعد ذلك أبداً .

وهذه العين المباركة هى مورد الماء الأكبر للداخلين إلى الصحراء المخوفة الممتدة من تبوك إلى العُلا ، وابن بطوطة يذكر أن أمراء جماعات ركب الحجاج يحفر كل منهم حفرة يُبَطِّنُها بجلد البقر أو الجاموس ويكترى السقائين ليملأَها بالماء ليرتوىَ الناس والجمال ويتزود الركب بماء يكفى أربعة أيام على الأقل .

ويصف ابن بطوطة مشقة قطع المسافة بين تبوك إلى العُلا ، وكيف يمر الركب بمساحات مخوفة تهب عليها رياح السَّموم التى ينشف منها الماء داخل الروايا والقرب ، ويذكر كيف هلكت قوافل بأسرها بتأثير هذه السموم ؟

ديار ثمود

ويمرّ الطريق بديار ثمود التى يتحاماها أهل الركب ويحذرون المرور بها ، ويصف ابن بطوطة ديار ثمود المخوفة هذه وما فيها من آثار أولئك القوم الذين سخط عليهم الله سبحانه وتعالى فما أبقى ، وبلغ الأمر أن يرفض الناس استقاء الماء من بئر حِجر ثمود ، ويشير ابن بطوطة إلى مبرك ناقة النبى صالح عليه السلام ، ثم تنكشف الغمة عندما يصل الركب إلى العُلا ، وهى قرية كبيرة حسنة بها بساتين النخل والمياه المَعِينَة ، وفى العُلا – كما نعرف – عثرنا على أحد النصوص القليلة للكتابة العربية فى تطورها قبل الإسلام .

ويقيم الركب فى العلا أربعة أيام يتزودون بالماء ويغسلون ثيابهم ، ثم يرحل الركب فينزل بوادى العِطاس الذى تهب عليه السموم المهلكة ، ثم يصل الركب إلى حسيان هُدَيّة ، وبعد ثلاثة أيام يصل إلى خارج المدينة المنورة . مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

مدائن صالح

وقد أوجز ابن بطوطة وصف الطريق من مدائن صالح إلى المدينة بخلاف ابن جبير الذى يفيض هنا فى الوصف ، ويسترسل فلا يترك شيئاً مر به إلا ذكره . ولكن الذى نلاحظه هنا هو أمان الطريق ، فنحن نسير مع ابن بطوطة فى طريق آمن هادئ لا يهدد أمن السائر فيه شىء وتلك ظاهرة ترجع إلى كفاية الحكومة المملوكية فى أيام الناصر محمد ابن المنصور قلاوون فى ولايته الثالثة على الأقل ، فالحق أن الدولة المملوكية بلغت

أوجها فى هذه الفترة ، وساد نواحيها الرخاء ، لأن الناصر بن قلاوون بعد المتاعب التى عاناها من مماليكه عرف فى النهاية كيف يضبط أمور دولته ضبطاً تاماً مستعيناً فى ذلك بنفر من خيرة أمراء المماليك . يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق والغرب عن طريق مصر بلغت أوجها فى ذلك الحين ، وبلغ دخل الدولة المملوكية منها أقصاه ، والفضل فى ذلك راجع إلى كفاية الناصر محمد بن قلاوون . .

وبعد هذا السلطان يبدأ انهيار الدولة المملوكية فى أيام خلفائه ، وكانوا جميعاً سلاطين بالاسم . وخلال فترة ما بعد الناصر بن قلاوون يهبط مستوى الحكم فى سلطنة مصر والشام هبوطاً سريعاً ، وتهزل الحياة والأحداث إلى مستوى يجعل صفحات تاريخ مصر بعد الناصر سرداً مملاً لحوادث تافهة حيناً ومؤلمة حيناً ، ويهبط نبض الحياة ، ونحس أننا فى آخر عصر .

١١

فى المدينة المنورة

أسفاره

وصلنا مع ابن بطوطة إلى المدينة المنورة ، وكنا نتوقع أن نشعر فى كلامه بفرحة قريبة من فرحة ابن جبير عندما أهل على مدينة الرسول ﷺ ، فإن ابن بطوطة ذكر فى فاتحة رحلته أن المقصد الرئيسى من رحلته كلها هو زيارة الأراضى المقدسة ، ولكن لأمر ما نشعر بشىء من الفتور فى كلام ابن بطوطة عن المدينة المنورة ، وقد يكون هذا هو مزاج ابن بطوطة نفسه : أى أنه بطبعه رجل هادئ النفس قليل الانفعال مقتصد فى الاسترسال مع عواطفه ، وهذا صحيح ؛ فإن ابن بطوطة كان كذلك ، وكلامه يصدر دائماً عن هدوء وبعيد عن الانفعال أيا كانت المناسبة التى يجد نفسه فيها .

ولكن الذى يستوقف النظر أن كلامه عن المدينة المنورة منقول فى غالبيته عن ابن جبير وعن « وفاء الوفاء » للسمهودى ، ولا نشعر إلا فى النادر أنه يصدر فى كلامه عن إحساس مباشر أو تجربة شخصية ؛ كما هو عهدنا به فى معظم أجزاء رحلته .

المسجد النبوى

فبعد تحية بلاغية للمدينة ومسجد الرسول الأكرم ينصرف ابن بطوطة إلى وصف المسجد النبوى وذكر شىء من تاريخه ، والكلام هنا لا يقدم إلينا جديداً ؛ لأن لدينا ما هو أفضل وأدق من ذلك فى كلام السمهودى ، بل إن ابن جبير يقدم لنا معلومات مباشرة ذات أهمية تاريخية خاصة ؛ لأنها تصور لنا المدينة المنورة والمسجد النبوى فى الوقت الذى زارهما فيه ، ويبدو أن ابن جُزَى أطلق ليده العنان فى تعديل كلام ابن بطوطة هنا كيف شاء .

ومن أهم المعلومات المباشرة التى يقدمها كلامه عن دار الوضوء التى امر الملك المنصور قلاوون ببنائها عند باب السلام من أبواب المسجد المكرم ، وهى دار وضوء كبيرة المساحة يصورها لنا ابن بطوطة تصويراً دقيقاً : فقد كانت — بحسب كلامه —

ميضأة مستديرة واسعة المساحة ، ينصب فيها الماء من صنابير تدور مع الميضأة ، ويجلس المتوضئون القرفصاء أمام الصنابير .

وتدور حول هذه الميضأة دورات المياه ، وهو يسميها « البيوت » . وكان الذى أشرف على بنائها الأمير الصالح علاء الدين الأقمر . وهو يضيف أن الملك المنصور قلاوون أراد أن ينشئ ميضأة كهذه فى مكة ، فلم يتم له ذلك ، وأقام ميضأة مكة ابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، أقامها بين الصفا والمروة .

وبعد كلامه عن الميضأة – يقول شيئاً يبدو أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى قوله ؛ لأنه بدهى ، وهو أن قبلة مسجد الرسول ﷺ قبلةُ قَطْعٍ أى مقطوع بصحة اتجاهها نحو الكعبة ، لأن الذى حدد موضعها كان رسول الله بنفسه ، ويذهب إلى أن جبريل – فيما يقال – هو الذى حدد موضعها .

ولكن هذه الملاحظة تأذن لنا فى أن نضيف حقيقة هامة ، وهى أن الخلاف كثير حول صحة اتجاه الكثير من قبلات المساجد فى العصور الوسطى ، لأن الأساليب الرياضية أو الفلكية التى كانوا يعتمدون عليها فى تحديد اتجاه القبلات لم تكن تمتاز بدقة علمية حاسمة .

وفى الغالب كانت تحدد القبلات على وجه التقريب ، بل هناك مسجد عظيم – وهو مسجد قرطبة الجامع – تبين بعد بناء الجزء الأول منه أن اتجاه قبلته نحو الجنوب ، لا نحو الجنوب الشرقى كما كان ينبغى . وعندما تبين الناس ذلك فكروا فى هدم المسجد وإعادة بنائه على الصحة ، ولكن الفقهاء أفتوا بإبقاء المسجد وقبلته على حالها ، وأشاروا بأن ينحرف المصلون بعض الشىء فى اتجاه القبلة الصحيح .

وهنا لا بد أن نشير إلى أن أدق من عرف توجيه القِبلات فى تاريخنا هو أبو الريحان البِيرونى وفى بعض فصول كتابه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » كلام علمى دقيق جداً عن أحسن الأساليب لحساب اتجاه القبلات ، والكلام مدعوم بالرسوم والحسابات الهندسية الدقيقة . وقد اشترك البِيرونى فى تحديد قبلات الكثير من المساجد التى بنيت فى عصر الغزنويين .

ويحدثنا ابن بطوطة عن إمام المسجد وخطيبه فى أيامه ، وهما مصريان ، ويذكر أن

الأخير منها – وهو سراج الدين عمر المصرى – خطب فى المسجد أربعين سنة ، فلما علت به السن وأحس بدنو منيته تاقت نفسه إلى ختام أيامه فى بلده مصر ، فنوى العودة ، ولكنه رأى الرسول ﷺ فى المنام ثلاث مرات ينهاه عن مبارحة المدينة ، ولكن حنينه إلى بلده غلبه فخرج ، قال ابن بطوطة : « فمات بموضع يقال له سُويس على مسافة ثلاث مراحل من مصر قبل أن يصل إليها ! نعوذ بالله من سوء الخاتمة » (ص١١٥) ، والمراد بمصر هنا هى الفسطاط ، وإلا فإن سويس من مصر.

ولا يحدثنا ابن بطوطة عما شهد ومن لقى من الناس فى المدينة ؛ كما فعل ابن جبير ، بل يصرف جهده إلى الحديث عن مؤذنى المسجد الشريف وخدامه ، وهو يقول : إنهم فتيان من الأحابيش ، ولا ندرى ماذا أراد بقوله هذا ؟ هل هم من الأحباش ؟ أو من أبناء القبائل التى عرفت أيام الرسول ﷺ بالأحابيش ، وهى قبائل عربية سميت بالأحابيش لأنها تَحَبَّشَتْ أى تجمع بعضها إلى بعض ؟ ولكنه يضيف : « إنهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف ، وكبيرهم يعرف بشيخ الخُدام ، وهو فى هيئة الأمراء الكبار ، ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى إليهم بها فى كل سنة . »

ثم يعقب ذلك حكاية مؤذن من مؤذنى المسجد أصله غرناطى كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمى ، وكان الشيخ يأتمنه على أهله وحرمه ، فحدث أن امرأة الشيخ حاولت فتنة الخديم الغرناطى ، فما كان من هذا الرجل الحريص إلا أن جبّ نفسه لينجو من الفتنة ، وقد عولج من ذلك وشفى وعاش بعد ذلك آمنا على نفسه !

وحديث ابن بطوطة عن المجاورين فى المسجد طريف : فقد كان الكثيرون ينقطعون للمجاورة فى المسجد الشريف ، ويقضون عمرهم كله هناك ، ومنهم من كانوا يجاورون بمكة المكرمة عند الحرم ، وكانوا لا ينقطعون عن الطواف بالكعبة صيفاً ولا شتاء ، وكان بعضهم يتعمد الطواف فى أشد أيام الحر وساعة القيلولة التماساً للثواب عملاً بالحديث الشريف : الثواب على قدر المشقة . قال : وأكثر الطائفين فى ذلك الوقت يلبسون الجوارب ، وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافى القدمين ورأيته يوما يطوف ، فأحببت أن أطوف معه ، فوصلت المطاف ، وأردت استلام الحجر الأسود ، فلحقنى لهب تلك الحجارة ، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر ، فما وصلته إلا بعد

جهد عظيم ، ورجعت فلم أَطُفْ ، وكنت أَجعل بِجَادِي على الأرض ، وأمشي عليه حتى بلغت الرواق ، (ص١١٧) ويذكر أنه كان بمكة إذ ذاك وزير غرناطي سابق يسمى أبا القاسم محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي ، «كان يطوف كل يوم سبعين أسبوعاً[١] ، وكان يطوف في وقت القائلة لشدة الحر ، وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه » .

وبقية حديث ابن بطوطة عن المدينة لا يتضمن أي شيء جديد . فهو يحدثنا بما ذكره المؤرخون من أمر أمير المدينة في أيام زيارته سنة ٧٢٨ وهو كُبيش بن منصور ابن جَمَّاز وما جرى بينه وبين عمه مقبل من العداوة والقتل ، ثم يتحدث عن بعض المشاهد حديثاً منقولاً عن السمهودي وغيره ممن زار المدينة دون أن يضيف شيئاً يدل على معاناة شخصية . ويختم حديثه عن المدينة بحكاية لا بأس بروايتها هنا ، قال :

« وكان هناك فقيه طيب من أهل غرناطة ، ومولده ببجاية ، يعرف هناك بجمال الدين المغربي ، فصحبه رجل يسمى علي بن حجر وواعده على أن يزوجه بنته ، وأنزله بدويرة خارج داره ، واشترى جارية وغلاماً ، وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ، ولا يطمئن بها لأحد ، فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب ، وأخذاه وهربا . فلما أتى الدار لم يجد لها أثراً ولا للذهب ، فامتنع من الطعام والشراب ، واشتد به المرض أسفاً على ما جرى عليه ، فعرضت قضيته بين يدي الملك ، فأمر أن يُخْلَف له ذلك ، فبعث إليه من يُعْلمه ذلك ، فوجده قد مات رحمه الله تعالى » (ص١٢٢)

وحديث ابن بطوطة كله عن المدينة المنورة من هذا الطراز : أي أن الرجل يستوقف انتباهنا باهتمامه بالناس وشئونهم وما كانوا يفعلون ، وكيف كانوا ينصرفون دون نظر إلى تحقيقات بعيدة في موضوعات معمارية أو تاريخية أو فكرية ؛ لأن ابن بطوطة رجل بسيط يعيش مع الناس ويشاركهم في أسلوب حياتهم وتفكيرهم ، ويتحدث معهم بلغتهم ، ويهمه ما يأكلون وما يشربون وما يجري عليهم من الأحداث .

ولهذا فإن كلامه هنا وفي مواضع أخرى من كتابه أشبه بالمذكرات الشخصية الحافلة بكل ما يعرفنا بأحوال الناس ، وذلك هو موضع الأهمية في كلام ذلك الرجل الذي

(١) أي يطوف حول الكعبة كل يوم سبعين طوافاً ، كل طواف سبع دورات .

عرف كيف يجعل من رحلته صوراً متوالية من حياة الناس ، وهو الأمر الذى يهمنا فى المكان الأول ؛ لأن كتب الرحالة الآخرين تقدم لنا فيضاً من المعلومات ذات المستوى العلمى الخالص ، فى حين أننا فقراء جداً فى المادة الإنسانية البسيطة التى تعطينا شكل الحياة وطعم الحياة فى العصر الذى قام فيه ابن بطوطة برحلته تلك .

ولعلنا لاحظنا ذلك فيما مر من الحكايات القصيرة التى يحكيها ابن بطوطة عن بعض من لقى من الناس وما حدث لهم ، وكذلك فى حديثه عن الأطعمة والأشربة والأكسية والفرش وكل ما يهم الناس فى حياة كل يوم . وهنا تعتبر رحلة ابن بطوطة بحق وثيقة اجتماعية فريدة فى ذلك :

١٢
الحديث الأول عن مكة

وصل ابن بطوطة من المدينة إلى مكة بعد رحلة توصف بأنها ممتعة ، وقد سلك بين المدينتين المقدستين الدرب المطروق منذ أيام الرسول ﷺ ، واقتدى ابن بطوطة بالرسول الأكرم ، فأحرم قبل بدئه الرحلة من قرب مسجد ذى الحُلَيْفة على خمسة أميال جنوب المدينة وهو منتهى حرم المدينة .

ومن هناك أفضى إلى وادى العقيق فالروحاء فالصفراء ، ثم إلى سهل بدر . وهو يصف بدراً وصفاً جديراً بأن نورد منه قطعة هنا ؛ لأنها تصور لنا مرحلة من مراحل تاريخ هذا الموضع المبارك الذى دارت فيه معركة من أصغر معارك التاريخ حجماً وأعظمها قدراً وأكثرها حسماً فى الوقت نفسه .

قال : « ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ تسليماً ، وأنجزه وعده الكريم ، واستأصل صناديد المشركين ، وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن منيع يدخل إليه من بطن واديين جبال ، وببدر عين فوارة يجرى ماؤها ، وموضع القَلِيب الذى سُحب به أعداء الله المشركون . . . وعند نخل القليب مسجد يقال له مَبرك ناقة النبى ﷺ تسليماً ، وبين بدر والصفراء بريد فى واديين جبال تَطَّرِد فيها العيون وتتصل حدائق النخل» (ص١٢٣) وهذه التفاصيل عن بدر ينفرد بها ابن بطوطة فيما نعلم .

ومن بدر قطع ابن بطوطة مساحة قاحلة طولها « ثلاث » : أى ثلاث ليال ، . ومعنى هذا أن القافلة كانت تسير بالليل وتكمن بالنهار لشدة الحر . وفى الليالى الثلاث تقطع القافلة نحو تسعين كيلو متر ، وهو طول هذه المفازة من الطريق . وتنتهى هذه المفازة عند رابغ ، وهى موضع غُدران يبقى الماء فيها زمناً طويلاً ، « ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب ، وهو دون الجُحْفَة » .

ومن رابغ إلى خليص إلى عقبة السَّويق إلى بِركة خُليف ، وهى موضع مزارع ومياه وضياع . « وعربُ تلك الناحية يقيمون هناك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والإدام ، ومنها إلى عُسْفان ، ومن هناك سرَوْا طول الليل ، وأهلّوا على مكة فى الصباح ، وهنا يحس ابن بطوطة ذلك الإشراق النفسى الذى يشعر به كل مؤمن يسعده الله بزيارة بلده الحرام .

ويعبر ابن بطوطة بلسان ابن جُزَى عن ذلك الشعور بقوله : « ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة ، والمثول بمعاهدها الشريفة ، وجعل حبها متمكناً فى القلوب ، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ، ولا يفارقها إلا آسفاً لفراقها متولهاً لبعاده عنها ، شديد الحنان إليها ، ناوياً لتكرار الوفادة عليها . . . وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها ! فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسروراً مستبشراً كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نَصباً . إنه لأمر إلهى وصنع ربانى ، ودلالة لا يشوبها لبس ، ولا تغشاها شبهة . . » !

إلى آخر هذا الكلام الجميل الذى يردده كل من زار مكة المكرمة ، وعرف مشقة السفر إليها ، فلما حل بها فاض قلبه بنور ومحبة وشوق تنسيه ما لقى من نصَب ، وتجعله يتمنى لو استطاع أن يزورها كل حين .

وتعنينا من أوصافه لمكة المعلومات الطريفة الجديدة التى نجدها عنده ! فهو مثلاً يحدثنا عن أبواب مكة ، ومعنى ذلك أن مكة كان لها أيام زارها ابن بطوطة سور ، وفى السور أبواب ، ولا نجد عند الأزرقى مؤرخ مكة وواصفها حديثاً عن سور مكة وأبوابها على هذه الصورة .

وأبواب البلد التى يذكرها ابن بطوطة ثلاثة : « باب المعلى بأعلاها ، وباب الشبيكة من أسفلها ، ويعرف أيضاً بباب العُمرة ، وهو إلى جهة الغرب ، وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ، ومنهُ يتَوَجَّه إلى التنعيم . وباب المُسْفَل[١] وهو من جهة الجنوب ، ومنه دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح » (ص١٢٦)

---

(١) المشهور : المَسْفَلَة .

ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة هى الغاية فى الطرافة ، فيقول : إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بواد غير ذى زرع ، ولكنه ساق إليها الخيرات من كل صوب ، « فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شيء تجبى لها ، ولقد أكلت بها من الفواكه : العنب والتين والخوخ الطيب والرطب ما لا نظير له فى الدنيا وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة ، واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم ، وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه ، وتجلب له الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن مَرّ لطفاً من الله بسكان حرمه الأمين ومجاورى بيته العتيق » (ص ١٢٦) .

وبعد أن يصف ابن بطوطة المسجد الحرام « شرفه الله وكرمه » ، والكعبة المعظمة الشريفة والميزاب والحجر الأسود والمقام الكريم والحجر والمطاف وزمزم وأبواب المسجد الحرام وبعض المشاعر الشريفة ومآذن المسجد الحرام والصفا والمروة وغير ذلك من مشاهد البلد المحرم – يذكر لنا حكاية شيخ من معارفه خرج مع أصحابه لزيارة غار حراء ، وتخلف عن أصحابه فضل الطريق حتى كاد يهلك عطشاً .

ويذكر ابن بطوطة أميرى مكة أيام دخوله إياها ، وهما من بنى قتادة ، وهما الأخوان أسد الدين رُمَيثة وسيف الدين عُطَيفة ابنا الأمير أبى نمى بن أبى سعد بن على ابن قتادة الحسنين ، ويحدثنا عن بيتهما وأولادهما ، ويذكر مكان بيت كل منهما فى مكة ، وكانت الصدارة لرُمَيثة .

فضائل أهل مكة

ويحدثنا عن أهل مكة وفضائلهم وجميل أفعالهم ومكارمهم ، ويقف طويلاً عند إطعامهم الفقراء ، ويعطينا صورة عن مساكين مكة الذين كانوا يعيشون دواماً على إحسان الناس من الخبز ، ويذكر كذلك عنايتهم بالأيتام ، وكيف كان هؤلاء يقعدون بالسوق ويحملون للناس أشياءهم إلى البيوت لقاء أجر زهيد؟ ويضيف : « فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط ، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه ، ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس » (ص١٤٣)

نظافة أهل مكة

ويمتدح ابن بطوطة نظافة أهل مكة ونصاعة بياض ملابسهم وكثرة استعمالهم للطيب والكحل ، ويصف : « ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات

صلاح وعفاف ، وهن يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً ! وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عَبِقاً »

إمام الموسم

ثم يتحدث عن قاضى مكة وخطيبها وإمام الموسم ، ويهمنا هذا الأخير ؛ لأنه يشير إلى تقليد خاص بموسم الحج وهو اختيارإمام للموسم ، وهو فى أيامه إمام المالكية بالحرم الشريف ، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفقيه أبى زيد عبد الرحمن المشتهر بخليل ، وأصله من بلاد الجريد فى جنوبى تونس الحالية ويعرفون هناك ببنى حبون .

وكان نزول ابن بطوطة فى المدرسة المظفرية ، وقد رأى رسول الله ﷺ فى منامه « وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك والناس يبايعونه ، فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدى رسول الله ﷺ تسليماً ، وجعل يده فى يد رسول الله ﷺ وقال : « أبايعك على كذا وكذا ، وعدد أشياء منها : وألاَّ أرد من بيتى مسكيناً خائباً ، وكان ذلك آخر كلامه ، فكنت أعجب من قوله ، وأقول فى نفسى : كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة من اليمن والزَّيالعة والعراق والعجم ومصر والشام ؟ وكنت أراه حين ذلك لابساً جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان ، كان يلبسها فى بعض الأوقات ، فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته ، فسر بها وبكى . . . » (ص١٤٢)

أهل مكة يأكلون مرة واحدة فى اليوم

ومن طرائف ما يحكى أن أهل مكة « لا يأكلون فى اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت ، ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر ، ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات » (ص١٤٢)

ويكثر ابن بطوطة من الحكايات التى سمع بها فى مكة ، وخاصةً عن المجاورين ، وهم فى العادة من كبار الشيوخ الذين يقررون ترك بلادهم وقضاء بقية أعمارهم مجاورين فى مكة ، ومنهم الشيخ سعيد الهندى شيخ رباط كلاله ، وكان ملك الهند قد أعطاه مالاً كثيراً فقدم به مكة ، فاستولى منه على المال الأمير عطيفة بعد أن عذبه .

ثم يذكر قصة نفر من التجار خرج عليهم لصوص الهند المعروفون بالسرّاق — ونحن نسميهم اليوم بالقراصنة — فسرقوا ما معهم ، ويضيف : ومن عادة هؤلاء السراق أنهم

لا يقتلون أحداً إلا حين القتال ، ولا يغرقونه ، وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بركبه حيث سار ، ولا يأخذون المماليك ؛ لأنهم من جنسهم ، والمراد أنهم من مماليك الهند

ومثل هذه الملاحظات والأخبار هى التى تعطى رحلة ابن بطوطة تلك القيمة الحضارية التى تمتاز بها على غيرها من كتب الرحلات ، فهذا الرجل رجل حضارة حقاً فهو يلمس الجوانب الإنسانية عند من يلقاهم من الناس ، وهو شديد الالتفات إلى كل ما يتصل بالحياة اليومية وما يسترعى نظره من عادات الناس وتقاليدهم وأحوالهم ، فالصورة التى يعطينا إياها عن عالم الإسلام فى عصره صورة حضارية ولوحة اجتماعية تنقلنا إلى الجو الذى كان يعيش فيه ، وتجعلنا نشاركه فعلا فى كل ما مر به من تجارب وما لقى من ناس ، وما طعم وما شرب ، بل إننا نحس معه بإحساسه فيما نزل به من البلاد وما لقى من الجماعات ، وهذا وحده جدير بأن يجعل تلك الرحلة كتاباً فى الحضارة ووثيقة اجتماعية وحسب الرجل ذلك .

١٣
ركب العراق

لا ندرى كم قضى ابن بطوطة فى مكة ؟ فقد فاته أن يذكر تاريخ دخوله إياها ، ولكن الغالب أنه دخلها فى رجب وفارقها فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ٧٢٨هـ/ نوفمبر ١٣٢٨م . أى أنه قضى فيها من موعد العمرة الرجبية إلى نهاية موسم الحج .

ولم تطل إقامته فيها بعد ذلك هذه المرة ؛ لأن الناس فى تلك الأعصر لم يكونوا أحراراً فى تحديد مواعيد حلهم وترحالهم ؛ إنما كان يقرر ذلك مواقيت صدور القوافل .

ركب الحاج العراق

وفى حالة رجل كابن بطوطة مولع بالرحلة مشغوف برؤية البلاد والعباد نجده يفضل الركبان الكبيرة الذاهبة إلى أرض جديدة ، ويفضل كذلك أن يكون فى صحبة نفر من كبار الناس ، فذلك أقمن بأن يعينه على الحصول على المزيد من الأمن والمزيد من متعة السفر والرؤية والفرجة .

فى هذه المرة خرج ابن بطوطة فى صحبة أمير ركب العراق واسمه البَهلوان محمد الحُوَيْج من أهل الموصل ، وكان يلى إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قَلَنْدَر ، وكان الحويج من أتباع الطريقة القَلَنْدَرية : يحلق شعر لحيته وحاجبيه على نهج أهل طريقته ، وقد أكرم ابن بطوطة واكترى له شُقَّة – أى عِدْلاً – على جمل ، وهو نصف محمل جمل ، فكان الرجل يجلس فى شُقَّته على جانب الجمل وصاحب له فى الشُّقة الأخرى على الجانب الآخر ، ويتبادلان الحديث أو لعب الشطرنج فى أثناء الطريق ، وقد يأكلان وهما على هذه الحال ، فإذا شاء أحدهما النوم غفا والجمل سائر فى الركب الكبير .

وقد زاد أمير الحج العراقى فى كرامة ابن بطوطة ، فأنزله فى جواره . أى أن راحلته سارت فى قلب الركب فى أمان الأمير وحمايته ورفده .

الشرق الإسلامى بعد غارة المغول

وكان العراق وبلاد فارس يعيشان إذ ذاك فى فترة نستطيع أن نصفها بأنها فترة نقاهة بعد الشقاء الذى عاناه فى عصر غارة المغول المخربة فيما بين سنتى ١٢١٨ م و ١٢٦٠ م ، وهى الغارة التى خربت فيهم معظم مدن ما وراء النهر وبلاد إيران ، وبلغت ذروة تخريبها بدخول المغول بغداد وطمس معالمها سنة ١٢٥٨ .

وقد عاش الشرق الإسلامى فى تلك السنين وما بعدها عصر ظلام دامس وشقاء بالغ كادت شعلة الحضارة أن تنطفئ خلاله جملة فى ظل هولاكو وسيده جنكيزخان .

غازان خان

ولكن الله تدارك الإسلام برحمته ، فدخل غازان خان حفيد هولاكو فى الإسلام سنة ١٢٩٥م ، وتنفس مَخْنَق المسلمين وزال عنهم الروع ، وبدأت شجرة الحضارة الإسلامية تورق من جديد ، وخاصة فى عهد أولجايتو خدابندة (١٣٠٥–١٣١٦م) ثم أبى سعيد (١٣١٧ – ١٣٣٥م) وفى عهد هذا الأخير دخل ابن بطوطة العراق وفارس .

والبهلوان محمد الحويج أمير الحاج الذى سار ابن بطوطة فى حماه وكرمه كان من رجال أبى سعيد هذا ، وكان يتخذ مقره بلدة جديدة أنشأها فى شرقىّ خراسان تسمى سُلْطانِيّة ، وقد أنشئت فى الوقت الذى أُنشئت فيه نفسه تبريز ، وكان ظهورهما علماً على عودة الروح إلى أقاليم المشرق الإسلامى .

وقد انتعش العراق وعادت الحياة إلى بغداد بعض الشىء فى أيام أبى سعيد ، ولكن بغداد لن تستعيد مكانتها بعد ذلك إلى نهاية العصور الوسطى .

ومن حسن الحظ أن أمور مصر والشام كانت أسعد وأرخى فى ظل دولة المماليك الأولى -- أو البحرية -- وسلاطينها الكبار الثلاثة وهم : الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (١٢٦٠ –١٢٧٧م) ، وسيف الدين المنصور قلاوون (١٢٧٩ – ١٢٩٠م) ، والناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٩ – ١٣٤١ م) ، وإليهم يرجع الفضل فى وضع أحسن نظام إدارى عرفته بلاد الشرق فيما بين انهيار سلطنة صلاح الدين وقيام الدولة العثمانية .

بغداد تفيق من كارثة المغول

ويمكن القول إن العراق استعاد فى عهد السلطانين أولجايتو خدابندة وأبى سعيد الكثير من رخائه القديم وإن لم يستعد بهاءه الماضى . لا ولا استعادت بغداد جزءاً من

روائها السالف ، ولكنها بعثت إلى الحياة من جديد ، ووصلت حياتها قرية كبيرة ، هيئتها تبعث على الأسى كأنها امرأة عجوز عدا عليها الزمان بعد عز ماض وجمال فائق وسعد عظيم .

عود الرخاء إلى بعض أقاليم إيران

ولكن إقليم فارس ومايصاقبه ، مثل كِرْمان والجبال استعادت رخاءها الزراعى والاقتصادى القديم ، ونشأت فيها مراكز جديدة للحضارة مثل شيراز ويزد ، وفى ذلك العصر ظهر طراز الفن المعمارى السلجوقى المتأخر الذى طالما أعجب به المعماريون الأوروبيون ، وفيه ألف أوليج جرابار كتاباً يعتبر من أجمل ما ألف فى العمارة الإسلامية .

دولة خانات شغتاى فى بلاد ما وراء النهر

وإلى شمالى إيران فى بلاد ما وراء النهر قامت دولة مغولية إسلامية أخرى تشبه دولة الإيلخانات ، وهى دلة خانات – أو سلاطين – شغتاى من حفداء جنكيز خان ، وإذا كان مغول جنكيزخان قد خربوا قواعدهما وراء النهر ومراكز فخره من أمثال بخارى وسمرقند – فإن حكم آل شغتاى خلال القرن الرابع عشر الميلادى قد أعاد الهدوء بعض الشيء ، فأزهرت الزراعة وانتعش الاقتصاد ، ولكن بلاد ما وراء النهر كانت قاعدةً زاهرة من قواعد العلم والحضارة الإسلامية – قد ولّى زمانها مع أمسِ الدابر .

ذلك هو عالم المشرق الذى سيدخله الآن ابن بطوطة ويحدثنا عنه ، ولم نتحدث بعد عن الإسلام فى بلاد عالم الروم ، ويشمل بلاد آسيا الصغرى ومايليها شمالا من أراضى القرم ، وكانت بلاداً إسلامية وسيدخلها ابن بطوطة ، ولم نتحدث كذلك عن بلاد النوريين والهند الإسلامية ، وستكون أيضا مجال نشاط واسع لابن بطوطة ، فقد رأيت أن أرجئ الكلام عن الوضع السياسى والحضارى فى هذه النواحى لحينه ومكانه من هذه الدراسة .

اهتمام ابن بطوطة بالجانب المشرق من الحياة

ولابد أن نلاحظ قبل أن نستطرد مع الحديث أن ابن بطوطة كان رجلاً حسن الظن لايكاد يرى إلا الجانب الحسن من الأشياء ، فهو يثنى على كل مايراه ولايكاد يكشف لنا عيباً ، وهذا يدل على نفس ابن بطوطة المتفتحة للحياة المقبلة على كل مافيها بنفس طيبة وقلب كريم .

فهذا رجل يأكل ما تيسر وينام حيثما اتفق ، فإذا تيسر له الطعام الجيد لم يتردد فى الإقبال عليه ، وإذا لم يجد إلا الخل والزيت والخبز أكل وافترش حصيراً على ظهر

مدرسة ونام ملء عينيه دون أن يشكو أو يتململ .

وهذه منة من الله أكبر على هذا الرجل ، جعلته يستمتع بحياته ، ويستبشر بأيامه . وجعلت كتابه صفحات مشرقات تملأ النفس بشراً وأمناً .

وهو فى هذا يخالف رحالة من بنى بلده هو العبدرى الذى كان يرى الدنيا من خلف نقاب أسود ، ولايكاد يخرج من بلد حتى يسب أهله ويذم كل أوضاعه ، لأنه بطبعه كان رجلا ضيق النفس متعبا بأثقال الحياة . ولهذا فنحن معه فى تعب على طول رحلته .

وليست تلك بالخصلة الطيبة على إطلاقها عند ابن بطوطة ، فإن الإسراف فى حسن الظن ، والاقتصار على الجانب المشرق من الحياة لا يعطينا إلا نصف الصورة . ويبقى نصفها الآخر بعد ذلك خافياً عنا كأنه الوجه المختفى من القمر .

تصوير ابن بطوطة لركب الحاج الذى سار فيه

أقول هذا ، لكى أنبه الناس إلى أن الصورة المشرقة التى يعطيها ابن بطوطة لهذا الجزء الذى نحن بصدده فيها الكثير من التجميل أو التجمل ، فإن ابن بطوطة كان سعيداً جداً فى صحبة صاحبه البهلوان محمد الحُوَيج ، فصور لنا الركب الذى حمله إلى العراق فى صورة ركب السعادة ، فهو يقول : « وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مَر – والمراد مر الظهران – فى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم . لايحصى عديدهم ، تموج بهم الأرض موجاً ، ويسيرون سير السحاب المتراكم ، فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس (ص ١٦٨) .

ثم يقول : « وفى هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض ، وإذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدُّسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لازاد معه . وفى الركب جملة من الجمال عليها من لاقدرة له على المشى ، كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه (ص ١٦٨)

وإذا كنا نلحظ بوضوح وجوه المبالغة فى هذا الكلام فإننا ينبغى أن ننبه هنا إلى حقيقة تتعلق بطبيعة الإسلام ، فقد أظهر أولئك المغول بعد إسلامهم من الحب

للإسلام والإخلاص مايدعو إلى العجب . وسنرى ابن بطوطة يحدثنا عن مكارمهم وبذلهم فى سبيل الإسلام ، ومازالت مساجدهم باقية إلى أيامنا تحدثنا عن بذلهم كل مايستطيعون فى سبيل الدين الحنيف ، فما أعجب هذا الدين ! وما أعمق أثره فى النفوس !

والحق أننا تعودنا أن ننظر إلى كارثة الغزو المغولى وكأنها قارعة مالها من دافعة ! والحق أنها كانت كارثة مروعة وكان لها أثر مخرب لجانب كبير من عالم الإسلام وتطوره الحضارى : فكل بلاد ماوراء النهر ، وكانت بلاداً إسلامية زاهرة ، تحفل بمراكز العلم والتأليف – تلاشت تحت سنابك خيل المغول ، وانتهى إلى الأبد مجد بلاد مثل سمرقند وبخارى وترمذ وآمل وما إليها مما تفخر به حوليات التاريخ الحضارى الإسلامى .

وإلى شمال ما وراء النهر كانت هناك بلاد الترك بمختلف أجناسهم ، وكانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى مراكز علم وحضارة للإسلام وأهله وكانت عملية إسلام أجناس الأتراك فى المناطق الواسعة الممتدة من بحيرة بيكال إلى نهر الفولجا تسير على قدم وساق دون أن تلقى صعوبة ما . ويكفى أن نذكر أن ما يسمى اليوم ببلاد البلغار كانت فى ذلك الحين بلاداً إسلامية ، وكل مناطق وسط آسيا التى تحولت إلى جمهورية سوفيتية عاصمتها أولان باطور كانت بلاد إسلام .

كل ذلك أوقفه الغزو المغولى ، ولم يعد هناك أمل فى توسع الإسلام فى هذه النواحى ، وتقدم دعاة المسيحية المقبلون من ناحية القسطنطينية يملئون الفراغ الذى خلفه غياب المسلمين ، وبذلك ضاعت على الإسلام وأهله فرصة أكبر ، إذ كان من الممكن أن يصبح شرقى آسيا ووسطها كله بلاد إسلام لولا هذه الكارثة المغولية .

أما ما نزل بالإسلام فى بلاد إيران والعراق وبلاد الشام فأمره معروف ، ولكن الذى نريد أن نقوله هو أن تلك الضربات القاصمة التى تلقاها الإسلام نتيجة لغزوة المغول لم تكن قاصمة بالصورة البشعة التى نتصورها ، والفضل فى ذلك يرجع إلى الإسلام الذى أودع الله إياه من الحيوية والقوة مايمكنه من النهوض والسير إلى الأمام من جديد ، فإذا كان المسلمون قد انهزموا أمام المغول فإن الإسلام لم ينهزم ، بل وجد طريقه إلى قلوب المغول فأسلم من استقر منهم فى بلاد الإسلام ، وتحولوا إلى خدم لهذا

الدين ، وهانحن أولاء رأينا مافعله غازان وأولجايتو خدابنده وأبو سعيد وغيرهم من إيلخانات المغول فى إيران لخدمة الإسلام وأهله .

وقد كتب فى ذلك كثيرون ، ولكن ابن بطوطة هو شاهد العيان الذى رأى بعينه هذه البلاد والإسلام ينتعش فيها من جديد . وعملية إسلام المغول تقوم بتعويض ماأصاب أهل الإسلام ومدن الإسلام من شر على يد هولاكو ومعاصريه . وإذا كان المغول قد غلبوا المسلمين فإن الإسلام غلب المغول ! وهذا هو الذى يصفه لنا ابن بطوطة فى رحلاته فى تلك البلاد وتلك ميزة من ميزات رحلته لابد أن نقف عندها ونطيل التأمل والتفكير .

١٤

ابن بطوطة فى ركب العراق

تنظيم ركبان الحجاج

بعد أن شرحنا أحوال الشرق الإسلامى فى أيام رحلة ابن بطوطة نتابع سيره مع الركب العراقى من مكة إلى ماوراء النهر ، ونردد ماذكرناه فى الفترة الراهنة عن حرص ابن بطوطة على إظهار الجوانب الطيبة مما يرى ومبالغته فى تنميق مايرى من الصور . ومن ذلك قوله فى وصف هذا الركب العراقى : « وفى هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة ، وأنواع الأطعمة والفواكه ، وهم يسيرون بالليل ، ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات ، فترى الأرض تتلألأ نوراً ، والليل قد عاد نهاراً ساطعاً ! » (ص ١٦٩)

والمراد بالقطار هنا صفوف الجمال المتتالية ، أما المحارات فيراد بها الجمال التى تحمل المحامل المزدوجة التى ذكرناها آنفاً .

وهذه الصورة تعطينا فكرة عن تنظيم الركبان ، وكيف كان يصحبها التجار ومعهم البضائع والأقوات من كل صنف ، فإذا حطت القافلة فى موضع نصبت السوق وقام البيع والشراء ، أما السير بالليل فكان هو القاعدة فى أوان الصيف واشتداد الحر ، وكانت العادة أن يضاء الركب بالمشاعل ؛ حتى تتبين ضخامته فتتحاماه اللصوص ، ثم إن الضوء كان يضفى على الرحلة أنساً كانت فى حاجة إليه .

وعندما يخترق ركب ابن بطوطة أرض نجد – نجد برهاناً ناصعاً على حقيقة كشفت عنها أبحاثنا خلال السنوات الأخيرة ، وهى أن نجدًا بصفة خاصة ، وجزيرة العرب بصورة عامة – كانت – فيما مضى من الأعصر – أوفر ماء مما هى عليه اليوم . ففى كتابات عَرَام بن الإصبع والسَّكونى ، ومن نَقل عنهما مثل أبى عبيد البكرى – ذكر لموارد مائية كثيرة جداً فى شبه الجزيرة ، مابين آبار وجياب ومياه سائحة بركاً من تجمع

ماء المطر ، تغذيها عيون ماء تحتية فى بعض الأحيان .

وقد تحققنا من ذلك بدراساتنا لعصر البعثة النبوية وأحداث صدر الإسلام ، ثم توالت البينات على ذلك من كتب الرحالة والجغرافيين حتى أيام الإدريسى ، وهانحن أولاء فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى والماء وافر فى نجد بصورة تستوقف النظر .

يقول ابن بطوطة : « ثم رحلنا إلى وادى العروس ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض مد البصر ، فتنسمنا نسيمه الطيب الأرج ، ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ، ثم رحلنا عنه ، ونزلنا ماء يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ، ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة ، وهى مصانع مملوءة بماء المطر ؛ مما صنعته زبيدة بنت جعفر رحمها الله ، وهذا الموضع وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم ، صحيح الهواء ، نقى التربة معتدل فى كل فصل ؛ ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجز ، وفيه مصانع للماء ربما جفت ، فحفر عن الماء فى الجفار » (ص ١٦٩) .

وهكذا لا يزال الركب ينتقل خلال نجد من موضع ماء إلى موضع ماء حتى يصل إلى مشارف العراق ، فيمر بقرى صغيرة حتى ينتهى إلى القادسية موضع المعركة المشهورة بين العرب والفرس ، ثم يصل الركب إلى النجف أو مشهد النجف ، وفيه قبر على بن أبى طالب رضى الله عنه ، بطل الإسلام وخطيبه وبليغه ورابع الخلفاء الراشدين .

النّجف

ووصف ابن بطوطة للنجف يدل على ذكاء ودقة ملاحظة : فقد لاحظ أن مدخل البلد غير جدير بأن يكون مدخلاً لموضع مقدس كهذا ، فإن الذى يستقبلك ساعة دخولك سوق البقالين والطباخين والخبازين ، ولم تكن هذه بأجمل أجزاء المدن فى الماضى ، نظراً لنفايات البقالين وزهومة المطابخ وأفران الخبازين .

أما أجمل أبواب البلد فكان باب الحضرة حيث روضة على بن أبى طالب كرم الله وجهه : (وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشانى ، وهو شبه الزليج عندنا – أى فى المغرب – لكن لونه أشرق ونقشه أحسن » .

ويصف ابن بطوطة النجف وصفاً دقيقاً نخرج منه بأن صورة هذا المزار الجليل لم تتغير كثيراً من ذلك الحين ، وأن توقير الناس له كان عظيما على طول الأعصر ، ولكنه

ينفرد بذكر أشياء جديدة مثل قوله : إن بركة ليلة السابع والعشرين من رجب – وهى ليلة المحيا – تعم المقعدين الذين يقضون الليلة هناك ، فلا يصبح الصباح إلا وهم واقفون ، وقد زال عنهم مابهم ، وهو يصف أهل النجف بالفضل وحسن العشرة والمهارة فى التجارة .

وإليك فقرة من كلام ابن بطوطة فى وصفه للطريق من بغداد إلى الموصل يتحدث فيها عن النفط وآباره :

ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء منها عيون تنبع بالقار ، ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون مقيلاً رطباً وله رائحة طيبة ، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضا قارًا .

وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ، ثم يقطعونه قطعاً وينقلونه .

وقد تقدم لنا ذكر العين التى بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ، ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ، ووصلنا بعدهما إلى الموصل .

واسط

ثم ينتقل إلى واسط ، وهو معجب بها وببساتينها وأشجارها وعلمائها وحديثه طويل عن مدرسة تجويد القرآن فيها ، يقول : «عمرها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى ، وهو من كبار أهلها وفقهائها ، ويعطى كلَّ متعلم بها كسوة فى السنة ، ويجرى له نفقة فى كل يوم ، ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة ، وقد لقيته ، فأضافنى وزودنى تمراً ودراهم » .

مزار أبى العباس أحمد الرفاعى ورواق الرفاعية

وعندما أقامت القافلة خارج واسط ثلاثة أيام أتيحت لابن بطوطة فرصة لزيارة قبر الولى أبى العباس أحمد الرفاعى ، وهو بقرية تعرف بأم عبيدة على مسيرة يوم واحد من واسط ، فطلب من الشيخ تقى الدين أن يرسل معه أحداً ، ليزور الولى ، ويشهد أعمال الرفاعية .

قال : « وصلنا ظهر اليوم الثانى إلى الرِّواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء ، وصادفنا قدوم الشيخ أحمد كوجُك حفيد ولى الله أبى العباس الرفاعى الذى

قصدنا زيارته ، وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده وإليه انتهت الشياخة بالرواق .

ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف ، وأخذ الفقراء فى الرقص ، ثم صلوا المغرب ، وقدموا السماط ، وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر ، فأكل الناس ، ثم صلوا العشاء الآخرة ، وأخذوا فى الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور .

ثم أخذوا فى السماع ، وقد أعدوا أحمالا من الحطب ، فأججوها ناراً ، ودخلوا فى وسطها يرقصون ، ومنهم من يتمرغ فيها ، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعاً .

«وهذا دأبهم وهذه الطائفة الأحمدية مخصصون بهذا ، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة ، فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه» (ص ١٨٠) ، وبهذه المناسبة ينتقل ابن بطوطة إلى حديث قوم آخرين من اللاعبين بالنار وآكليها قرب دهلى فى الهند .

البصرة

ثم ينتقل إلى البصرة ويحدثنا عما رآه فيها ، وهو على عهده يعجبه كل شىء ويمدح كل شىء ، ولا يكاد ينتقد شيئاً ، وتستوقف نظره تمورها وكثرتها وامتيازها ورخص أسعارها .

ويضيف أن البصرة كانت مقسمة فى أيامه إلى ثلاث محلات محِلَّة هزيل (وهم عرب) وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير ، «وهو من الكرماء والفضلاء . أضافنى وبعث إلى بثياب ودراهم» ، والمحلة الثانية محلة بنى حرام (وهم من العرب أيضاً) ، والمحلة الثالثة محلة العجم ، كبيرها «جمال الدين بن اللوكى» (ص١٨٢) .

وقد دهش ابن بطوطة لكثرة لحن خطيب البصرة ، وتحدث فى ذلك إلى صاحب له فقال له : « إن هذا البلد – أى البصرة – لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو . وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور ! هذه البصرة التى إلى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه !

ويحرص ابن بطوطة على ذكر مشاهد البصرة ومزاراتها ، وهى كثيرة .

وبعد أن يلم بذكر عبادان يزور رابطة على البحر تعرف بالنسبة للخضر وإلياس .

وبإزائها رابطة يزورها مرة فى الشهر عابد متأبد بنفسه فى عبادان ؛ ليتزود منها لشهر ، وقد أعجب ابن بطوطة بهذا العابد حتى فكر فى أن يقضى بقية عمره فى خدمته ، قال : «وهجس فى خاطرى الإقامة بقية العمر فى خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتنى النفس اللجوج عن ذلك » ص ١٨٦) .

وأراد ابن بطوطة أن يزور بغداد ، وله هنا ملاحظة طيبة يقول فيها : « ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجُول ، ومن عادتى فى سفرى ألا أعود على طريق سلكتها ماأمكننى ذلك ، وكنت أحب قصد بغداد العراق ، فأشار على بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللور ثم إلى عراق العجم ، ثم إلى عراق العرب ، فعملت بمقتضى إشارته » .

وهكذا ترى كيف كانت أحسن الطرق من البصرة إلى بغداد لاتمر وسط بلاد العراق ؟ وإنما يتوجه الناس إلى بلدة لور عاصمة بلاد لورستان – وهى الأهواز الحالية تقريباً – ثم يمرون بعراق العجم ثم عراق العرب وهى بلاد الجبال .

وكانت طريقه من البصرة إلى ماجول إلى رامز ، وهنا يقول : « فى كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء . وحلواؤهم من رب العنب مخلوطاً بالدقيق والسمن ، وفى كل زاوية الشيخ والمؤذنون والخادم للفقراء والعبيد والخدم ، يطبخون الطعام .

مثال من دقة تنظيم بعض الزوايا وإكرام النزلاء فيها

ثم يصل إلى تُسْتَر ، وكان نزوله فيها فى مدرسة الشيخ شرف الدين موسى « وله مدرسة وزاوية خدامها فتيان ، وله أربعة أولاد قسم عليهم إدارة الزاوية والمدرسة : فواحد منهم مكلف بالأوقاف ، والثانى يتولى النفقات ، والثالث خديم السماط بين أيدى الواردين ومرتب الطعام لهم ، والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين . قال : فأقمت عنده ستة عشر يوماً ، فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه : يقدم بين يدى الرجل ما يكفى الأربعة من الأرز المفلفل المطبوخ فى السمن والدجاج المقلى ، والخبز واللحم والحلواء »(ص ١٨٨) .

فهل رأيت نظاماً هو أكمل من هذا فى رعاية أبناء السبيل ؟ لقد كنا نتصور أن أمر الزوايا لايخرج عن أنها كانت ملاجئ تقدم للمسافر الغريب مجرد المأوى ، وبالفعل كان

الكثير من الزوايا لا يقوم بأكثر من ذلك ، ولكن هانحن أولاء نرى كيف كانت تلك الزوايا دور ضيافة حقيقية تنفق عليها الأموال الطائلة ويقدم فيها للنازل الغريب الطعام الوافر بل الفاخر ! وها نحن أولاءهنا أمام أسرة نذرت أموالها وجهود أفرادها للقيام بذلك العمل الجليل ، وكل ذلك حسبة لله تعالى دون نظر إلى مال أو جزاء فهذا ابن بطوطة يحدثنا عن اجتهاد هذه الأسرة الأب وأولاده – فى خدمة الغرباء ، وكيف تقاسموا العمل فيما بينهم لكى يقوموا بإكرام النازل الغريب على أحسن ما يكون الإكرام ؟ وماذا نريد منهم أن يقدموا فوق ماذكر ابن بطوطة أنهم قدموه إليه ؟ ماذا بعد ذلك الطعام الطيب الوافر الذى يتكلف المال الطائل ؟

ولم تكن هذه الدار فريدة فى بابها ، بل كان هناك أمثالها كثير ، وابن بطوطة نفسه يحدثنا عن غيرها وعما لقى فيها من إكرام وعناية ، وكل ذلك قام به المسلمون تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم من ضرورة رعاية ابن السبيل والقيام بحقه ،

وابن السبيل هو المسلم الغريب عن داره ؛ لأنه على سفر ، وهو يحتاج إلى الإكرام والرعاية والطعام والشراب والمأوى ولم يجعل القرآن قيام المسلم بذلك الأمر فضلاً منه على غيره ، بل جعله قربة من القربات التى يتقدم بها المسلم إلى ربه ، وهى فى حساب حسناته ، لهذا كان اجتهاد أولئك الناس فى إقامة الزوايا والربط والنزل والإنفاق عليها فى سخاء ، والقيام بخدمة أهلها على النحو المحكم الذى رأيناه فى حديث ابن بطوطة .

وهذا جانب يسير من جوانب فضل الإسلام على الناس وإنسانيته التى تبلغ أقصى الحدود ، وهى التى جعلت عالم الإسلام فى العصور الوسطى عالم أخوة ومحبة وتعاون ، وجعلت منه بحق داراً لكل المسلمين .

١٥
إيلخانات فارس

إيلخانية فارس

يتحدث ابن بطوطة عن مدن غربى إيران التى رآها على اعتبار أنها قاعدة إقليم سياسى أو إيلخانة من إيلخانات فارس منضمة إلى العراق – وهى عنده سلطنة العراق واسمها فى كتب التاريخ إيلخانية فارس – فنى ذلك العصر كانت البصرة وكازرون وَيزْد وإصفهان وتبريز وتسْتُر وبغداد تابعة كلها لولاية واحدة أو إمارات أو إيلخانات المغول التى نشأت عن تفكك دولهم ، وهى إيلخانية فارس التى يسميها سلطنة العراق ، وسلطانها – كما ذكرنا – هو أبو سعيد ، وكان المغول بعد إسلامهم – أهل حب للإسلام ، وتكريم لعلمائه واهتمام بإنشاء المدارس ، والإنفاق عليها واحترام بالغٍ لأهل العلم والقضاء .

وقد سعد ابن بطوطة بذلك أيما سعادة ، ومن الآن فصاعداً سنجده فى بلاد فارس والمغول والترك والروم محلَّ تكريم عظيم ، وستنهال عليه الأموال ، وسيتغير أسلوب حياته تبعاً لذلك ، وسيتغير من ثَم خلقه ونظرته إلى الحياة وسلوكه فيها كما سنرى :

فعندما دخل شيراز لقى قاضيها « الإمام قطب الأولياء ، فريد الدهر ، ذا الكرامات الظاهرة مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خداد ، ومعنى « خداد عطية الله » ووجد عنده كرامة عظيمة ، وكان هذا الشيخ طاعن السن ، ولكنه كان مبجلاً جدًّا من سلطان العراق أبى سعيد حتى إن رسول هذا السلطان عندما دخل عليه « نزع شاشيته عن رأسه ، وهم يسمونها الكلا ، وقبّل رجل القاضى ، وقعد بين يديه ممسكاً أذن نفسه بيده ، وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم » .

« وكان هذا الأمير قد وصل فى خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ، ونزل خارج المدينة ، ودخل إلى القاضى فى خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدباً ! » (ص ١٩٩) .

وبلغ من عظم مكان هذا القاضى أن كان الناس يلقبونه رسميًّا فى الخطابات والكتب الرسمية بلقب « مولانا أعظم » وقد تعلق به ابن بطوطة حتى إنه حرص على رؤيته مرة أخرى بعد خروجة من الهند ، فرآه سنة ٧٤٨هـ قبل موته بقليل .

شيراز وكثرة الشرفاء فيها

وكانت كل من الإيلخانات مقسمة إلى ولايات تسمى ممالك ، ولهذا فقد كان أمير شيراز هو الملك الفاضل أبو إسحق بن محمد شاه ، وهو تابع للسلطان أبى سعيد . وكان هذا الأمير يكره أهل بلده شيراز ويحْذَرُهم ويحرم عليهم حمل السلاح ؛ لأنهم كانوا ذوى نجدة وقوة وجرأة على الملوك ، وقد بنى لنفسه إيواناً كإيوان كسرى .

وقد طالت إقامة ابن بطوطة فى شيراز وأكثر من مدحها ، وقال : إنها أكثر بلاد الله شرفاء ، حتى إن أصحاب المرتبات منهم فيها ألف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير وكذلك فإن الأولياء كثيرون جدًّا هناك ، ونحن نعرف أن ابن بطوطة كان شديد التعلق بالأولياء شديد الإيمان بهم ، لاتفوته زيارة ولى يمر به للانتفاع ببركاته ، ولا يترك مزارولى دون أن يزوره ويتمسح به ويصلى فيه ، وكذلك فعل فى شيراز بالقطب الولى محمد بن عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ .

الشاعر الفارسى السعدى

وفى شيراز زار قبر « الشيخ الصالح المعروف بالسعدى ، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسى ، وربما ألمع فى كلامه بالعجمى ، وله زوايا كان قد عمرها بهذا الموضع حسنة ، بداخلها بستان مليح ، وهى بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن أباد .

وقد صنع الشيخ أحواضاً صغاراً من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ، ويأكلون من سماطه ، ويغسلون ثيابهم بذلك النهر . وينصرفون ، وكذلك فعلت عنده رحمه الله » (ص ٢١٠) . وهذا هو الشاعر الفارسى السعدى صاحب ديوان جولستان .

زاوية الشيخ أبى إسحاق فى كازرون

ومن شيراز انتقل إلى كازرون ، وهناك نزل بزاوية الشيخ أبى إسحاق وقال : إن من عادة أهل البلد أن يطعموا الوارد — كائناً من كان — الهريسة المصنوعة من اللحم والسمن وتؤكل بالرقاق ، وهم يتمسكون بأن تكون ضيافة الوارد عليهم ثلاثة أيام .

وهذا الشيخ أبو إسحق معظّم عند أهل الهند والصين . ومن عادة ركاب بحر الصين

أنهم إذا تغير عليهم الهواء أو خافوا اللصوص نذروا لابن إسحق نذراً وكتب كل منهم على نفسه مانذر به !

فإذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية إلى المركب وأخذوا الزمام . وقبضوا من كل ناذر نذره (ص ٢١٢) وهذا أغرب ما قرأناه عن الشيوخ ذوى الكرامات وما ينذر لهم من نذور .

قبر عبد الرحمن بن ملجم وقبة المختار ابن أبى عبيد

ومر ابن بطوطة بالكوفة ، ولم تطل إقامته بها ولاأفاض حديثه عنها ، ومما تجدر ملاحظته قوله : «ورأيت بغربى جبانة الكوفة موضوعاً مسودا شديد السواد فى بسيط أبيض ، فأخبرت أنه قبر الشقى ابن ملجم ، وأن أهل الكوفة يأتون فى كل سنة بالحطب الكثير ، فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام ، وعلى قرب منه قبة وضعت على قبر المختار بن أبى عبيد .

وقد زار كذلك الحِلّة ثم كربلاء ، وهو يصفها فى صورة قريبة من وصفها اليوم ، ويتحدث عن عتبة مشهد الحسين رضى الله عنه وهى من الفضة ، وأخيراً ينتهى إلى بغداد .

بغداد

نقف بعض الوقت عند بغداد : فهذه أول مرة يزورها رحالة كبير ، ويصفها لنا بعد خرابها على أيدى المغول ، وكلام ابن بطوطة عنها حزين بالطبع ، يقول :

« لم يبق إلا اسمها ، وهى — بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب إليها — كالطلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويسترعى من المستوفز العناية والنظر ، إلا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين ! » (ص ٢١٦)

النفط فى العراق

يقول ابن بطوطة : إنه كان فى بغداد ، أيام زيارته لها : « جسران يصلان شرقيها بغربيها ، وفيها المساجد التى يخطب فيها ، وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجداً ، منها بالجانب الغربى ثمانية وبالجانب الشرقى ثلاثة ، والمساجد سواها كثيرة جدًّا ، وكذلك المدارس إلا أنها خربت . وحمامات بغداد كثيرة وهى من أبدع الحمامات وأكثرها ، مطلية بالقار مسطحة به ، فيخيل لرائيه أنه رخام أسود ، وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبداً ، ويصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب إلى

بغداد . وفى كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار ، مطلى نصف حائطها مما يلى الأرض به ، والنصف الأعلى مطلى بالجص الأبيض الناصع ، فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما » .

ومن الواضح أن هذا القار مأخوذ من آبار النِّفط أى البترول ، وكانت عيونه كثيرة معروفة بالعراق من قديم الزمان ، وكان الناس لا يحفلون له ولا يهمهم من أمره سوى القار ، وكان يستخرج من آبار البترول التى ينضب مافيها أو يقل دفع السائل منها .

حمامات بغداد

ويصف ابن بطوطة حمامات بغداد وما كان فيها من الخلوات وهو يقول . إن بكل خلوة أنبوبين : واحداً للماء البارد والآخر للساخن ، وفى زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه أيضاً أنبوبان يجريان بالحار والبارد ، وكل داخل يعطى ثلاثاً من الفوط : إحداها يأتزر بها عند دخوله ، والثانية يأتزر بها عند خروجه ، والثالثة ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الإتقان بحق فى مدينة سوى بغداد ، وبعض البلاد تقاربها فى ذلك » .

ومعنى ذلك أن بغداد كانت لا تزال تحتفظ بشىء من جمالها وترفها السابق برغم ماجرت به عليها المقادير .

محلات بغداد

ويقول ابن بطوطة – إن الجانب الغربى من بغداد هو الذى عمر أولاً ، ثم خرب ، وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة محلة فيها الحمامان والثلاثة ، وفى ثمان منها المساجد الجامعة ، والمفهوم أن المراد بالمحلة الحى ، ويذكر من بين هذه المحلات محلة باب البصرة ، وبها جامع الخليفة المنصور والمرستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة ، وهو قصر كبير خرب وبقيت منه آثار .

مشهد معروف الكرخى ومقامات بعض أئمة آل البيت

وزار ابن بطوطة فى محلة باب البصرة مشهد الصوفى المشهور معروف الكرخى ، وذكر كذلك قبر الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد على بن موسى الرضا ، وإلى جانبه قبر الجواد ، والقبران داخل الروضة ، عليها دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة » (ص ٢١٨)

١٦

بغــداد

بقية بغداد – تبريز – الموصل – حجته الثانية – مجاورته بمكة – خروجه إلى اليمن

احتفاظ بغداد بجانب من مجدها العلمى القديم

يستفاد من كلام ابن بطوطة أن بغداد احتفظت إلى أيامه ببقية صالحة من مجدها العلمى التالد ، وإذا كانت زعامة العلم قد انتقلت منها إلى غيرها من المدن ، وخاصة القاهرة ودمشق ، ومدن أخرى مثل تبريز التى كانت عاصمة إيلخانية فارس – فإن أهل العلم فى بغداد حرصوا على المحافظة على الشكل والهيبة العلمية لبلدهم ، والصورة التالية مصداق لذلك :

« وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق ، عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق تعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة ، وفى وسط هذه السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الأمثال تضرب بحسنها ، وفى آخرها المدرسة المستنصرية ، ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر بن أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسُطُ . ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابساً ثياب السواد معتماً ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة ، وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء » (ص ٢١٩) .

وبهذه المناسبة يذكر ابن بطوطة كيف قرأ فى مسجد الخليفة فى بغداد مسند الدارمى (أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الفضل بن بهرام) على مسند العراق ، كما يقول أبو حفص عمر بن على القزوينى ، وهو ينص على ذلك نصًّا واضحاً كأنه يريد أن يقرر

فى ذهن قارئه أنه أكمل دراسته على الطريق ، بل يحدد تاريخ هذا السماع كما حدد تاريخ سماعه البخارى ، والتاريخ هو رجب ٧٢٧/مايو ١٣٢٧ .

ويطيل ابن بطوطة الحديث عن أبى سعيد بهادرخان سلطان العراقين : أى العراق وفارس ؛ وهو آخر إيلخانات إيران ، وهو ابن السلطان محمد خدابنده المشهور باسم أولجايتو ، وقد حكم فيما بين سنتى ١٣٠٥م و ١٣١٦م .

وأولجايتو هو ثامن السلاطين من حفدة جنكيزخان ، وهو الذى اعتنق الإسلام ، ولا ينبغى الخلط بين أولجايتو هذا وأولجايتو حفيد قبلاى خان إمبراطور الصين من المغول الذى حكم فيما بين سنتى ١٢٩٤م و ١٣٠٧م .

وجدير بالذكر أن أولجايتو محمد خُدَابْنده الذى اعتنق الإسلام كان قد تنصر فى مداخل شبابه ، ثم هداه الله إلى الإسلام ، وإليه ينسب جامع من أجمل مساجد تبريز الباقية إلى اليوم من عصر الإيلخانات . وأبو سعيد هو تاسع الإيلخانات وآخرهم ، وبعده تفرقت السلطنة ، وقد قص علينا ابن بطوطة تفاصيل هذا التفرق .

إسحاق تبريز

ومن بغداد يذهب ابن بطوطة فى موكب السلطان أبى سعيد إلى تبريز ، ويصف لنا سوق الجوهريين فى تبريز قال : « فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر ، وهى بأيدى مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك وهن يشترينها كثيراً ويتنافسن فيها ، فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها » (ص ٢٢٦) .

وبعد أن يصف سوق العنبر والمسك ثم المسجد الجميل الذى عمره الوزير على شاه المعروف بجيلان — يلقى السلطان ، ويبلغه أنه يريد الحج ، فيعطيه السلطان زاداً وحصاناً . ثم عاد إلى بغداد لينتظر موعد خروج الركب ، ويجد أنه بقى على ذلك شهران — فيحفزه حب الرحلة إلى الانتفاع بهذين الشهرين فى رحلة استطلاع إلى الموصل ودياربكر .

سامرا

وفى الطريق إلى الموصل يزور سامرا ويصف خرائبها ، ويأتينا بتفسير غير صحيح لاسمها فيقول : إنه سام را : أى طريق سام ؛ لأن را معناه بالفارسية الطريق ، ومن سامرا يصل إلى تكريت ويطرى حسنها ، ويذكر أن أهلها موصوفون بحسن الأخلاق ،

ثم يصل إلى موضع يعرف بالقيارة ، أى مكان القار ويقول : « وهناك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار » والمراد بطبيعة الحال النفط ، وكان يظهر على وجه الأرض ثقيلاً محملا بالقار والكبريت ، ومن الغريب أنهم كانوا يهتمون بالقار وحده ، ويوقدون النفط ليحترق ويبقى القار وهو مطلبهم .

الموصل

ويطول وقوف ابن بطوطة بالموصل ، ويستطرد فى مدح أميرها علاء الدين على بن شمس الدين الملقب بحيدر ؛ لأنه أكرمه وأنزله بداره ، وأجرى عليه الإنفاق مدة مقامه عنده .

جبل الجودى

ثم يتابع سيره ويمر بقرى كثيرة ، وعندما وصل جزيرة ابن عمر رأى جبل الجودى الذى استوت عليه سفينة نوح ، ويسمى أيضاً بجبل أرارات وهو فى بلاد الأرمن ، وهو من مفاخرهم .

ثم يزور نصيبين ، ويحدثنا عن بسيطها الأفيح ذى المياه الجارية والبساتين الملتفة .

وابن بطوطة معجب بجمال بلاد الموصل وسحر الطبيعة فيها ، ونلمح فى كلامه إحساسه المرهف بالجمال ، وتقديره لما يرى من بدائع الطبيعة .

ثم يقول : إنه مر بعد ذلك بسنجار ، وهذا خطأ منه فى الترتيب لأن سنجار فى طريق العودة من ماردين إلى الموصل . وعندما ينزل ماردين يثنى على سلطانها الملك الصالح بن الملك المنصور ، ويشير إلى كرمه على الشعراء ، « وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام » .

ثم عاد إلى بغداد فوجد ركب الحاج على أهبة الرحيل ، وهكذا نرى كيف كان حب الرحلة والتطلع إلى كل جديد مستولياً على نفس هذا الرجل حتى كأنه كان موكلاً حقًّا بقضاء الله يذرعه !

حجته الثانية
مرضه على الطريق

وذهب إلى الحج ، وتلك حجته الثانية ، ومن سوء طالعه أنه أصيب بإسهال شديد فى الطريق ، وقد لازمه الإسهال طول مدة الحج ، فكان يصلى قاعداً ، وطاف وسعى بين الصفا والمروة راكباً فرساً أعطاه إياه صاحبه القديم البهلوان محمد بن الحُويج أمير ركب الحاج العراقى ، ولم يُشفَ حتى وصل منى وأفاض منها ، وكأنما أتعبه المرض فأقام بمكة مجاوراً السنة التالية ، وهى سنة ٧٣٠ هـ/١٣٢٩ – ١٣٣٠م .

ابن بطوطة يجاور فى مكة سنة

وجاور معه تلك السنة نفر من كبراء المصريين ، وقد أقام فى المدرسة المظفرية وشفى تماماً من مرضه وقال : « فكنت فى أنعم عيش ، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار » (ص ٢٣٤) .

وهو يذكر نفراً من كبراء صعيد مصر وفدوا على الحجاز ذلك العام للاعتمار والمجاورة ، وأسعده الحظ بقدوم نفر من أبناء طنجة بلده ، وكذلك نفر من أهل قصر المجاز وأهل القصر الكبير فى شمالى المغرب .

ويروى كيف وقعت منازعة بين أمير مكة مبارك بن عطيفة والأمير أَيْدُمُر أمير جندار الناصرى من مماليك مصر ، وقد تعدى أيدمر على مبارك بن عطيفة بالضرب ، فما كان من هذا إلا أن دبر مقتل أيدمر واغتاله ، ووقعت فتنة كبيرة ، فأرسل الناصر محمدبن قلاوون حملة لتأديب أمير مكة ، وانتهى الأمر باعتذار مبارك وإسلامه نفسه طائعاً للناصر ، فعفا عنه وعاد العسكر إلى مصر .

وبعد أن استوفى ابن بطوطة ما أراد من المجاورة بمكة خرج قاصداً زيارة اليمن ، ولم يكن رآها قبل ذلك .

ولابد أنه كان لليمن سحر كبير على نفس ابن بطوطة ، لأننا سنلاحظ أنه يصر على زيارته المرة بعد المرة ، وسيتعرض فى سبيل ذلك لكثير من المهالك ، ولكن ذلك لن يصرفه عن زيارة اليمن ، فسيحاول حتى يوفق فى النهاية إلى زيارته ، ولأمر ما سنشعر فى كلامه عن اليمن وكأنه قد خاب رجاؤه . وكأنه كان يتوقع أن يرى لليمن صورة أخرى غير التى وجده عليها ، والحقيقة أن بلاد اليمن خلال تلك الأعصر كانت قد تدهورت أحوالها وفقدت الكثير من بهائها نتيجة لظروفه التاريخية القاسية التى مر بها ولكنه برغم ذلك ظل يتمتع بسمعة بعيدة وسنرى أن ابن بطوطة لن يجد فى اليمن مكانا جميلاً يعجبه إلا صنعاء ، ولهذا فسيطيل الكلام عنها ، ثم إننا سنرى أنه لن يطيل المقام فى اليمن ، بل سيسرع بالخروج منه لأنه لايجد فيه مكاناً ينتظره .

وعلى أى حال فإن ابن بطوطة من الرحالة القلائل الذين أصروا على زيارة اليمن فى تلك العصور ، وقد وفق فى ذلك وأعطانا صورة لابأس بها عن ذلك البلد الذى كان الطريق إليه عسيراً دائماً سواء بالبر أم بالبحر ،

١٧

اليمن

بارح ابن بطوطة مكة إلى جدة وفى نيته زيارة اليمن عن طريق البحر ، وتلك كانت أول تجربة لابن بطوطة فى ركوب البحر ، ولهذا فهى حادث جدير بالملاحظة فى سلسلة رحلاته ، ويزيد من أهميتها فى نظرنا أنه ركب جِلْبَة من جلبِ اليمن ، والجِلبةُ سفينة متوسطة الحجم ، وقد اشتهر ببنائها أهل اليمن وسواحل البحر الأحمر ، وجمعها جِلاب وجِلَب ، والجلبة كانت أيضاً سفينة ذات عمق يستعمل باطنها لخزن الطعام والماء والبضائع ، وتكون حياة الناس على ظهرها .

وكان مع ابن بطوطة فى الجلبة الشريف منصور من آل نمى حكام مكة ، ويستوقف نظرنا تصرف يدهشنا لأول وهلة من هذا الأمير ، ولكننا ينبغى أن نعلم أنه كان التصرف الطبيعى من جانب الأمراء وأصحاب الأمر ، وهو أنهم كانوا يرون أن لهم الحق فى أن يأخذوا من أموال الناس وأشيائهم مايريدون ، بل كانوا يرون أنهم إذا لم يأخذوا شيئاً فذلك تفضل منهم جدير بأن يقابل بالشكر .

والحكاية أن هذا الأمير أراد من خَدَمِهِ أن يصنعوا له طعاماً ، فأمر أحد غلمانه بأن يأتيه بُعدَيلة دقيق — وهى نصف حمل — وبطة سمن « يأخذها من جلب أهل اليمن » . والبطة إناء صغير معدنى كانوا يستعملونه للزيت والزبد والسمن وما أشبه ، فكانوا يقولون : بُطة زيت ، وبطة سمن ، وكانت البطة تستخدم قنديلاً ، فيدخلون فيها فتيلاً يصل إلى الزيت ، ثم يوقدون الفتيل .

وذهب الغلام وأخذ عُدَيلة الدقيق ، وكان من سوء طالع التاجر صاحبها أنه كان قد دَسَّ فيها عشرة آلاف درهم نقرة أى فضة ، وتلك كانت طبيعتهم فى نقل أموالهم ولانقول تهريبها ، لأن الدول لم تكن دولاً بالمعنى المعروف اليوم ، بل كانت

استبداديات تقوم على نهب أموال الناس ، فكان همّ الناس إخفاء أموالهم عن هؤلاء الحكام ! وها نحن أولاء نحكى مثلاً من تصرفهم ونظرتهم إلى أموال الناس فنقول : إن التجار لما رأوا تلك العُدَيلة الحاوية للفضة قد وقعت فى يد ذلك الأمير خافوا عليها ، وكلموا ابن بطوطة فى أن يتحدث إليه فى ردها مستشفعين فى ذلك بمكانه عند الأمير.

قال ابن بطوطة : « فأتيته وكلمته فى ذلك وقلت له : إن للتجار فى جوف تلك العديلة شيئاً فقال : إن كان سكراً فلا أرده إليهم ، وإن كان سوى ذلك فهو لهم ، ففتحوها فوجدوا الدراهم ، فردوها عليهم وقال لى : « لو كان عجلان ماردها ! » . وعجلان هو ابن أخيه رُمَيْثة وكان قد دخل فى تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق قاصدٍ لليمن ، فذهب بمعظم ما كان فيها ، وكان عجلان أمير مكة على هذا العهد ، وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل » (ص ٢٣٧) وهو من آل جمازين نُمَى الذين ذكرناهم ،

العواصف تلقى بابن بطوطة على ساحل أفريقية

فلما كانت السفينة وسط البحر هب عليها ريح عاصف فغير اتجاهها ، وبدلا من أن ترسو فى أحد مراسى اليمن «خرجنا فى مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن ، فنزلنا به ، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوة ماء فشربنا منه وطبخنا »

ومعنى ذلك أن ابن بطوطة بدلاً من أن يصل إلى اليمن وصل إلى ساحل السودان على الضفة الأخرى لبحر القلزم أى البحر الأحمر ، ولم يستنكر ذلك ابن بطوطة ولا هو استاء منه ، فهو رجل متطلع لرؤية الدنيا والناس ، وسواء عنده أرض اليمن أو أرض السودان وسواء عنده أهل اليمن أو البجاة .

البجاة

والبجاة كانوا شعباً قائماً بذاته يسكن سواحل البحر الأحمر من ساحل صعيد مصر عند أسوان إلى زيلع من ساحل السودان إذ ذاك ومازالت بقاياهم إلى اليوم تسمى بالبشارية .

وهم شعب نشيط ذكى فى التجارب وهو يتولى أمورها فى سواحل مصر والسودان ، ويتنقلون بين البلدين إلى يومنا هذا بكل حرية ، وكانوا قد أسلموا قبل أن يسلم أهل

السودان الشمالى لكثرة هجرة العرب إلى بلادهم عبر البحر الأحمر من تهامة وعسير واليمن .

قال ابن بطوطة : وهم سكان تلك الأرض ، سود الألوان ، لباسهم الملاحف الصفر ، ويشدون على رءوسهم عصائب حمراء فى عرض الإصبع ، وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال ، وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها ، فهى تأنس الآدمى ولا تنفر منه » (ص ٢٣٨) .

وفى بلاد البجاة وجد ابن بطوطة قوماً من مهاجرة العرب يسمون ببنى كاهل قد اختلطوا بالبجاة وتكلموا لسانهم .

جزيرة سواكن

ثم انتقل ابن بطوطة ومن معه إلى جزيرة سواكن ولم يكن ميناء سواكن المعروف اليوم قد أنشئ بعد ، وكانت جزيرة سواكن تابعة لصاحب مكة إذ ذاك ، إذ كان يحكمها الشريف زيد بن نُمى « وأبوه أمير مكة وأخواه أميراها بعده ، وهما عُطيفة ورُميثة اللذان تقدم ذكرهما ، وصارت إليه من قبل البجاة ، فإنهم أخواله ، ومعه عسكر من البجاة ، وأولاده كاهل وعرب جهينة » .

بحر القلزم

ومن جزيرة سواكن ركب ابن بطوطة ومن معه البحر إلى اليمن ، وكلامه عن البحر الأحمر شبيه بكلام المسعودى والإدريسى ، وكان الناس فى الماضى يتوهمون أن البحر الأحمر بحر خطر كثير النتوءات الخافية تحت عمق قليل من الماء ، فترتطم السفن وهذه النتوءات ، والإدريسى يسميها القالات والتروش .

ولهذا كانت السفن لا تسير فى هذا البحر إلا بالنهار وترسو عند شاطئ أى جزيرة فى الليل ، والسبب فى هذه السمعة السيئة هو سوء بناء السفن نفسها : فقد كانت ألواح الخشب تخاط بالقنب أو القنبار وهو قشر شجر النارجيل ، ولا تدق بالمسامير ؛ إذ كان الناس يعتقدون أن حجر المغنطيس راقد فى قاع البحر الأحمر ، فإذا سارت فيه اجتذب المغنطيس المسامير فتفكك المركب !

ثم إن السفن كانت تسير بجانب الشواطئ ، وبجانب الجزر فى وسط البحر ، ومياه هذه السواحل دائما ذات نتوءات خطرة تحت الماء . وجدير بالملاحظة أن طبعة ابن

بطوطة المتداولة الآن وهى طبعة دار التراث فى بيروت سنة ١٩٦٨ تحرف لفظ القالات فتجعله النبات وكأنها كانت فى الأصل القلات .

ميناء حَلْى فى اليمن

ووصل ابن بطوطة إلى ميناء حَلْى فى اليمن ، وقد عبر البحر الأحمر من سواكن إلى حلى فى ستة أيام ، وهى سرعة لا بأس بها . وكانت تسكن منطقة حَلْى طائفتان من عرب اليمن هما بنو حرام وبنو كنانة ، وهناك لقى ابن بطوطة رجلا زاهداً أصله من الهند يسمى « قبولة الهندى » وحوله أتباعه يقضون حياتهم فى عبادة وصلاة قال ابن بطوطة : « ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقى عمرى ، فلم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه » .

صنعاء

ثم يعود ابن بطوطة إلى البحر ، ويركبه محاذياً للساحل فيمر بمرسى الحادث ، ولا ينزل به ، ثم مرسى الأبواب ثم إلى زَبيد ، وعند زبيد يتحدث عن صنعاء ، فيقول : إن بينها وبين زبيد أربعين ميلاً أى نحو ثمانين كيلو متر وهو يتحدث عن صنعاء وهو بعد فى زبيد ، ويطنب فى مدح صنعاء ويتحدث عن بساتينها ومياهها وفواكهها من الموز وغيره ، ويقول : إنها بَرِيَّة لا شطية ، ويمتدح شمائل أهلها وحسن أخلاقهم ، ويتحدث عن خروجهم أيام السبت للنزهة فى الخلاء ومعهم الطعام وأدوات الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات .

نساء اليمن

وينتهز هذه الفرصة للتحدث عن نساء اليمن فيقول : « إن لهن الجمال الفائق ، وللغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه كما تفعله نساء بلادنا — يريد نساء المغرب — فإذا أراد السفر خرجت وودعته ، وإن كان بينهما ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له إلى أَن يرجع أَبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ، ولا كسوة ولا سواها ، وإذا كان مقيماً فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة ، لكنهن لا يخرجن من بلدهن أبداً ، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل » (ص ٢٤٠) .

ولنا هنا ملاحظتان : الأولى هى أن ابن بطوطة لا يكاد يصف نساء أى بلد يزوره إلا بالحسن ، ولا يفوته أبداً أن يقف عند نساء البلد ويطرى محاسنهن ، وإذا جاز لنا أن نستنتج من هذا شيئاً فهو أن الرجل كان مفتوح الشهية من هذه الناحية يهضم ذوقه كل

صنف من أصناف بنات حواء ، وذلك طبع فى الرجل مريح ، فهو لا يشترط ولا يتعلل ولا يدقق ، فالكل عنده حسناوات وذلك إذا كان يكشف عن ذوق غير مرهف من ناحية – فإنه يكشف فى الوقت نفسه عن صحة فى الرجل جنسية شأنه فى ذلك شأن الرجل القوى المعدة السليم جهازه الهضمى ، فهو يأكل أى شىء ويهضم أى طعام ، بخلاف الرجل المريض المعدة الذى لا تهضم معدته إلا الطيب الناضج المتقن من الطعام ، وأى عيب فى المأكل يتعبه وينفره .

أما الملاحظة الأخرى فهى أن الرجل على الرغم من ذلك لم يكن بزير نساء ولا شديد الولع بهن ؛ إنما هو كان رجلاً ذا طبيعة سليمة قوية تحتمل الكثير . وقد رأينا الكثير من مظاهر قوته البدنية واحتماله الأمراض وقدرته على الصمود ، لمضانكها فكم من مرة رأيناه يصاب بالمرض الثقيل ويعانى منه ، ويركب الحصان فى أثناء الرحلة وهو مريض حتى ليشد جسده على الدابة حتى لا يقع وهى تسير به !

ومع ذلك فقد كان الرجل شديد الإحساس بالنظافة لا يحتمل القذر ولا يطيقه ، فهو لا يقبل أبدا على طعام يشك فى نظافته أو نظافة الوعاء الذى يقدم فيه ، وإذا دخل مدينة غير نظيفة عجل بالخروج منها ، وقد حدث له ذلك مراراً فى أثناء رحلته

كان ابن بطوطة رجلاً سليم الطبع والبدن ، شديد الولع برؤية الدنيا والناس ، مقبلاً على الدنيا دون طمع فى ترف أو تكلف فى أى شىء من أشياء هذه الدنيا ، وكل ما فيها يعجبه ويشوقه إلا القذر ، وسوء الخلق وقلة الإيمان .

١٨

بقية اليمن

زيلع – مقدشو – كلوة – سفالة – العبور إلى ظفار

لم تطل إقامة ابن بطوطة فى اليمن ، لأنه لم يجد فيه – فيما يبدو – ما تتوق إليه نفسه من الأولياء والصالحين والعباد الزهاد ، فهو لم يزر من هؤلاء هناك إلا قبر شيخ عابد فى زبيد يسمى أحمد بن العجيل من شيوخ الزبدية ، فيتحدث عنه فى سطور ، ثم ينتقل إلى الحديث عن سلطان اليمن بعد انتقاله من زبيد إلى تعز ، وكانت عاصمة اليمن إذ ذاك .

بنو رسول أصحاب تعز

وكان السلطان هو المؤيد هِزَبْر الدين داود بن السلطان الأشرف عمرو بن المظفر يوسف بن نور الدين عمر بن رسول ، وقد حكم فيما بين سنتى ١٣٢١م و١٣٦٣م وهو الخامس من بنى رسول أمراء اليمن . وأصل بنى رسول من العراق ، ولكنهم دخلوا فى طاعة الأيوبيين وأصبحوا نوابهم فى اليمن ، ثم استقلوا عن مصر سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م فى نهاية حكم الملك المسعود يوسف بن الكامل آخر سلاطين الأيوبيين فى اليمن .

تعز

وقد اتخذوا تعز عاصمة لهم ، لأن صنعاء فى داخل البلاد فى منطقة جبال ، فى حين أن تعز على حافة السهل وفى مدخل التلال المؤدية إلى الداخل حيث استقل الزيديون بزعامة إمامهم أحمد بن الحسين ، وكانت صنعاء عاصمتهم وهى على ارتفاع نحو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر ، وإلى هذا يرجع اعتدال مناخها ، ثم إن الماء بها أوفر بسبب الرياح الموسمية ، ولهذا فهى مشهورة بخضرتها وبساتينها

وقد لقى ابن بطوطة إكراما بفضل الشيخ الفقيه أبى الحسن الزيلعى وصاحبه قاضى القضاة الإمام المحدث صفى الدين الطبرى المكى ، وقدمه هذان إلى السلطان ، وقد وصف لنا ابن بطوطة تقاليد سلطان اليمن فى الاستقبال وتسيير الأمور والطعام بما عرف

عنه من الدقة والالتفات للتفاصيل .

ثم انتقل إلى صنعاء ، وقد سبق له أن امتدحها وأطرى أهلها ، وهو يضيف الآن حقيقة جديدة : وهى أن صنعاء كانت كلها مدينة مفروشة أى مبلطة الشوارع فإذا نزل المطر غسل المطر جميع أزقتها وأنقاها .

عدن

ومن اليمن اتجه إلى عدن ، ومن أسف أن ابن بطوطة أهمل ذكر التواريخ كثيراً ، ولهذا فنحن لانعلم كم قضى فى اليمن ، وكان نزوله فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأرى نسبة إلى الفأر .

زيلع

ومن عدن ركب البحر الأحمر أربعة أيام فنزل زيلع ، ولم تعجبه هذه المدينة قط ، لأنها كما قال : أقذر مدينة فى المعمور وأوحشها وأكثرها نتناً بسبب فضلات السمك التى يتركونها فى الأزقة ودماء الجمال التى يذبحونها ، فيتعفن ذلك كله ، ولهذا فقد عجل بالرحلة منها .

مقدشو
البربرة
أو الصوماليون

وركب البحر خمسة عشر يوماً ، ونزل مقدشو بعد أن مرّ ببربرة . وبلادُ الزيالعة تمتد إلى حدود مقدشو ، وأهلها وأهل إقليمها يسمون عنده البربرة وهم الصوماليون . والزيالعة أيضاً يدخلون اليوم فى عداد البَربَرة .

أعجب ابن بطوطة بالبربرة أو المقدشيين ، ووصف لنا تقاليدهم مع التجار ، وهى تقاليد جميلة ، فإن المركب إذا سار فى الميناء صعد تجار البلد إليه ومعهم الطعام ، ويختار كل منهم تاجراً من الوافدين يكون نزيله ، والنِّزالة هنا تتضمن شراء التاجر المُضيف لكل ما مع التاجر الوافد بالثمن الحلال .

وعندما صعد التجار إلى المركب ليختاروا نزلاءهم أو عملاءهم أراد أحدهم أن يكون ابن بطوطة نزيله ، « فقال له أصحابه : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضى ، وكان فيها أحد أصحاب القاضى ، فعرّفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر فى جملة من الطلبة وبعث إلى أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابى وسلمت على القاضى وأصحابه ، وقال لى : « باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ ؛ فقلت : ومن الشيخ ؟ فقال السلطان » (ص٢٤٥)

وهذا يؤكد ما قلناه من أن المجتمع الإسلامى كان مقسماً إلى مراتب وأصناف ،

وابن بطوطة فقيه فهو من أهل المراتب ، ومرتبته الفقه والقضاء ، فهو إذن نزيل القاضى وضيفه ، أما التجار فهم نزلاء التجار ، وهم مرتبة على حدة .

سلطان مقدشو

ويحدثنا ابن بطوطة عن سلطان مقدشو أيام زيارته وهو أبو بكر بن الشيخ عمر ، وهو من البربرة وكلامه بالمقدشى ويعرف اللسان العربى . وعندما أبلغ القاضى السلطان أن ابن بطوطة وافد من الحجاز أرسل إليه السلطان إشارة التكريم وهى أوراق التنبول والفَوْفَل .

والتنبول – كما سنرى – هو القات أو شىء شبيه به ، وكان استعماله شائعاً فى جنوبى الجزيرة العربية وشرقى أفريقية وبلاد الهند ، أما الفوفل فنبات يؤكل معه ، وسيحدثنا عنه ابن بطوطة بعد قليل .

دار الطَّلَبة

ثم أنزلوه فى دار الطلبة ، وهى دار معدة لضيافة الطلبة ، وأتوه بطعام جيد هو الأرز مطبوخاً بالسمن فى صحفة خشب كبيرة ، ثم الكوشان وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ، وهم يطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب ويجعلونه فى صحفة ، يجعلون اللبن المروب فى صحفة ، ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر والمصبر هو ما نسميه نحن بالمخلل .

وُيختم الطعام بالعَنْبَا وهى مثل التفاح ، ولكن لها نواة ، ومعنى هذا أن صاحبنا ابن بطوطة عاش هناك فى سعة ورغد لمجرد أنه فقيه مسلم نزل فى بلد مسلم ، وهذا يؤيد ما قلناه من ترابط أمة الإسلام .

ثم يصف لنا لباس الناس والسلطان فكسوه فوطة يشدها الإنسان فى وسطه – عوض السراويل فهم لايعرفونها – ودُرَّاعة من المقطع المصرى – معلَّمة ، وفرجية من القدس مبطنة ، وعمامة مصرية معلمة ، وهنا ترى كيف كانت الملابس أيضاً من صنع بلاد الأمة الإسلامية ، وكذلك كان لباس السلطان وإن كان أفخم .

بلاد السواحل

ثم ركب البحر من مقدشو متوجهاً إلى بلاد السواحل ، ويراد بها شرقى إفريقية وهذه أول مرة نقرأ هذه التسمية لهذه الجهات . ومنها نعرف من أين أتى اسم اللغة السواحلية وكانت وجهته كِلوَة من بلاد الزنوج كما يقول ، ومر فى طريقه بمُمْبَسَّة . وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، وأهلها شافعية المذهب

مُمْبَسَّة

أهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان .

كلوة

ثم ركب البحر إلى كلوة وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين من جنادة .

وذكر لى بعض التجار أن مدينة سُفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كِلْوة ، وأن بين سْفالة ويونى من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن يونى يؤتى بالتبر إلى سُفالة . هذا ولم يستطع أحد تحقيق أعلام الليميين وجنادة ويونى إلى الآن .

وكان سلطان كِلْوة إلى الجنوب من زنجبار هو أبو المظفر حسن ويكنى أيضا أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه ، وكان هذا الرجل يغزو أرض الزنوج ويغنم منهم ، ويخرج الخمس ، ويصرفه فى مصارفه الشرعية ، ويجعل نصيب ذى القربى فى خزانة على حدة ، ويصرفه لمن يأتيه من الشرفاء ، ولهذا فقد كان الكثيرون منهم يفدون عليه ، وقد رأى ابن بطوطة عنده بعض آل جَمّاز وآل نُمّى شرفاء الحجاز وحكامه .

ومن طريف ما يحكى ابن بطوطة أن أبا المواهب مات وخلفه أخوه داود ، وكان على عكسه لايعطى أحداً شيئاً ، فإذا أتاه سائل قال له : مات الذى كان يعطى ، ولم يترك من بعده مايُعْطَى !

ظفار

ومن ساحل أفريقية الشرقى عند زنجبار قطع ابن بطوطة البحر إلى ظُفار من أرض عُمانَ ، ولم يذكر لنا كيف قطعه أو فى أى مدة تم له ذلك ، ولكنه يقول : إن المسافة من ظفار إلى قاليقوط – من ساحل الهند – تقطع فى شهر مع الرياح الطيبة ، والمسافة من كِلوة إلى ظفار تبدو على الخريطة كالمسافة من الهند إلى ظفار ، أى أن هذه الرحلة البحرية دامت شهراً دون أن تكون لدينا عنها أى تفاصيل .

ومثل هذا عند ابن بطوطة كثير مما يلقى ظلالاً من الشك على بعض فترات رحلته ، ولكننا لانستطيع اتهامه بالادعاء ، لأن الحقائق التى ذكرها عن ساحل أفريقية الشرقى صحيحة تطابق الواقع ، وتدل على مشاهدة عيان ، وكذلك مايذكره عن ظفار وأرض عمان فلا يبقى أمامنا غير التصديق !

١٩
ظُفار وعمان

لم تكن زيارة ظُفار فى خط سير ابن بطوطة ، وإنما نزلها فيما يبدو على غير موعد ، ولانعتقد أنه كان يعرف مايقصد إليه منها ، لأن هذا الرجل فى الكثير من مراحل رحلاته كان يسير بحسب ما تهوى الرياح لا بحسب ما يهوى هو ، ولهذا فإننا نلحظ أنه يهش لمقدمه إلى ظفار .

فهو يبدأ بذكر المسافات بينها وبين غيرها من البلاد ، وليست هذه عادته فيقول : إن بينها وبين عدن مسيرة شهر فى صحراء ، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً ، وهو يقول : إن مدينة ظفار فى صحراء منقطعة لاقرية بها ولاعمالة لها ، والعمالة يراد بها هنا مايعرف « بالهنترلاند » أى الأرض الداخلية الخصبة أو الغنية بالماء والموارد التى تغذى مدينة أو إقليماً ساحليا .

وسوق البلد منفصلة عنها قائمة خارجها وهى لا تعجب ابن بطوطة ، بل يقول : إنها من أقذر الأسواق وأكثرها نتناً وذباباً لكثرة ما يباع فيها من الثمار والسردين ، وهو يطرى هذا السردين ويقول : « إنه فى غاية السِّمَن » .

« ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين ، وكذلك غنمهم ولم أر ذلك فى سواها » .

وقد سألت فى إمكان هذا رجلاً من البيولوجيين فقال : إن ذلك ممكن ، وإن آكلات العشب قد تغتذى باللحم فى حالة الضرورة طلبا للبروتين ، ولابد أن يكون السردين فى هذه الحالة مجففاً .

اهتمام أهل ظفار بالتجار القادمين إلى بلدهم

ويحدثنا ابن بطوطة عما يقدمه أهل ظفار من وجوه الإكرام للتجار ليجتذبوهم إلى بلادهم . وهو يثنى على أهل ظفار ثناء جميلاً ويضيف : « ومن الغريب أن أهل هذه

المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شئونهم : نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم ، وهو عيسى بن على ، كبير القدر كريم النفس ، فكان له جوارٍ مسميات بأسماء خدام المغرب ، إحداهن اسمها بخيتة ، والأخرى زاد المال ، ولم أسمع هذه الأسماء فى بلد سواها » (ص٢٥٢) .

وبعد أن يذكر وجوه تشابه أخرى بين المغرب وظفار يقول : « وهذا التشابه كله مما يقوى القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حِمْيَر » ، ومن المعروف أن بعض قبائل الصنهاجيين من أمثال لمتونة ومسوفة وجزولة وغيرها من القبائل التى أقامت دولة المرابطين تزعم أن أصلها من حِمْيَر فى خبر طويل يتداوله أصحاب تاريخ المغرب والأنساب من العرب .

ومن طرائف ما يحكى عن ظُفار إضراب الجند عن العمل إذا تأخرت رواتبهم ، فيعتزلون فى تربة سلف السلطان المغيث .

وعلى مسافة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف وهى منازل عاد ، وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر ، وحوله قرية لصيادى السمك .

قبر هود بن عابر

وفى الزاوية قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام . ويذكر أنه بمسجد دمشق موضع آخر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر . ويرجح أن قبر هود الحقيقى فى الأحقاف ، لأن هذه بلاده والله أعلم .

التنبول

ويقول ابن بطوطة إنّ التنبول هناك ، ثم يتحدث عن التنبول بتفصيل ، وهو نبات يشبه القات ، ولما كان حديث ابن بطوطة عن التنبول سيطول من الآن فصاعداً فلنذكر طرفاً مما يقوله عنه هنا :

قال : « والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ، وتصنع له معرشات من القصب كما تصنع لدوالى العنب ، أو يغرس فى مجاورة شجر النارجيل ، فيصعد فيها كما تصعد الدوالى وكما يصعد الفِلْفلِ . ولا ثمر للتنبول ؛ وإنما المقصود منه ورقه ، وهو يشبه ورق العُليق ، وأطيبه الأصغر وتجتنى أوراقه فى كل يوم ، وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيماً شديداً .

وإذا أتى الرجل دار صاحبه ، فأعطاه خمس ورقات منه – فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها !

وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل ، وهو يشبه جوز الطيب ، فيكسر حتى يصير أطرافاً صغاراً ، ويجعله الإنسان فى فمه ، ويلوكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئاً من النورة ، ويمضغها مع الفوفل ، وخاصيته أنه يطيب النكهة ، ويذهب بروائح الفم ، ويهضم الطعام ، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويُفرح أكله ، ويعين على الجماع .

ومن ظُفار ركب البحر إلى عمان ، فلم يخترق أرض ظفار ولاجبال عمان ، وكان ركوبه فى مركب صغير لرجل يعرف بعلى بن إدريس المصيرى ، من أهل جزيرة مصيرة .

وفى اليوم الثانى لركوبه ينزل بمرسى حاسك ، وفيه ناس من العرب صيادون للسمك ، وعندهم شجر الكندر ، وورقه إذا شُرِط خرج منه صمغ يتحول إلى اللُّبان.

ومن مرسى حاسك ساروا بحذاء البحر أربعة أيام حتى وصلوا إلى جبل لَمْعان وهو فى وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة ، وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير يجتمع من المطر.

ثم ركبوا البحر مرة أخرى ، فوصلوا إلى جزيرة الطير والمراد إحدى جزر كوريا موريا فيها طيور صغيرة تشبه الشقاشق، وهى مثل الحمام ، وقد أنكر ابن بطوطة أكل الناس منها دون تذكية .

طعام الناس فى تلك المنطقة التمر والسمك

وكان طعام ابن بطوطة هناك التمر والسمك ، وأكثر السمك عندهم صنف منه يسمى بالفارسية : شير ماهى ، ومعناه – كما يقول – أسد السمك ، لأن شير هو الأسد وماهى السمك ، وهذا مثلٌ من حرص ابن بطوطة على ترجمة مايذكر من ألفاظ فارسية أو تركية أوهندية .

ثم وصلت سفن ابن بطوطة إلى جزيرة مصيرة ، ولم ينزلوا بها لبعد مرساها عن الساحل ، وإنما نزل صاحب المركب ، لأنه من أهل مصيرة فزار أهله وعاد .

ثم ساروا فى البحر قدر يوم وليلة ،فوصلوا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر

تعرف بصور ، ومنها رأى مدينة قَلْهَات فى سفح جبل ، فخيل إليه أنها قريبة . وكان ابن بطوطة قدكره صحبة أهل المركب ، فقرر النزول إلى السبر والتوجه إلى قلهات ، ففعل .

وصحبه فقيه هندى يسمى خِضراً ، وترك بعض أشيائه فى المركب ، ليأخذها عندما يلحق بهم ، واكترى حمالاً دليلاً لكى يحمل له أثواباً كان حريصاً عليها ، وقد أراد ذلك الدليل الهرب بالأثواب ، ولكن ابن بطوطة أظهر الحزم . « وشددت وسطى ، وكنت أهز الرمح فهابنى ذلك الرجل » .

قلهات

وقد لقى ابن بطوطة تعباً شديداً حتى وصل إلى المدينة وهى قَلْهات ، وقد أكرمه حاكمها ، وأضافه ستة أيام وهو لا يقدر على المشى ، لأن نعله ضاق على رجله لطول المشى ، « حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها » ! (ص٢٦١) .

ويمتدح ابن بطوطة جامع قلهات ويقول : إن حيطانه بالقاشانى وهو شبه الزليج ، وهو مرتفع يُنْظَر منه إلى البحر والمرسى ، وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم ويقول : ومعنى بيبى عندهم الحرة ، وهذا هو تفسير ذلك الاسم الشائع بين نساء الخليج . وهم يكثرون أكل الأرز ، وهو يأتيهم من الهند ، ويقول : إن كلامهم ليس فصيحاً مع أنهم عرب وأهلها خوارج ، ولكنهم لا يصرحون بمذهبهم خوفاً من أميرهم قطب الدين تَمَهْتَن ملك هرمز وهو من أهل السنة .

بلاد عمان

ثم يصل إلى بلاد عُمان بعد مسيرة ستة أيام فى صحراء ، ويقول : إنها خصبة ، « ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس ، ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهى مدينة نزوة ،[1] مدينة فى سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية ، وعادة أهلها أنهم يأكلون فى صحون المساجد ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ولهم نجدة وشجاعة ، والحرب قائمة فيما بينهم أبداً .

نزوى

وهم إباضية المذهب ، ويصلون الجمعة ظهراً أربعاً ، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ، ونثر كلاماً شبه الخطبة يرضى فيه عن أبى بكر وعمر ، ويسكت عن

(١) يرد اسم هذا البلد بالرسمين : نزوى ، نزوة .

عثمان وعلى وإذا أرادوا ذكر علىّ رضى الله عنه كفوا عنه فقالوا : ذكر عن الرجل أو قال الرجل ، ويرضون عن الشقى اللعين ابن ملجم ، ويقولون فيه : العبد الصالح قامع الفتنة » (ص ٢٦٣)

وهذا الذى يذكره ابن بطوطة عن إباضية عمان يدعو إلى التفكير ؛ فإن الإباضية يقيمون الجمعة كما يقيمها السنة ؛ لأن لهم إماماً ظاهراً يعيشون فى حكمه ، ومن ثم فلا وجه لتعطيل الصلوات العامة بحجة غياب الإمام كما تفعل بعض فرق الشيعة . وربما كان أولئك الإباضية الذين يحدثنا عنهم ابن بطوطة هنا كانوا فرقة خاصة منهم ، فقد ذكر الشهرستانى والبغدادى فرقاً كثيرة من الإباضية مثل الحارضية والحفصية واليزيدية والوهبية والنكارية ، والكثير من فرق الإباضية من لا يَعْرِف عقائدها وعباداتها إلا أصحابها . وخير مرجع لمعرفة هذه العقائد كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة . . وهو كتاب جيد لم ينشر إلى الآن محققاً تحقيقاً علميا .

وعلى أى حال فقد كانت إمامة إباضية عمان دائماً فى الجبل الأخضر فى داخل عمان وقاعدتهم نزوى ، وأما السواحل فقد كانت فى الغالب سيئة .

٢٠

مدخل الخليج العربى

هرمز ولار وخنجبال وجزيرة قيس وسيراف

لم تطل إقامة ابن بطوطة فى عُمان ، لأنه – أولاً – لم يجد فيها ماتتوق إليه نفسه من لقاء الأولياء والصلحاء والعباد ، وآخراً لأنه كان على نية الحج ، ويبدو أنه لم يكن هناك درب مطروق بين عُمان والحجاز .

ثم إن ظفار وعُمان لم يكن لهما ركب حجاج ، ربما لأن حكام عُمان كانوا من الخوارج ، فكان على الراغب فى الحج من أهل تلك البلاد أن يذهب إلى نجد أو العراق أو اليمن ، ومن ثم يلحق بإحدى قوافل الحج .

وقد اختار ابن بطوطة طريقاً طويلاً بعض الشىء ، ليصل إلى القطيف ومنها إلى الحجاز عن طريق نجد ، ولايَدَ لَهُ فى هذا الطريق الذى اختاره ، فمثل هذا الرجل لم يكن حرًّا فى هذا الاختيار ، وإنما كان يسير فى الطريق الميسر له أو الذى ييسر له الأمان .

وإنه لما يزيدنا إعجاباً بهذا الرجل إنما هو إصراره على السير قدماً وركوب المخاطر دون أن يركن إلى راحة ، فقد رأينا الفرصة تتاح له أكثر من مرة ليستقر فى مهاد الدعة : إما مع أحد الزهاد – وكان ذلك مهرباً من الحياة شائعاً فى تلك العصور ، أو يستكن فى ظل أمير أو حاكم – وكانت هذه أكبر الأمانى فى نظر المفكرين وأهل العلم فى ذلك الزمان .

الحج قرة عين ابن بطوطة

أما ابن بطوطة فلم يكن طالب دعة ولا طالب رفد ، إنما كان سيَّاحاً جوالا لذته الكبرى فى التنقل ومشاهدة البلاد والعباد ، ثم إن الحج كان قرة عينه : يطوف ويطوف ثم يذهب إلى الحجاز قبيل الموسم ، فيجاور حيناً ويعتمر ثم يحج ، وهنا تطمئن نفسه ويهدأ باله ، وينهض للرحلة من جديد .

وقد قطعنا مع ابن بطوطة إلى الآن قريباً من نصف رحلته ، ولم نلاحظ مايتحدث به الناس عنه من أنه كان مزواجاً لايحل فى مكان إلا تأهل ، وهذا هو إلى الآن لايلتفت إلى هذه الناحية إلا بالقدر المعقول ، فما رأيناه يتزوج إلى الآن إلا مرتين فى بداية رحلته . إنما سيحدث هذا فيما بعد ، خلال الثلث الأخير من رحلته عندما يدخل بلاد الترك ثم الهنود ثم جزائر ذيبة المهل وهى الملديف ، وسيكون ذلك جزءاً من تغير عام شمل حياة ابن بطوطة وشخصيته ، وسنتحدث عن ذلك فى حينه .

وسلطان عُمان فى أيَامه هو أبو محمد بن نبهان من أزد عُمان ، والمشهور فى كتب التاريخ أن سلسلة الأئمة الأزديين أصحاب عمان وقاعدتهم نزوة – انقطعت فيما بين سنتى ١١٥٤م و١٤٠٦م ، وحل محلهم بنونبهان وقاعدتهم مَقنِيْات فى إقليم الزاهرة ، ولكن كلام ابن بطوطة يدل على أن بنى نبهان أزديون أيضاً ، وأن العاصمة استمرت فى نزوة ، وهذه النقطة فى حاجة إلى تحقيق ، ومن الممكن أن يكون ابن بطوطة قد خلط فى هذا الموضوع .

وعلى أى حال فإن رحالتنا غير راض عن أبى محمد بن نبهان هذا برغم أنه يقول : إن له أخلاقاً حسنة ، ولكنه يروى عنه حكاية لاتصدق ، وهى أنه كان يُجير المرأة الفاسدة على أهلها ويعينها على فسادها ويحميها من أهلها !

ويبدو أنه زار الكثير من مدن عمان ؛ لأنه يقول : ومن مدن عمان مدينة زكا لم أدخلها ، وهى على ماذكر لى – مدينة عظيمة ، ومنها القريات وشُبا وكَلْبا وخورفكان وصُحار ، وكلها ذات أنهار – وأشجار وحدائق ونخل ، وأكثر هذه البلاد فى عمالة هرمز (ص ٢٦٣) .

وملاحظته فى محلها ؛ لأن إمامة عمان لم تكن تشمل إلا الدواخل دون السواحل فى الركن الجنوبى الشرقى من جزيرة العرب . وكان الجبل الأخضر قلب بلاد الإمامة ومعقلها ، وكانت تتبع إمارة عمان بعض مدن الساحل الجنوبى مثل مسقط ومطرح .

هرمز وسلطنتها

وكان جزء كبير من ساحل الجزيرة فى مدخل الخليج تابعاً لسلطنة هُرْمُز وصاحبها فى أيامه قطب الدين تَمَهْتَن بن طوران شاه . وكانت القاعدة فى تلك الأيام هى هرمز

الجديدة ، أى المدينة التى قامت على الجزيرة المواجهة لهرمز ، أما المدينة الساحلية فكانت – كما يقول ابن بطوطة – مُوغ استان .

وهرمز الجديدة يطلق على الجزيرة . أما القاعدة فيها فاسمها جَرون ، ويصفها ابن بطوطة بأنها مرسى الهند والسند ، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس وخراسان ، وهذه المدينة سُكنى السلطان .

والجزيرة التى فيها المدينة على مسيرة يوم ، وأكثرها سباخ وجبال ملح ، وهو الملح النارانى ، ومنه يصنعون الأوانى المزينة والمنارات التى يضعون السُّرج عليها ؛ والملح الدارانى ويسمى الذارانى أيضاً هو الملح الصخرى الذى فى الجبال فى شبه المناجم ، وهو أصلب من الملح العادى أى البحرى ، حتى ليسمى بالملح الحجرى ، وكان يستعمل دواء ؛ لأنه لم يكن مجرد كلوريد الصوديوم ، بل كانت تختلط به مواد أخرى ، وإلى هذا ترجع صلابته وقلة ذوبانه ، وأكبر مناجمه المعروفة فى أيامنا هذه فى النمسا عند سالزبورج ، ومعنى اسم هذه المدينة مدينة الملح .

ويقول ابن بطوطة : إن طعامهم السمك والتمر المجلوب لهم من البصرة ، «ويقولون بلسانهم : خرما وماهى لوت باد شاهى ؛ ومعناه بالعربى : التمر والسمك طعام الملوك (ص ٢٦٤).

وقد رأى ابن بطوطة هناك جمجمة حوت هائل وكأنها رابية وعيناها كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى ! »

ويتحدث ابن بطوطة عن سلطان هرمز وكيف وجده مشغولاً بحرب ابن أخيه نظام الدين بن طوران شاه ! وقد عبر ابن بطوطة البحر من الجزيرة إلى البر ؛ ليزور رجلاً صالحاً ببلد خُنْج بال فاخترق صحراء قاحلة مسيرة أربعة أيام تهب بها رياح السموم فى شهرى أغسطس وسبتمبر «فمن صادفته قتلته» .

رياح السموم

ويذكر هذه الرياح شاردان Chardin فى كتابه «رحلات فى فارس» المنشور سنة ١٩٢٧ م ويقول : إنها تهب فيما بين ١٥ من يونيو و ١٥ من أغسطس ، وهو وقت الحرارة القصوى فى الخليج ، ويقول شاردان : إن تلك الرياح لها صفير مخيف . وهى تبدو حمراء ملتهبة ، وتقتل الناس وتعصف بهم ، فمن وقع فيها اختنق ، وخاصة إذا

أصابته بالنهار . ويقول ابن بطوطة : إن من مات بها بقى على حاله ، فإذا أمسكت بأى عضو من أعضاء جسده خرج معك !

ولم يكن هذا هو الشر الوحيد الذى يلقى السائر فى تلك الصحراء ، بل كان يقطع الطريق بها لص كبير يسمى جمال الملك اللُّك ومعناه الأقطع ، وقد تأَبَّش إليه نفر عظيم من اللصوص والذُّعَّار مابين عجم وعرب ثم تاب هذا الرجل وتعبد ، ومات وأقيم له ضريح رآه ابن بطوطة .

ومن هناك وصل ابن بطوطة إلى كوراستان ، ويرى شفارتس صاحب كتاب « إيران فى العصور الوسطى[1] » : أن المراد بهذا البلد خوريستان التى تسمى أيضا سَرْقِسْتان على نحو ثمانين كيلو مترٍ جنوب شرق شيراز .

ويقول جب فى تعليقه على ذلك : إن هذا – إذا صح – فيكون ابن بطوطة قد أخطأ فذكر اسم ذلك البلد الذى مر به بعد عودته من الهند سنة ١٣٤٧م عندما قطع خورستان فى طريقه إلى شيراز ، ويضيف أنه من غير المحتمل أن يخطئ عربى فيكتب خورستان بدلا من كورستان ، إلا إذا كان هذا هو نطق هذا الاسم على لسان أهل الموضع .

لار

ثم وصل إلى لار ، وهى مدينة معروفة بين هرمز وشيراز ، وهو يثنى على أهلها ويقول : إنهم يتبرعون بالخبز لإيواء الغرباء ، وكان سلطان المدينة جلال الدين التركمانى .

خنجبال

ومن هناك قصد إلى خنجبال ، فزار زاوية الشيخ العابد أبى دلف محمد وهو زاهد ينفق الأموال العظيمة على أبناء السبيل ، ويذهب بعض الناس إلى أنه ينفق من الكون !

ثم يقول : إنه سافر من خُنجبال إلى مدينة قيس ، وتسمى أيضا بسيراف . وهنا يقع فى خطأ جسيم ؛ لأن سيراف كانت من أعظم موانى إقليم فارس على الخليج – قرب مدينة طاهرى الحالية .

جزيرة قيس أو كيش

أما قيس – أو كيش – فجزيرة على نحو ١٣٠ كيلو مترٍ إلى الجنوب ، وقد حلت

(١) الجزء الثالث ص ٣٣ Schwartz, Iran in Mittelalter, III. 133.

محل سيراف فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم حلت هرمز محل هذه الأخيرة فى الأهمية سنة ١٣٠٠م ، ثم حلت بندر عباس محل المدن الثلاث فى القرن السابع عشر .

ومن المعروف أن هرمز وقعت فى أيدى البرتغاليين سنة ١٥١٢م ، وظلت فى أيديهم حتى خلصها الشاه عباس من أيديهم سنة ١٦٢٢م بمعاونة الإنجليز .

وقد مر ابن بطوطة بهذه النواحى من شرقى إيران فى آواخر أيام سلاطينها أبى سعيد بهادر الذى توفى سنة ٧٣٦هـ /١٣٣٥م ، ولكن المظفرين الذين سيرثون إقليمى فارس وكرمان اللذين مر بهما ابن بطوطة كانوا فى طريقهم إلى الاستبداد بالأمور . ولكن يبدو من كلام ابن بطوطة أن الأمن كان مستتبًّا فى هذه النواحى والأحوال راضية ، وسيظل الأمر على ذلك بعد وفاة أبى سعيد ، لأن المظفرين كانوا من أقدر حكام إيران خلال فترة أمراء النواحى أو أمراء الطوائف الذين تقاسموا البلاد بعد تفكك إيلخانية إيران المغولية .

٢١

صيد اللؤلؤ فى الخليج

حديث ابن بطوطة عن اللؤلؤ فى الخليج وصيده

رافقنا ابن بطوطة فى الفقرة السابقة على الضفة الشرقية للخليج العربى حتى جزيرة قيس فى طريقه إلى القطيف ونجد ثم الحجاز ليحج حجته الثالثة . وقد لاحظنا أنه وقع فى بعض الأخطاء فى حديثه عن هذه المنطقة ، وسنراه فى حديثنا هذا يقع فى وهم كبير فى كلامه عن اللؤلؤ ومغاصاته ، وهو يقول : إن تلك المغاصات بين سيراف والبحرين فى خور راكد ويقول : إن معظم أهل سيراف عجم وفيهم طائفة من عرب بنى سفاف كما يقول ، وقد تكون صحة الاسم : سَقَّاف .

وهو يصف خور اللؤلؤ هذا بأنه مثل الوادى العظيم ، وسآتى بكلامه على تواليه نظراً لأهميته لأهل منطقة الخليج كلها ، وسنعلق عليه بعد ذلك بما يقتضيه المقام ، قال :

« فإذا كان شهر أبريل وشهر «مايُه» تأتى إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغِيلَم وهى السلحفاة ، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المِقراض يشده على أنفه ، ثم يربط حبلاً فى وسطه ، ويغوص .

ويتفاوتون فى الصبر فى الماء فمنهم : من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك ، فإذا وصل إلى قاع البحر وجد الصدف هناك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا فى الرمل ، فيقتلعه بيده ، أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ، ويجعلها فى مخلاة جلد . منوطة بعنقه . فإذا ضاق نفسه حرك الحبل ، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه إلى القارب . فتؤخذ منه المخلاة ويفتح الصدف ، فيوجد فى أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة . فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خمسه ، والباقى يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ،

وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين ، فيأخذ الجوهر فى دينه أو ما وجب له منه (ص ٢٦٩) .

وهذه الفقرة تدل على أن ابن بطوطة لم يشهد عملية الغوص بنفسه ، وإنما أخذ المعلومات من أفواه نفر غير عارفين بدقائق عملية الغوص ، وربما أخذها من أصحابه الفقهاء ، وهذا أمر يستغرب من رجل طلعة مثل ابن بطوطة تشوقه رؤية كل غريب ، والغوص على اللؤلؤ كان من أغرب مايمكن الإنسان مشاهدته .

وربما كان السبب كذلك أن إقامته فى البحرين والقطيف ومنطقة رأس الخليج جملة لم توافق فترة الغوص ، فقد كان فى هذه المنطقة فى شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٣٣٢م ، لأنه حج حجته الثالثة فى ذى الحجة ٧٣٢هـ أى أواخر أغسطس وسبتمبر ١٣٣٢م فكان فى منطقة رأس الخليج قبل ذلك بشهرين مثلاً أى فى يونيو ويوليو كما قلنا ، وموسم الغوص كان فى أبريل ومايو كما يقول أى قبل أن يصل إلى المنطقة بشهر وربما بشهر ونصف .

لهذا يقول إن الغواص يستطيع البقاء تحت الماء ساعة أو ساعتين ، وهذا غير ممكن أو معقول – وبهذه المناسبة نذكر أن شاردان يقول إن الغواصين يمكثون تحت الماء قرابة ربع الساعة وهذا أيضا مستبعد – ويقول كذلك أن اللؤلؤ يكون قطعا من اللحم إذا باشرت الهواء جمدت وصارت جواهر وهو أمر غير صحيح كما نعرف .

ولكن ابن بطوطة أعطانا على أى حال – فكرة عن نظام الغوص فى أيامه وكيفية خروج الغواصين للغوص وعن الضريبة التى كان يجبيها السلطان وهى خمس اللؤلؤ المستخرج ، وهى النسبة الشرعية لنصيب الدولة من الركاز ، وهو كل مايستخرج من باطن الأرض ، وملاحظته عن إقراض التجار المال للغواصين قبل موسم الغوص واستيفاء التجار لديونهم بعد الصيد ملاحظة لها أهميتها .

البحرين

من سيراف سافر ابن بطوطة إلى البحرين ، وهو يقول عنها : «وهى مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار ، وماؤها قليل المؤنة يحفر عليه بالأيدى فيوجد ، وبها حدائق النخل والرمان والأترج وهى الفاكهة المعروفة بالليمون المر أو الجريب فروت ، ويزرع بها القطن ، وهى شديدة الحر كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض

منازلها . وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال . وانقطع فلا يوصل من عمان إليها إلا فى البحر » (ص ٢٧٠)

وهذه عبارة تدل على أن لفظ البحرين كان يطلق على الجزيرة المعروفة بذلك الاسم اليوم . واسمها الأصلى : أوال . ويطلق كذلك على الشاطئ المقابل لها من أرض الجزيرة . فابن بطوطة يتحدث عن جزء الساحل لا عن الجزيرة بدليل أنه يذكر أنه بالقرب منها جبلا كسير وعُوير .

عيون مياه عذبة تتفجر فى قاع الخليج

ويتحدث ابن بطوطة عن أنهار تحتية تجرى بالماء العذب بين جزيرة البحرين وشاطئ البحرين . وهذا صحيح . ولكن الأنهار عيون تتفجر فى قاع البحر بالماء الحلو . وفى العصر التركى كان هناك غواصون يغوصون فى الماء ومعهم قِرَب من الجلد يملئونها بالماء الحلو ثم يصعدون إلى السطح . وكان البرتغاليون يستخرجون هذا الماء بأنابيب . وإلى حين قريب كان أهل الخليج يفعلون ذلك .

القطيف

ومن البحرين سافر ابن بطوطة إلى القطيف . وقد سمع نطقها : القْطَيف . وهو يذكر أن أهلها عرب من غلاة الروافض – ويريد بذلك : غلاة الشيعة – ومنها انتقل إلى هجر ويقول : إنها تسمى الآن الحسا . وهذا خطأ ، لأن الحسا هو اسم الإقليم الذى فيه ميناء القطيف .

ولكن المستشرق هاملتون جيب فى تعليقه على مقتطفاته من ابن بطوطة وقع فى خطأ أكبر : فقد قرأ هَجَر « حجَر » وترجمها بلفظ Stone . وقرأ الحسا بالصاد : الحصى وقال : إن معناها bebbles والمعروف عندنا أنها جمع حِسِىّ وهو البئر القريبة القاع والجمع حَساً وأحساء . والاسمان مستعملان .

وهذا أمر مستغرب جداً من مستشرق ضليع مثل السير هاملتون جب لايغيب عليه مثل ذلك . ولايعلل هذا إلا بأن تلميذاً من تلاميذه كان ينسخ له المخطوط فأخطأ فى النقل . وربما كان هذا التلميذ يقوم بالترجمة . ولا تعليل لذلك إلا بأحد هذين الافتراضين .

اليمامة

ثم ينتقل إلى اليمامة ويقول : إنها تسمى أيضاً بحجر . وهو يمتدحها ويقول : إنها مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار . يسكنها طوائف من العرب من بنى حنيفة .

وهم كانوا أهلها على طول الدهر ، وكان أميرهم فى أيامه طفيل بن غانم ، وفى صحبة هذا الرجل حج ابن بطوطة حجته الثالثة ، وهو لايذكر أى تفاصيل عن الحجاز فى حجته تلك ، فيما خلا قوله : إن الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر حج فى هذه السنة وهى ٧٣٢هـ ، ومعنى ذلك أن حجة ابن بطوطة هذه كانت فى أوائل سبتمبر ١٣٣٢م . وهنا يذكر ابن بطوطة بعض التفاصيل عن قتل الملك الناصر لولد من أولاده يسمى أحمد تآمر هو وأمير على السلطان يسمى بُكْتُمُر الساقى .

وكانت نية ابن بطوطة معقودة على السفر إلى اليمن ومنها إلى الهند ، ولكن الله لم يكتب له الوصول إلى اليمن هذه المرة أيضاً : فقد أقام فى جدة أربعين يوماً حتى علم بأمر سفينة لرجل يسمى عبد الله التونسى ، فصعد عليها ، فلم ترض عنها نفسه وعزف عن ركوبها ، وكان ذلك من لطف الله به ، فقد غرق هذا المركب بعد إقلاعه عند رأس يسمى رأس أبى محمد ، ونجا نفر من أهله فى العُشاريات ، والعُشارية مركب صغير يتسع لعشر أنفس ، وكان يربط بكل سفينة كبيرة عدد من العُشاريات كأنها قوارب نجاة .

العُشاريات
الصَّنْبوق

ثم ركب البحر بعد ذلك فى صُنْبُوق ، ونحن ننطقه اليوم : سُمْبكُ ، وهو مركب صغير الحجم ولكنه متين البناء ، وتشاء الصدفة أن تحمله الرياح مرة أخرى إلى فرضة رأس دوائر على شاطئ السودان بين عيذاب وسواكن فى أرض البجاة ، ولكنه هذه المرة لم يسر جنوباً بل اتجه شمالاً فوصل إلى عيذاب ، واخترق وادى العلاقى إلى قرية العطوانى المقابلة لمدينة أدفو فى الصعيد الأعلى ، وصعد النيل إلى مدينة مصر وهى الفسطاط ، ثم اتجه إلى بلبيس فى طريقه إلى الشام ، وهكذا أراد صاحبنا شيئاً وأراد الله غيره ، وأمر الله بين الكاف والنون .

٢٢

بلاد الروم – آسيا الصغرى – العلايا – أضاليا

إلى بلاد الروم : أى آسيا الصغرى

لم يطل مقام ابن بطوطة فى بلاد الشام هذه المرة ، وإنما هو مر ببعض بلادها الرئيسية مسرعاً ؛ لأن وجهته – هذه المرة – كانت بلاد الروم ، وهى آسيا الصغرى ، وهو لايحدثنا عن الدافع له إلى زيارة هذه البلاد ؛ لأنه على العادة – لايذكر علة لانتقاله من بلد إلى بلد ، ومن مثل هذا الرجل لاتطلب تعليلات ؛ فهو رحالة ، وزيارة البلاد ولقاء العباد والتعرف عليهم هو مطلبه وغايته .

وهو يحدثنا بأنه كان له فى الرحلة – هذه المرة – رفيق هو الحاج عبد الله بن أبى بكر ابن الفرحان التوزرى ، ولم يزل فى صحبتى سنين إلى أن خرجنا من بلاد الهند إلى أن توفى بسندابور ، وسنذكر ذلك « والتوزرى هذا منسوب إلى توزر من بلاد إقليم قسطيلية جنوبىّ تونس الحالية ، فهو مغربى مثل ابن بطوطة .

بر التركية

دخل ابن بطوطة آسيا الصغرى بطريق البحر ، قال : «ومن اللاذقية ركبنا البحر فى قرقورة كبيرة لِلْجنُويِّين يسمى صاحبها بَمرتَلْمِين ، وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم .. وسرنا فى البحر عشراً بريح طيبة . وأكرمنا النصرانى ولم يأخذ منا نولاً . وفى العاشر وصلنا إلى مدينة العلايا ، وهى أول بلاد الروم » .

القُرقورة

وفى هذه العبارة ألفاظ تحتاج منا إلى شىء من التعليق ، أولها : القرقورة وهو نوع من السفن ، وقد ضبط نطقه ابن منظور فقال : إنه على وزن عصفورة ، ويرد اللفظ أيضاً فى صورة قُرقُور .

وهناك خلاف عن المراد به ، فيقول ابن منظور فى لسان العرب : «ويقال للسفينة القُرقُور أو الصرصور » ، ويقول الجواليقى فى المغرب : «القرقور ضرب من السفن أعجمى تكلمت به العرب ، ويفهم من النصوص أن ابن منظور على حق فى القول

بأن اللفظ يطلق على السفينة ، والمراد به السفينة بصورة عامة ، لأن القراقير كانت من كل حجم ، يقول ابن مُنكلى فى كتابه « الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر » إن القراقير منها الكبار جدًّا « وهى بثلاثة ظهور وممشى » والمراد بذلك مركب ذو ثلاثة أدوار ، والظهر هو مايعرف بالإنجليزية باسم deck وقرقور مسطح أى ذات دور واحد وقرقورة حربية .

والغالب أن ابن بطوطة ركب قرقورة كبيرة . وكان صاحبها جنويًّا يذكر ابن بطوطة اسمه بطلمى والغالب أنه تحريف لاسم Barholomeou اليونانى . وقد أحسن هذا الرجل معاملة ابن بطوطة وصاحبه ولم يأخذ منهما نولاً أى أجراً ، واللفظ مستعمل فى مصطلح البحر والجمارك فى البحر الأبيض إلى اليوم ، وهو الناولون .

ويستعمل ابن بطوطة لأول مرة لفظ « بر التركية » والمراد بر البلاد التركية ، وهى آسيا الصغرى التى كانت تعرف عند المسلمين باسم بلاد الروم أى سلاجقة الروم ، أى السلاجقة الذين اقتطعوا من أرض الروم فى آسيا الصغرى أجزاء ونزلوها ، ولما كان السلاجقة أتراكاً فقد عرفت البلاد أيضا بالتركية ، ومن هنا جاء اسم تركيا الذى أطلق على بلاد آسيا الصغرى أولاً ثم على بلاد الدولة العثمانية عامة ، ثم على الجمهورية التركية الحالية .

بلاد الأناضول

وفى أيام ابن بطوطة كان لفظ بر التركية يطلق على بلاد الأناضول وهى الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى ، وقد تنازع عليها المسلمون والنصارى زماناً طويلاً حتى تمكن سلاجقة الروم من انتزاعها من أيدى الروم — أو البيزنطيين — نهائيًّا فيما بين سنتى ١٠٨١ م و ١٠٩١ م .

إمارات الغزاة

وخلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر قامت فى آسيا الصغرى إمارات تركية إسلامية أنشأها من يعرفون باسم الغزاة ، وهم الأتراك الذين جعلوا دأبهم مغازاة بلاد الروم واقتطاع أجزاء منها وإنشاء إمارات فيها .

وكانت هذه الإمارات تابعة لسلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وعاصمته قونية ، وكان سلطانه يمتد على شبه الجزيرة كله ماعدا أرمينيا الصغرى وطرابزون ومابقى للدولة البيزنطية من أملاك فى آسيا الصغرى على ساحل بحر مرمرة .

وكان الأتراك العثمانيون فى أول أمرهم جماعة من الأتراك التابعين لسلطان قونية ، ثم أقطعهم أرضاً فى شرقى شبه الجزيرة فأنشئوا فيها إمارة غزاة ، ثم تمكنوا شيئاً فشيئاً من التغلب على سلطنة الروم واقتطاع معظم أراضيها . وبعد أن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية تجرد للقضاء على إمارات الغزاة وإدخالها فى أراضى الدولة العثمانية بصفته أكبر الغزاة .

وكان السلطان العثمانى إذ ذاك يلقب بالغازى ، وقد ظل خلفاء بنى عثمان يحملون هذا اللقب حتى آخر أيامهم ، وحمله أيضا مصطفى كمال منشئ تركيا الحديثة فكان اسمه أولاً « الغازى مصطفى كمال » .

علايا

وعلايا – وأصل اسمها علائية – ميناء كبير كان على ساحل أضاليا ، وهى من إنشاء أعظم سلاطين سلاجقة الروم ، علاء الدين كيقباذ (١٢١٩ – ١٢٣٧ م) وسميت باسمه ، أما الملاحون الأوربيون فيسمونها كانديلور Candelor وهو تحريف لاسمها الأول عند البيزنطيين Kalon Oros

وكان الجانب الأكبر من تجارة علايا مع موانى سلطنة مصر والشام المملوكية وخاصة اللاذقية والإسكندرية ؛ لأن إقليم أضاليا كان مشهوراً بأخشابه ، وكان هو المورد الأكبر للأخشاب اللازمة للأسطول المملوكى .

ابن بطوطة يمتدح أهل أضاليا

ويمتدح ابن بطوطة أولئك الأتراك أصحاب إمارة أضالية (أو أنطالية) وغيرهم من أهل إمارات الغزاة ، ويقول عن إقليم بلاد الروم جملة : «فأهله أجمل الناس صوراً ، وأنظفهم ملابس وأحسنهم مطاعم ، وأكثر خلق الله شفقة ، ولذلك يقال : البركة فى الشام والشفقة فى الروم .. وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو داراً يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهن لا يحتجبن ، فإذا سافرنا عنهم ودعونا وكأنهم أقاربنا وأهلنا ، وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات » (ص ٢٧٢) .

وهذه العبارة من ابن بطوطة فيها مبالغة – فيما يبدو – ولكننا نستطيع قبولها وتفسيرها بأن أهل هذه البلاد – والأتراك عامة – كان لهم تقدير عظيم لرجال الدين والفقهاء خاصة . وقد دخلها ابن بطوطة فقيهاً ، وكان يحمل لقب القاضى ، ولهذا لقى هذا الإكرام كله من أولئك الأتراك ، وسيظل يتمتع به من الآن فصاعدا حتى يدخل

بلاد القرم والبلغار ، بل حتى يدخل القسطنطينية نفسها . وسيزداد ذلك الاحترام لابن بطوطة الفقيه فى خوارزم ثم بلاد الهند ، وستتغير حاله تبعاً لذلك كما سنرى .

وهو يذكر أن جميع أهل البلاد من السنة على مذهب أبى حنيفة ، وليس فيهم على غير السنة أحد ، وسنلاحظ أن هذا أيضاً سيكون حال الأتراك العثمانيين ، بل سيصبح أولئك الأخيرون أبطال السنة والجماعة ، ومن هنا صارت إليهم خلافة الإسلام .

يوسف بك ابن قرمان

وهنا نزل ابن بطوطة ضيفاً على قاضى المدينة جلال الدين الأرزنجانى ، وقدّمه هذا إلى ملك العلايا ويقول : «وهو يوسف بك ، ومعنى بك الملك ، ابن قرمان ، وسكنه على عشرة أميال من المدينة . واسم هذا الأمير يفسر لنا السبب فى أن الإقليم الذى شرقىّ أضالية (أو أنطالية) سيعرف فيما بعد باسم إمارة قرمان ، وستصبح عاصمته مدينة لارندة التى ستسمى بمدينة قرمان جنوب قونية . وكانت إمارة قرمان تابعة لسلطان السلاجقة الروم فى قونية ، ثم استقلت عنها بعد ذلك .

أضاليا

ومن العلايا ينتقل ابن بطوطة إلى أضاليا (أو أنطالية) وكانت أضخم من العلايا وأهم ، وتجارتها أوسع وخاصة مع مصر وقبرص ، ومازال المصريون يسمون الليمون الكبير الحجم باسم ليمون أضاليا ؛ لأنهم كانوا يستوردونه من هذه الناحية . أما أهم ما كانت مصر المملوكية تستورده من أضاليا فكانت الأخشاب لبناء سفن الأسطول خاصة .

ويعطينا ابن بطوطة صورة طريفة ودقيقة جدًّا لتكوين هذه المدينة : فقد كانت مؤلفة من أقسام أو أحياء أو مدن ، لكل طائفة من الناس قسم عليه سور ، فهناك قسم أو مدينة لتجار النصارى «ما كثون منها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة» .

وهذه كانت عادة أهل مدن السواحل الإسلامية فى العصور الوسطى : يتحرزون بالليل من النصارى النازلين بالميناء وفى أثناء صلاة الجمعة خوفاً من الطَّرَقات المفاجئة . وهناك أقسام أخرى للروم واليهود والمسلمين أهل المدينة وهو أكبر الأقسام وأهمها «والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها» .

ولعل الكثيرين لا يعلمون أن الأتراك العثمانيين لم يكونوا يسمون أنفسهم أتراكا ، بل عثمانيين أو عثمانلى ، لأن لفظ ترك وتركى فى لغة الأتراك يحمل معنى الجلافة والبدائية كما كان لفظ « فلاح » يحمل هذه المعانى فى لغة العرب . ولم نجد سلطان آل عثمان موصوفاً قط بأنه تركى .

أما أول من استخدم هذه اللفظة من رؤساء الأتراك فكان مصطفى كمال ، وكان فى هذا الاستعمال يريد أن يفخر بالجنس التركى الأصيل الذى قامت عليه الدولة . فسمى نفسه أتاترك ، أى « أبو الأتراك » ولم يسم نفسه أتا عثمانلى ، وقد حدث ذلك فى الثورات العربية الحديثة ، عندما تحول لفظ فلاح إلى مدعاة للفخر واعترافاً بالأصالة : فبينما كان الناس قبل ثورة ٢٣ يوليو فى مصر لا يحبون أن يوصفوا بأنهم فلاحون أصبحوا يفخرون بأنهم فلاحون ، وأن ثورتهم ثورة فلاحين ، وارتبطت بوصف الفلاح كل فضيلة قومية أو إنسانية .

٢٣

فى بلاد سلاجقة الروم وإمارات الغزاة

قمر الدين

قبل أن نترك أضاليا فى صحبة ابن بطوطة لابد أن نذكر أمرين :

الأول : هو قوله : «وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين ، وفى نواته لوز حلو ، وهو يُيَبَّس ويحمل إلى ديار مصر ، وهو بها مستطرف» (ص ٢٧٥) . وتلك واحدة من الفقرات القليلة فى مؤلفات القدماء تعرفنا بأصل قمر الدين المشهور الكثير الاستعمال فى شهر رمضان خاصة ، والمشهور أنه يصنع من المشمش الحموى وهو نفسه المعروف بقمر الدين .

الأخيَّة

والأمر الآخر هو نظام أو تنظيمات الأخيَّة التى يطنب ابن بطوطة فى الحديث عنها فى كل مامر به من بلاد آسيا الصغرى ، وهو نظام شبيه بنظام الفتوة ، وربما كان مشتقًّا منه ، وربما كان كذلك مقتبساً من نظام جماعات المحاربين الدينيين المعروفين فى تاريخ الحروب بين المسلمين والنصارى فى الشرق والغرب على السواء باسم religious orders أو orders religieux وفى الأندلس باسم Ordenes religiosos ، وكان لهذه الأنظمة دور كبير فى تاريخ الصراع بين الإسلام والنصرانية .

ولنستمع أولاً لكلام ابن بطوطة ، ثم نعلق عليه بما يبدو لنا : قال تحت عنوان : «ذكر الأخيَّة الفتيان» : واحد الأخية أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية فى كل بلد ومدينة وقرية . وليس فى الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة ، وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر» (ص ٢٧٥) .

وإذن فهؤلاء الأخيَّة تنظيم فتوة مهمته العناية بالغرباء وقضاء حوائج الناس

والوقوف فى وجه الظلمة : أى حماية الناس من ظلم الحكام . ولا تروعنا عبارة « وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر » ، فهى تدل على أن نظام الشرطة الذى وضع أول الأمر لحماية الناس وإقرار لأمن تدهور مع تدهور أجهزة الحكم كلها إلى نظام ضار بالناس ، فأصبح الشرط يحمون رجال الدولة والقوة والجاه ، ويعسفون الضعفاء ومن لاحامى لهم ، يفرضون عليهم الإتاوات ، ويؤيدون الأشرار ويقاسمونهم الأرباح !

وهذا التدهور لهذا الجهاز الذى لاغنى عنه واضح لمن يطالع الأجزاء الأخيرة من تاريخ الطبرى ، ومافيه من أوصاف حالة الأمن فى بلاد الدولة وفى بغداد خاصة .

والشُّرط المقصودون هنا هم التابعون لسلطان سلاجقة الروم فى قونية ، وهوصاحب الولاية على إمارات الغزاة ، والأَخِية أو الأُخَيَة الفتيان كانوا يتصدون لأولئك الشرط ، ويحمون الناس منهم وممن يلوذون بهم من الأشرار .

وكان الأخية يتكونون من أهل الحرف من الصناع ، فلكل أهل حرفة جماعة منهم يرأسهم واحد منهم يسمى الأخى . ويكونون فى العادة من الشبان الأعزاب والمتجردين ، أى المتجردين عن الدنيا وهم الصوفية ، ويقول ابن بطوطة هنا : « وتلك هى الفتوة أيضاً » : أى أن نظام الأخية كان تجديداً لنظام الفتوة ، « وهذا الأخى أى رئيس الجماعة من المتطوعين لحماية الناس يجمع من أهل حرفته مالاً بصورة منتظمة ، ويبنى به زوايا يجعل فيها الفُرُش والسُّرُج وما يُحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم » ، أى يساعدهم فى القيام بشئون حرفتهم بالمال والشفاعة لدى الحكام والحماية من الأذى ، يقول ابن بطوطة : « ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ثم يجتمعون بعد ذلك ، فيأكلون معاً ويغنون ويرقصون رقص الدراويش المعروف ، فإذا كان هناك غريب طارئ على البلد أشركوه فى ذلك كله » .

كل المؤسسات والتنظيمات النافعة فى تاريخ الأمة الإسلامية من ابتكار جماهير الناس

وهذا دون شك تنظيم اجتماعى وسياسى على جانب كبير من الأهمية ابتكرته الجماعة الإسلامية لحماية نفسها من أذى الأشرار ومن الظالمين من رجال الحكم . وجدير بالذكر أن كل المؤسسات والتنظيمات النافعة فى تاريخ الأمة الإسلامية إنما هى من ابتكار جماهير الناس : وكانت إقامتها وإعداد الرجال الذين يقومون بها من اختصاص الأمة

لا الحكومة ، ومن ذلك التشريع والقضاء والتعليم وعلوم الحياة كالطب والصيدلة والفلك وما إلى ذلك . وهانحن أولاء نرى كيف كان نظام الأخية نظاماً شعبيًّا أنشأه ، أفراد الشعب للقيام بواجبات عجزت الحكومات عن القيام بها .

ويقول ابن بطوطة إن الواحد منهم يسمى بالفتيانى ، أما مقدمهم — أى رئيسهم — فيسمى بالأخى ؛ والجماعة كلها تسمى بالأخية الفتيان ويقول : «ولم أر فى الدنيا أحسن أفعالا منهم ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ، إلا أن هؤلاء — أى أخية بلاد الروم — أحب فى الوارد والصادر ، أى أحب من غيرهم لمن يرد عليهم ويصدر عنهم من الغرباء وأبناء السبيل ، وأعظم إكراماً له وشفقة عليه » .

ثم يعطينا ابن بطوطة مثالاً من كرم أولئك الأخية وأريحيتهم ، فيروى كيف أن مقدماً من مقدَّميهم لا يبدو عليه غنى أو يسار استضافه وأصحابه فى زاويتهم ، «وهى زاوية حسنة ، مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى . ويذكر أنه كان بالزاوية خمسة من البيسوسات ، جمع بيسوس ، وهو مصباح شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث ، وعلى رأسه شبه جلاس أى غطاء مثقب من النحاس ، وفى وسطه أنبوب للفتيلة ، ويملأ من الشحم المذاب ، ويُوَكَّل أحدهم بالبيسوس لإشعال الفتيل وإصلاحه . ثم يصف كيف قدموا لهم طعاماً حسنًا ، ثم اصطفوا وعلى رأسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقربهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ، ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردَخانى — وهو نوع من اللباد وسواه ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين » أى للضيوف (ص ٢٧٦) .

وبعد الطعام قاموا فرقصوا رقص الدراويش أو المولوية ، وهو أن يدور كل منهم على نفسه ، ويدور مع الجماعة فى الوقت نفسه حول المجلس ، ويتقدمون واحداً فواحداً إلى منتصف الدائرة فيدور حول نفسه فى سرعة ينتشر بها ثوبه كأنه مظلة واقية من السقوط .

جماعة الفتوة

وهذا الرقص الذى استحدثه دراويش الأتراك زيادة من الزيادات التى أدخلها

الأتراك – أو التركمان – على نظام الفتوة الذى ظهر فى العراق وبغداد خاصة فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر محاولة من أهل الهمة والتقى والورع لإيقاف التدهور العام الذى شمل الدولة العباسية إذ ذاك .

وكان الداعون إلى تلك الحركة يتعاهدون على « الامتناع عن الأذى والعطاء دون سؤال والانقطاع عن الشكوى ، واتخذوا لأنفسهم لباساً خاصًّا يسمى بسراويل الفتوة أو بلباس الفتوة ، ورصدت هذه الجماعات نفسها لحرب الذُّعار واللصوص وحماية الناس من أذى الجند ، وكان تنظيمهم يجرى على نظام الطرق الصوفية ، وقد تسموا أحياناً بالمجاهدين فى سبيل الله »

وقد تحدث عنهم ابن الأثير فى تاريخه وكذلك ابن جبير فى رحلته . وفى سنة **١١٨٢م** انضم الخليفة العباسى الناصر إلى حركة الفتوة ولبس سراويلها فى حفل كبير ، وأصبح راعيها وصار يلبس رجاله ومن يرضى عنهم سراويلها . وفى أيامه أزهرت الحركة وقامت بالفعل بدور إيجابى فى إصلاح الأحوال فى بغداد نوعاً ما ، ثم أنشأت جماعة الفتوة لها تاريخاً قديماً جعل أول رجالها الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأضيف إلى مراسيمها الشرب من كأس : يسمى كأس الفتوة . وقد اضطرب نظام الحركة بعد الخليفة الناصر .

ويصف لنا ابن بطوطة إمارة أنطالية وصفاً مفصلاً ، ويتحدث عن سلطانها خضر بك بن يونس بك ، ويقول : إن الناس هناك لايتحدثون إلا بالتركية .

ومن هناك مضى شمالاً ثم شرقاً إلى بُرْدود ثم سَبَرْتا ثم أكوشهر ، ثم يتجه غرباً إلى جل حصار ثم إلى مدينة آق ريدور ويقول : ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين إلى أقشهر وبيشهر وغيرهما من البلاد . وهذه البحيرة معروفة واسمها اجردير – جول ، وإلى جوارها بحيرة أخرى تسمى كيريلى جول ، وهى التى يسميها ابن بطوطة بيشهر . وقد ذهب المستشرق دفرمرى فى تعليقاته على هذا الجزء من رحلة ابن بطوطة إلى أن أقشهر التى ذكرها ابن بطوطة هنا ليست البحيرة المعروفة بذلك الاسم ، بل هى مدينة أوشار أو آقشار إلى جوار بحيرة إجرِدير جول وهى التى نزل بمدرستها ،

وعرف شيخها مصلح الدين الذى «أكرمنا غاية الإكرام وقام بحقنا أحسن قيام» (ص ٢٧٧).

وأمثال هذه التفاصيل التى تأذن لنا فى أن ننفذ إلى داخل الجماعة الإسلامية ونرى ماذا تفعل ؟ وكيف تعيش ؟ وماذا تأكل ؟ وكيف كانت تنظم نفسها ؟ هذه التفاصيل لا نجدها إلا عند ابن بطوطة ونفر قليل آخر من الرحالة والكتاب مثل ابن جبير والمسعودى والجاحظ إلى حد ما ؛ لأن بقية كتّاب العرب فى العصور الوسطى كانوا يحسبون أن حياة الناس اليومية ونظمهم الاجتماعية كانت لا تستحق الكتابة أو الوصف ، ومن ثم فنحن مقدرون لابن بطوطة هذا الفضل ، فنحن معه نعيش مع الناس وفى الناس ، ونحن نجالسهم ونؤاكلهم ونشاركهم فى إحساسهم وذوقهم ، ولسنا نعرف بين مؤلفينا من ذكر لنا من أوصاف البيوت والملابس والأطعمة والأشربة مثلما فعل هذا الرجل الطلعة الذى لا يفوته شىء ، ولا يستريح حتى يأخذ بقارئه معه ويشركه فيما يرى ويسمع ويأكل ويشرب .

وتلك هى الفضيلة الكبرى لهذا الرجل النادر ورحلته التى لاتقدر قيمةً ، فهى صورة أمينة لمجتمع الإسلام فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وذلك حسبها .

٢٤

إمارات الغزاة

إمارات الغزاة التى زارها

يعجب ابن بطوطة ببلاد الروم ، وهى آسيا الصغرى التى قامت فيها إمارات الأتراك والتركمان التى تسمى بإمارات الغزاة ، وقد أتينا بصورة من ذلك الإعجاب ، ويستمر ثناؤه لما زاره من هذه الإمارات وهى أنطالية وأكريدور وقل حصار ولاذق وميلاس ، وقونية عاصمة سلاطين سلاجقة الروم ، ولارندة وبَرْكى ومغنيسيا وبَرغامة وبَكِى كسرى وبُرُصّا التى نسميها بروسة ، وينطقها الروم بورسة التى ستصبح عاصمة للدولة العثمانية فى مرحلة من مراحل تاريخها ، وكَرَدِى بولى وقصطمونى .

ومن هذه الأخيرة يتجه ابن بطوطة إلى سينوب على البحر الأسود ، ويبحر منها إلى مدينة قارْش فى بلاد القرم مغادراً بذلك بلاد الروم وداخلاً فى مرحلة جديدة طريفة من مراحل رحلته الممتعة الحافلة بالأحداث .

عبور البحر الأسود إلى القرم

خلال هذا التنقل المتصل فى آسيا الصغرى ، وهى بلاد الروم ، يقول لنا ابن بطوطة : معلومات ذات قيمة أكبر عن هذه الإمارات التى قامت بدور جليل فى تاريخ الإسلام ، ولم يؤرخ لها أحد على نحو يعرفنا تعريفاً كافياً بأحوالها وأحوال حكوماتها وشعوبها وتنظيماتها ، ومن حسن الحظ أن ابن بطوطة – كعادته – يعطينا معلومات طيبة عن الحكام والشعب معاً : فهو يتحدث عن الأمراء – ويسميهم السلاطين – ومن يحيط بهم من رجال الدولة ، ثم يتحدث بتفصيل عن أحوال الناس الذين كان يعيش بينهم ويعاملهم . وسنأتى من ذلك كله بنماذج تكفى تصوير أحوال هذه البلاد وأهلها ، وتعطينا فكرة عن طريق ابن بطوطة الفريدة فى سياق رحلته .

قلنا : إنه يسمى أمراء هذه الإمارات بالسلاطين ، ونضيف هنا أنهم كانوا جميعاً يحملون لقب بك ، وهو يقول : إن بك معناه الملك ، فيقول مثلاً : إن سلطان أنطاليا

الروم النصارى

هو خضر بك ، وسلطان أكريدور هو إسحق بن الدِّندار بك ، وسلطان قل حصار هو محمد جلبي وتفسيره بلسان الروم سيدى ، وسلطان لاذق هو ينتج بك وهكذا .

وهو يثنى على هؤلاء السلاطين جميعاً ، ويذكر أنه لقى منهم البر والرعاية والإكرام .

وكان ابن بطوطة ينزل فى الزوايا والمدارس فى تلك البلاد كلها ، وهو يثنى على هذه الزوايا وتلك المدارس ، ويقول : إن القائمين بأمر الزوايا وإكرام الناس فيها هم الأخية ، وهو يحدثنا عن تنافسهم فى إكرام الضيوف ومايقدمون لهم من الأطعمة والفواكه والحلوى .

وعندما يصل إلى لاذق يقول : إن الروم فيها كثيرون ، ويريد بهم نصارى الروم من أهل البلاد الأصليين ، ويقول : «وعلامة الروم بها القلانس الطوال ، منها الحمر والبيض . ونساء الروم لهن عمائم كبار .

قونية

ومن لاذق ينتقل إلى قونية عاصمة سلاطين سلاجقة الروم ، وكان أمرهم قد ضعف حتى أصبحت قونية تحت سلطان بدر الدين بن قَرَمَان أمير لارَندة التى ستُعرف بعد ذلك بإمارة قَرَمان .

وابن بطوطة يعجب أشد الإعجاب بقونية ، ويصف شوارعها الواسعة الجميلة وعمارتها الحسنة وأسواقها البديعة الترتيب «وبها المشمش المعروف بقمر الدين ، وقد تقدم ذكره ، ويحمل منه أيضا إلى ديار مصر والشام» ويقول : «نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه ، وهو من الفتيان ، وزاويته من أعظم الزوايا ، وله طائفة كبيرة من التلاميذ ، ولهم فى الفتوة نسب يتصل إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة .

جلال الدين الرومى الشاعر

وهنا يتحدث ابن بطوطة حديثاً مستفيضاً عن جلال الدين الرومى الشاعر الفارسى المشهور ، وأصله من قونية ، ويذكر أنه كان فى ابتداء أمره فقيهاً مدرساً يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونية ، ثم اختفى بعض الوقت فى خبر غريب يذكره ابن بطوطة ثم يقول : «ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لاينطق إلا بالشعر الفارسى المنغلق الذى لايفهم ، فكان الطلبة يتبعونه ، ويكتبون عنه ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا

منه كتابا سمى « المثنوى » وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرءونه بزواياهم فى ليالى الجمعات »(ص ٢٨٣)

ومن قونية يتجه إلى لارندة ثم إلى أقصرا — وهى آق سراى — ومنها إلى نَكْده ، وهاتان المدينتان — أقصرا ونكده ، كانتا كما يقول فى طاعة ملك العراق ، ومنها إلى قيصرية ، وهى أيضاً من توابع ملك العراق ، وكان لملك العراق هذا نائب فى آسيا الصغرى يسمى الأمير أرتَنَا .

طُغى خاتون

وفى قيصرية لقى ابن بطوطة إحدى خواتين — أى نساء — الأمير أرتَنَا واسمها طُغَى خاتون وتحمل لقب أغا ، ومعنى أغا : الكبير ، والخاتون هو اللفظ التركى الذى حرف إلى خانوم فى الشام وهانم فى مصر . يقول : « ونزلنا من هذه المدينة بزاوية المفتى الاخِى أمير على ، وهو أمير كبير من كبار الأخية بهذه البلاد ، وزاويته من أحسن الزوايا فرشا ، ومن عوائد هذه البلاد أنه ماكان منها ليس به سلطان فالأخى هو الحاكم به ، وهو يُركِبُ الوارد ويكسوه ويحسن إليه .

زاوية أمير على

دار السيادة

ومن قيصرية ينتقل إلى سيواس ، وهى أيضاً من أملاك ملك العراق ، وبها منزل أمرائه وعماله . وبها —كما يقول — دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لاينزلها إلا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها ، وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودُون إذا انصرفوا » .

أماصية أولاد أبى العباس أحمد الرفاعى

ومن سيواس ينتقل ابن بطوطة إلى أماصية ، وهى تابعة لملك العراق كذلك ، ويقرب منها بلدة سُونْسِى ، « وبها سكنى أولاد ولى الله تعالى أبى العباس أحمد الرفاعى ، منهم الشيخ عز الدين ، وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعى وله ثلاثة إخوة .

وقد نزل ابن بطوطة بزاويتهم ، ثم مر ببلاد كمس وأرزنجان وأرز الروم وأثنى على هذه الأخيرة ثناء طويلاً ، ثم انصرف إلى بِركِى أو بِرجى ، وسلطانها محمد آيدين ، وقد وجده ابن بطوطة مهموماً بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان إلى صهره السلطان أورخان بك . وتلك هى أول مرة يرد فيها ذكر أورخان ثانى أمراء الغزاة من بنى عثمان ، ومن أورخان هذا سينحدر جميع سلاطين آل عثمان فيما بعد ، وقد أهدى له هذا السلطان

أورخان جد سلاطين آل عثمان

خاركاه ، وهى الخيمة التركية ، ويصفها ابن بطوطة بقوله : « وهى عصا من الخشب تجمع شبه القبة ، وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادَهَنج ، ويسد متى احتيج إلى سده وقد أقام ابن بطوطة عند ذلك الأمير فى مصطافه فى الجبل حتى سئم المقام فى الجبل ، فعجل السلطان بالنزول إلى قصره فى المدينة ، ويطنب ابن بطوطة فى وصف هذا القصر وفخامته وما قدم له فيه من صحاف الذهب والفضة مملوءة بالجُلاَّب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون ، وجُعل فيه كعكات صغار مقسومة ، وفيها ملاعق ذهب وفضة !

ونحن ندهش كيف انتقل ابن بطوطة من أماصية إلى برجى أو برجين قاطعاً بذلك معظم آسيا الصغرى عرضاً دون أن يمر بمدينة يذكرها ، وقد يكون قد عاد أدراجه من أماصية إلى سيواس إلى قيصرية حتى وصل إلى برجى قرب ساحل البحر الأبيض غير بعيد من أزمير التى يسميها يزمير وسيتحدث عنها بعد قليل .

فى إمارة الأتراك العثمانيين

وبدخوله برجى يكون قد دخل أرض الأتراك العثمانيين أيام الأمير أورخان ، وحديثه هنا على أكبر جانب من الأهمية ، لأنه من أقدم مالدينا عن أوليات الأتراك العثمانيين ، فهو يصف لنا مدناً كانت إلى حين قريب نصرانية ، ثم دخلت الإسلام على أيدى غزاة الأتراك العثمانيين ، مثل تيرة التى يقول : إن مسجدها من أبدع مساجد الدنيا ، وكان أصله كنيسة فحول إلى جامع ، وأمير تيرة هو الأمير خضر بك بن السلطان محمد بن آيدين وهذا بدوره صهر أورخان .

أزمير

ومن تيرة يصل إلى إزمير ويسميها يزمير ، ولقى بخارجها الشيخ عز الدين أحمد الرفاعى ومعه الشيخ زادة الأخلاطى ومعه مائة فقير من الأحمدية الرفاعية المولهين . وأمير ازمير هو الأمير عمر بن الأمير محمد بن آيدين ، وهو يطنب فى مديح محمد هذا ، ويذكر حماسه فى مغازاة النصارى والاستيلاء على بلادهم حتى رفعوا أمرهم للبابا ، فدعا إلى حرب صليبية ضده . وسار نحو أزمير أسطول جنُوىّ فرنسى بيزنطى ، وطرقوا المدينة ليلاً ، فخرج إليهم الأمير عمر بن محمد بن آيدين فاستشهد .

والواقعة حقيقة تاريخية ، سقطت فيها ازمير فى يد النصارى سنة ١٣٤٤ بمعاونة فرسان القديس يوحنا أصحاب جزيرة رودس . وسيظلون فيها حتى يقضى عليهم

السلطان المملوكى بارسباى ، ويستولى على الجزيرة ، وتظل إسلامية إلى آخر أيام الدولة العثمانية ، عندما يسلمها الحلفاء لليونان بعد هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى .

على أى حال ففى الوقت الذى كان فيه نفسه ابن بطوطة على ساحل البحر الأبيض – كان أمراء آل عثمان يستولون على بلاد الدولة البيزنطية هناك واحدة فواحدة ، **فقد سقطت بروسة سنة ١٣٢٦م ونيقية سنة ١٣٢٩م .**

ثم يسير إلى مغنيسية ثم برغامة ثم إلى بولى كسرى ثم بروصة ، وفى أثناء مقامه بها وصل إليها السلطان أورخان بك ثم إلى كَرِدِى بولى ثم قصطمونية ثم إلى صنوب ، وهى سينوب ؛ ليعبر إلى بلاد القرم ، وهو فى أثناء ذلك يقص أخباراً عجباً لا يتسع لذكرها هذا العرض السريع .

ويستوقف انتباهنا من أوصاف ابن بطوطة لبلاد الروم ظاهرتان جديرتان بالتنويه بالإضافة إلى ماذكرناه من أحاديثه الممتعة عن أمراء هذه البلاد وفضائلهم وكلامه عن جماعة الأخية الفتيان .

الظاهرة الأولى : هى مكانة العلماء فى هذه البلاد ، وماكان بينهم من علاقات المودة على اختلاف مواطنهم ومناشئهم :

فهو عندما نزل علايا لقى قاضيها الشيخ علاء الدين ، ورأى من علمه وفضله وبره وكرمه الشيء الكثير ، وهذا الشيخ عراقى ، ولكن أهل البلاد يكرمونه ويبجلونه وينظرون إليه وكأنه رئيسهم وصاحب الرأى فيهم ، وهناك أيضا لقى الشيخ شمس الدين الرجيحانى ، وكان عالماً جليلاً ، وكذلك كان أبوه ، وكانت للأب صلات دقيقة مع بلاد أفريقية الغربية الإسلامية ، وقد توفى فى مالى ، وفى إسكى شهر يَلْقَى الشيخ مصلح الدين الذى درس فى مصر والشام والعراق ثم هاجر إلى بلاد الروم ، واستقر فيها يعلم ويفتى ، ويعجب به ابن بطوطة ويصفه بأنه «أطروفة من طرف الزمان . وفى كردى – بولى لقى الفقيه شمس الدين الحنبلى وأصله من دمشق ولكنه عاش وعُلِّم فى بلاد الروم ، وكان محترماً موقراً من كل الناس ، وكانت له كلمة مسموعة عند السلطان ، إذ إنه كان خطيبه ومعلمه ، وفى بورصة (بروسة) يَلْقى الشيخ الصالح عبد الله المصرى ، وهو شيخ رحالة يقول عنه ابن بطوطة : «جال الأرض ،

إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا أندلس ، ولا بلاد السودان ، وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم[١] فكأن ابن بطوطة يقارن بين هذا الشيخ وبين نفسه ، ويرى أنه أفضل .

والملاحظة الأخرى التى استوقفت نظر ابن بطوطة – ونظرنا أيضا – هى حرية النساء فى بلاد الروم ، وماكن يتمتعن به من حرية العمل والحركة : فقد وجد أن النساء التركيات يقمن بمعظم الصناعات اليدوية فى «كوتاهية» قرب «قونية» فهن اللاتى كن يقمن بأعمال نسيج القطن المعلم بالذهب . وكانت إحدى زوجات أمير «قيسارية غير محجبة ، وكانت من أذكى الناس وأكرمهن وأحسنهن خلقاً» . وقد دخل عليها ابن بطوطة مع صحبه فسلموا عليها ، وأمرت لهم بطعام ، ولما انصرفوا بعثت إليهم بهدية : فرس ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت عن التقصير .

وفى بزنيق (إزنيق) وجد ابن بطوطة أن الخاتون زوج الأمير هى التى تحكم المدينة ، وهو يصفها بالفضل والصلاح ، ويقول : إن الكثيرات من نساء الترك يركبن الخيل ويعرفن الفروسية . ويصف بعض أعمال الفروسية التى كانت نساء الترك يقمن بها[٢] .

(١) انظر : محمود الشرقاوى : رحلة مع ابن بطوطة القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٦٠ .
(٢) راجع : محمود الشرقاوى ، المرجع نفسه ص ١٦١ .

٢٥

فى بلاد مغول القفجاق

مواطن القفجاق

وظل ابن بطوطة فى صنوب – وهى ميناء سينوب التركى – على البحر الأسود أربعين يوماً فى انتظار سفينة تنقله إلى بلاد القرم . ومع أنه سمع أحاديث كثيرة عن خطورة الرحلة لقطع البحر الأسود من الجنوب إلى الشمال ، فإنه ظل ينتظر الفرصة المواتية فى صبر حتى أتيحت له فرصة العبور ودخل بلاد القفجاق .

وعندما أتيحت له هذه الفرصة ، ووفق إلى مركب للروم يزمع العبور إلى بلاد القرم – اضطر إلى الانتظار أحد عشر يوماً أخرى حتى تجىء ريح مساعدة ، فلما جاءت وركب البحر ومضى فيه ثلاث ليال ، « هال علينا واشتد بنا الأمر ورأينا الهلاك عياناً » ثم اضطروا إلى العودة إلى ميناء سينوب .

وبعد انتظار أيام ركب البحر ، وتكرر هيجان البحر ، فارتد مرة أخرى إلى سينوب ، وقد صرف الكثيرون من الركاب – ومعظمهم تجار – النظر عن هذه السفرة الخطرة ولكن ابن بطوطة – وماهو بتاجر ولا طالب رزق – أصر على العبور .

وتمكن أخيراً من قطع البحر الأسود والاقتراب من ميناء قارش فى نهاية البرزخ المفضى إلى بحر آزوف . وقد تخوف الركاب من النزول إلى البر لشىء رابهم ، ولكن ابن بطوطة غامر بنفسه وطلب إلى الربان أن ينزله فى موضع من البر قريب من المدينة فأنزله .

وهكذا نزل الرجل وحده على ساحل غريب مخوف . وهذا واحد من البراهين الكثيرة التى نمر بها فى هذه الرحلة ، والتى تنطق بأجلى بيان بحب الرحلة المتأصل فى نفس هذا الرجل ، وشوقه إلى رؤية كل ماتتيسر له رؤيته من نواحى الأرض ومن عليها وماعليها مغامراً بنفسه فى كل حالة .

خانية مغول القفجاق واتساعها

وبلاد القرم التى نزلها ابن بطوطة كانت تابعة لخانات القفجاق التى تسمى أيضاً بدولة القطيع الذهبى ، وهى إحدى الدول الأربع التى تقسمت إليها دولة المغول الكبرى خلال القرن الثالث عشر الميلادى .

وكانت دولة خانات القفجاق هذه ، وهى أقصى دول خانات المغول غرباً — تنقسم قسمين يجمعهما سلطان واحد ، وهما : القطيع الأزرق والقطيع الأبيض ، وكان هذا القطيع الأخير يتمتع باستقلال وسلطان محلى فى أراضيه .

ولكن السيادة والقوة كانت فى القطيع الأزرق الذى كان يسود البلاد التى بين المجرَيَيْنِ الأدنيين لنهرى الدون والفولجا ، وكان سلطانهم يشمل نواحى كييف والقوقاز ، ويمتد إلى بحر آرال وجنوة ، أى الأراضى الممتدة شمال بحر آرال وبحر قزوين والبحر الأسود ، والممتدة شمالاً إلى كييف وجنوباً حتى تشمل بلاد القوقاز كلها ، فهى على هذا كانت دولة منْ الدول الكبرى تحكم مساحات من الأرض واسعة .

ومسألة القطعان هذه مابين ذهبى وأسود وأزرق تسمية رمزية اتخذتها فروع القبائل المغولية نسبة إلى لون فراء قطعان الغنم التى كانت ترعاها وتتخذ منها الصوف الذى تصنع منه خيامها ، فهذه ذات خيام بيضاء ، وتلك ذات خيام زرقاء ، وهذه صفراء ، وذلك هو المراد بالذهبى .

وكانت قبائل القطيع الأزرق التى نزل ابن بطوطة أرضها مسلمة فى ذلك الحين ، وإن كانت غالبية سكان البلاد التى تسيطر عليها نصرانية ، وكان يحكم خانية مغول القفجاق فى الوقت الذى دخلها ابن بطوطة فيه السلطان محمد أوزبك الذى حكم فيما بين سنتى ١٣١٢م و ١٣٤٠م .

ومن أسف أن ابن بطوطة يهمل كثيراً ذكر التواريخ ، فآخر تاريخ ذكره فى سياحتنا هذه كانت سنة ٧٣٢هـ /١٣٣٢م عندما حج حجته الثالثة ، ومن الحجاز بدأ الرحلة التى نحن بصددها التى مر فيها ببلاد آسيا الصغرى ، وانتهت به الآن إلى بلاد القرم فى خانية مغول القفجاق ، والغالب أنه كان هناك فى سنة ٧٣٤هـ /١٣٣٤م .

مصير خانية مغول القفجاق

نزل ابن بطوطة إذن أرضاً إسلامية ، ولكن النصارى فيها كثيرون . ومن الواضح أن دولة خانية مغول القفجاق هذه لو أتيح لها العمر الطويل لأصبحت هذه البلاد التى

ذكرناها بلاداً إسلامية خالصة بصورة نهائية وخاصة إذا ذكرنا أن الأتراك العثمانيين كانوا إذ ذاك قد ملكوا الجزء الغربي من آسيا الصغرى ، وجعلوا عاصمتهم فى بروسة وبدءوا عبور بحر إيجة لغزو أراضى الدولة البيزنطية فى شبه جزيرة المورة :

أى أن الإسلام كان يطبق شيئاً فشيئاً على مابقى من الدولة البيزنطية ليزيلها من الوجود سنة ١٤٥٣م ، وينشر راياته على قلب مايعرف الآن بروسيا ، ولكن دولة خانية القفجاق هذه كانت دولة بدو ، ودول البدو قصيرة الأعمار كما نعلم ، فلم يلبث أمر سلطنة محمد أوزبك أن انتثر بعد موته .

إمارة كييف : مهد الروسيا

وضعفت قبضة الإسلام على هذه النواحى ، وإن ظل يتوسع فيها وينتشر بين أهلها ، ولكن الأمر كان يتطلب سلطاناً سياسيا يشد أزر العقيدة . ومن تصاريف القدر أن دولة إيلخانات القفجاق ماكاد ينتثر نظامها حتى بدأت إمارة كييف فى النهوض ، وهى إمارة نصرانية ، وهى نواة الدولة الروسية الصقلبية التى سيعظم أمرها مع الزمن .

وعندما نصل إلى القرن السادس عشر ، وهو القرن الذى بلغت فيه دولة آل عثمان أوجها السياسى والعسكرى وبسطت سلطانها على بلاد القرم ومصب الفولجا كانت دولة كييف هى الأخرى فى أوج توسعها ، فشملت معظم حوضى الفولجا والدون وامتدت حتى البحر الأبيض القطبى فى الشمال ، وأخذت تتأهب لخوض المعركة الطويلة مع الأتراك العثمانيين ، وهى فى صميمها معركة بين الإسلام والنصرانية .

وقد انتهت — نتيجة لعوامل شتى — بالسيطرة الكاملة للروس على كل بلاد المسلمين الممتدة من بحر آزوف إلى بحر آرال ، ثم بلاد ماوراء النهر التى كانت منذ أيام قتيبة بن مسلم العظيم قاعدة من قواعد الإسلام وحضارته .

كان ذلك استطراداً لابد منه ، حتى نستبين أين نضع أقدامنا فى هذه الرحلة الممتعة الحافلة بالغرائب التى يقودنا فيها ذلك الرجل العجيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة .

هل هذه أول مرة يسمع فيها نواقيس كنيسة ؟

فى طريق ابن بطوطة إلى قارش — التى يسميها مدينة الكَرش — يقص خبراً لطيفاً يقول فيه : « ورأيت كنيسة فقصدتها ، فوجدت بها راهباً ، ورأيت فى أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربى عليه عمامة ، متقلداً سيفاً ، وبيده رمح ، وبين يديه سراج

يوقد ، فقلت للراهب : ماهذه الصورة فقال : هذه صورة النبى على ! فعجبت من قوله » .

ويقول ابن بطوطة إن الأرض التى نزلها تسمى بدَشْت قفجق ، « والدشت — كما يقول — بلسان الترك هو الصحراء » ، وهذه الصحراء خَضِرة نَضِرة ، لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب : أى أنها منطقة سهوب وحشائش طويلة : أى منطقة سفانا .

بلدة كافا أو فيودوسيا

ثم اكترى مع أصحابه عجلة — أى عربة — حملتهم إلى مدينة الكفا Caffa وهى التى تسمى الآن فيودوسيا Feodosia فى بلاد القرم. وكانت قد تهدمت ، فأعاد بناءها الجنويون فى القرن الثالث عشر ، واتخذوها قاعدة لتجارتهم فى البحر الأسود وبحر آزوف ، ولهذا فقد وجدها ابن بطوطة مدينة نصرانية فيها أقلية من المسلمين .

وقد دهش ابن بطوطة لأمرين لانرى أنهما كانا يستحقان هذه الدهشة ! الأول أنه هاله سماع أصوات نواقيس النصارى ، ومن الغريب أنه يقول : « ولم أكن سمعتها قط » ! وهذا أمر مستغرب من رحالة كهذا . وقد أراد ابن بطوطة أن يسكت أصوات النواقيس ، وطلب إلى أصحابه أن « يصعدوا إلى صومعة النواقيس ، أى برج الأجراس ، ويقرءوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا » وكاد الأمر يؤدى إلى غضب النصارى ، وهم أصحاب البلد ، لولا أن قاضى المسلمين أسرع إلى ابن بطوطة وأصحابه وصرفهم عما كانوا يريدونه .

ويصف ابن بطوطة ميناء كافًا بأنه من أعمر موانٍ فى الدنيا ويقول : إنه رأى فى مراسيها نحو مائتى مركب ، وهذا يدلنا على اتساع النشاط البحرى للجنويين .

والأمر الآخر الذى أدهشه هو شيوع استعمال العجلات — أو العربات فى التنقل والحمل ، وهو يصف العجلات وصف من لم يكن رآها من قبل ، ويقول : إنها تجرى على بكرات ويجرها الفَرس والفَرسان وأكثر ، وقد تجرها البقر والجمال . « والذى يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرها ، ويكون عليها سرج وفى يده سوط يحركها به للمشى » (ص٣١١)

وكانت العجلات معروفة فى عالم الإسلام ، ولكن كلام ابن بطوطة يدل على أن

استعمالها كان محدوداً . وهذا صحيح بدليل أن أكثر عربات النقل الشائعة فى بلاد مصر مثلاً تحمل اسمها الإيطالى «كارو Carro » وقد دخلت مصر فى القرن التاسع عشر .

ويصف ابن بطوطة هذه العربات وصفاً نفهم منه أنها كانت تشبه مايسمى بالعربة المغطاة Covered Wagon التى كانت تستعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية . وقد اكترى هو عربة لركوبه مغشاة أى مغطاة باللبد «ومعى بها جارية لى» . واكترى أصحابه عربات وساروا فى صحبة الأمير تُكُلتُمور حاكم مدينة القرم باسم السلطان محمد أزبك ، ومضوا يقطعون دشت قفجاق ، أى صحراء القفجاق .

وهكذا ننطلق مع هذا الرجل من عالم إلى عالم ، ونستمتع بما يطرفنا به من كل جديد غريب . منها نحن اليوم فى دشت قفجاق « وهى ليست على الحقيقة صحراء ، وإنما هى بلاد أعشاب طويلة تصلح للمرعى ، وتكثر بها الخيول والعجلات ، وكانت المنطقة إذ ذاك خالية أوكالخالية ، وما كان يدور بخلد ابن بطوطة أن الزمان سيدور وأن هذه الأرض ستعمر ، وتصبح بلاداً غنية بالمدن ومراكز الصناعة ، فنحن هنا فى قلب مايعرف اليوم بالاتحاد السوفيتى ، فيما يعرف بجمهورية قازاكستان وامتداد الأرض غرباً إلى شمال بحر قزوين ومصب الفولجا ، نحن على الحافة الشمالية لعالم الإسلام فى ذلك العصر ، وما كان أحد ليحفل بهذه البلاد أو يسمع عنها من المسلمين اللهم إلا رجلاً مثل هذا المغامر الفريد الذى آلى على نفسه أن يذرع بلاد الإسلام كلها بالطول والعرض ، من حافاتها الشمالية هنا إلى حافاتها الجنوبية عند بلاد أفريقية المدارية والأستوائية ، ومن المغرب إلى الصين . وقد قام هذا الرجل بعمله هذا محتسباً صابراً يشعر بلذة المغامر الذى وجد ميدانه إيمان المسلم الذى تملأ السعادة قلبه وهو يجرى مدى شوطه فى عالمه الإسلامى الواسع ، ولايكاد يشارك ابن بطوطة فى هذا الطموح إلا رجلٌ مغامر مثله طموح مثله هو أبو حامد الغرناطى .

٢٦

مغول القفجاق الأتراك

مغول القفجاق الأتراك فى تلك النواحى

قضى ابن بطوطة فى بلاد مغول القفجاق وقتاً لانستطيع تحديده ؛ لأنه – كما قلنا – يهمل ذكر التواريخ . ولكننا نستنتج من تغير الفصل من الصيف إلى الشتاء فى أثناء مقامه أنه قضى فى هذه النواحى نصف عام على وجه التقريب ، ومنها انتقل إلى جنوبى روسيا ثم زار القسطنطينية ، ثم عاد إلى جنوبى الروسيا ومضى إلى خوارزم .

وقد لاحظنا أنه يصف أولئك المغول بأنهم ترك ، وهذا خطأ ، ولكنه خطأ مفهوم ، ولابن بطوطة عذر فيه : فإن القفجاق المغول كانوا هم الطبقة السائدة أو أهل الحكم كما نقول . وكانوا أهل الحرب أيضاً ؛ لأن أعدادهم كانت كثيرة ، ولكن القاعدة السكانية كانت تركية ، فهذه النواحى – شمال بحر آرال وقزوين والبحر الأسود – كانت أرضاً تركية من قديم الزمان ، وأهلها أتراك مسلمون تحضروا بحضارة الإسلام .

وعندما ساد المغول بلادهم كانوا لا يزالون على جانب كبير من القوة والصلابة المعروفتين فى الجنس التركى بصورة عامة ، ثم إنهم كانوا أرقى من المغول فى سلّم الحضارة نتيجة عيشهم الطويل فى المحيط الإسلامى ، ومن ثم فلم يستطع المغول سيادتهم سيادة تامة ؛ وإنما هم تأثروا بهم وتحضروا وقلدوهم فى العادات .

وتأثرت لغتهم بلغة الترك مع بعض الفارسية ؛ لأن الفارسية فى تلك النواحى كانت واسعة الانتشار بسبب انتشار الفرس فيها تجاراً أو معلمين أو فقهاء . فإذا كان ابن بطوطة قد عاش هناك فى بلاد يحكمها مغول قفجاق (أوقبشاق) – فقد كانت تركية السكان ذات حضارة عربية إسلامية فارسية ، ومن هنا جاء اختلاط الأمر عليه .

ولكن هذا الاختلاط لايقلل من أهمية كلام ابن بطوطة عن هذه النواحى ، فما

دمنا قد تنبهنا إلى حقيقة الأمر فلا بأس علينا فى أن نفيد من المعلومات القيمة التى يقد ها إلينا ابن بطوطة عن بلاد أولئك المغول القفجاق (أو القبشاق) وخاصة أنها معلومات فريدة فى بابها عن قوم أرادت صروف التاريخ أن يزولوا من الوجود ، فإن مغول القفجاق كانوا بدواً وعاشوا بدواً ، فلم تتأصل لهم جذور فى البلاد .

بلاد القفجاق ميدان الصراع بين الأتراك والروس

ثم إنهم عاشوا فى بلاد ستصبح بعد قليل مجال صراع بين قوتين ضخمتين كانتا عند زيارة ابن بطوطة مازالتا فى دور التكوين :

الأولى هى قوة الأتراك العثمانيين التى ستتزايد مع الزمن حتى تسود شرقى أوروبا وبلاد القرم وجانباً كبيراً من بلاد القوقاز والأراضى الممتدة شمال بحر قزوين .

الأخرى هى قوة الصقالبة الروس التى ستتوسع مع الزمن الطويل حتى تشمل كل حوضى الفولجا والدون وشمال بحر الخزر أو بحر قزوين ، وكل بلاد التركستان ، وهذه هى بلاد مغول القفجاق الذين عرفهم ابن بطوطة وأتانا بنبئهم قبل أن يقضى الله فى أمرهم قضاءه .

اهتمام ابن بطوطة بالحياة اليومية للناس

وقد أتينا ببعض مشاهدات ابن بطوطة وملاحظاته ، ونرجو أن نوجز الباقى فى هذا الحديث ، ويستوقف نظرنا فى كلام ابن بطوطة اهتمامه الشديد بما يهم المؤرخ من طعام الناس ولباسهم ومسكنهم ومركبهم وعاداتهم وما إلى ذلك مما يهمله عادة الكثيرون من مؤرخى تلك العصور .

ومن أمثلة ذلك قوله عن أمة الترك سكان تلك النواحى التى يزورها وهى تحت سلطان مغول القفجاق : « وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وإنما يصنعون طعاماً من شىء شبه الآتلى يسمونه الدوقى :

يجعلون على النار الماء ، فإذا غلى صبوا عليه شيئاً من الدوقى ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعاً صغاراً وطبخوه معه ، ويجعل لكل رجل نصيبه فى صحفة ، ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربون ، ويشربون عليه لبن الخل ، وهم يسمونه القُمِّز ، وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج » (ص ٣١٢)

والآتلى والدوقى المذكوران هنا صنفان من الحبوب شبيهان بالدخن ، وهى الذرة الصغيرة أو الشعير . والقمز شراب مسكر يصنع فى بعض بلادنا ، ويشرب ويسمى

البوزة ، وهى البيرة غير المصفاة ، ولهذا أنف ابن بطوطة من شربها .

مدينة آزاق

ومن مدينة القرم وصل ابن بطوطة إلى مدينة آزاق ، وهى المعروفة باسم أزوف على الطرف الشرقى الأقصى لبحر آزوف ، وقد امتدحها ابن بطوطة وقال : إن الجنويين كانوا يصلون إليها ويتاجرون فيها .

وقد لقى ابن بطوطة فيها فتى من الأخية يكرم الناس يسمى بُجْقَجِى ، واستقبله أميرها محمد خواجه الخوارزمى بتوصية من القاضى تُلكْتمور .

دقة ملاحظة ابن بطوطة

ويشمل التفات ابن بطوطة كل شىء من عادات الناس وتقاليدهم ، وقد ضربنا مثلاً من تفصيله الكلام عما يقدم إليه من الطعام ، فاسمع لما يقوله ضمن تفاصيل كثيرة يوردها عن حفل أقيم للأمير محمد خواجة الخوارزمى أمير آزاق : « وفى أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ، ثم أخذوا فى الغناء ، يغنون بالعربى ويسمونه القول ، ثم بالفارسى والتركى ويسمونه الملمع » وهذا كلام رجل دقيق الملاحظة مرهف الحس لاتفوته ملاحظة شىء .

الأكاديش : خيل المغول

ثم يتحدث عن الخيل ببلاد القفجاق ويقول : « والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا ، وثمنها نزر القيمة ، الجيد منها خمسون درهماً أو ستون من دراهمهم ، وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه .

وهذه الخيل هى التى تعرف فى مصر بالأكاديش ، ومنها معاشهم ، وهى ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر ، فيكون للتركى آلاف منها » .

والأكاديش جمع أكديش ، وهو نوع من الخيل هجين صغير الحجم ، لا يمتاز بقوة أو شدة احتمال ، وهى مذكورة فى مصر المملوكية ، ولا وجود لها الآن .

وهو يذكر أن هذه الخيل تصدر إلى الهند فيرجع ثمنها هناك ، لقلة الخيل فى الهند نظراً لقلة أراضى المراعى الصالحة لها .

وهو يقول : إن حكام الهند والسند يجبون عليها ضرائب ثم يقول : « ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير ؛ لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم ، وصرفها من الذهب المغربى خمسة وعشرون ديناراً ، وربما باعوها بضعف ذلك وضعفيه » (ص ٣١٥)

حرص ابن بطوطة على ذكر قيم العملات

ونلاحظ أن ابن بطوطة حريص دائماً على بيان قيمة عملة مايمر به من البلاد بالعملة المغربية فالخمسون أو الستون درهماً من صرف الترك قيمتها نحو دينار مغربى مرينى ، ومائة دينار دراهم من صرف الهند قيمتهاخمسة وعشرون ديناراً ذهبيا مغربيا .

ولا نعرف على أى أساس كان ابن بطوطة يقيم تقديراته تلك ؟ ولكننا نلمح فى ذلك ناحية جديرة بالتأمل فى تفكير هذا المغربى النابه .

الدينار المغربى المرينى أساس تقديراته

وجدير بالذكر أن عملة بنى مرين أيام ابن بطوطة كانت عملة سليمة صحيحة وزن الذهب ، وقد أقاموها على أساس من العملة المرابطية ثم الموحدية ، وكلتاهما كانت عملة صحيحة وافية الوزن ؛ لأن المرابطين ثم الموحدين تنبهوا إلى مصدر جديد للذهب ، وهو تبر بلاد السودان الأطلسى ، فبذلوا الجهد فى الحصول عليه ، وصححوا به سك عملتهم ، فصار الدينار المرابطى من أثبت العملات صرفاً ، وكذلك الدينار الموحدى عرف بصحة وزنه وسلامة عياره حتى زاد على وزن الدينار العربى ، وهو جرامان ونصف الجرام من الذهب فى المتوسط .

أما بنومرين فقد قل الوارد عليهم من الذهب ، ولكنهم عوضوا ذلك بما كانوا يتقاضونه من فديات أسرى النصارى بين أيديهم ، وكانت الفديات تدفع ذهباً ، وسيزيد ذلك أيام السعديين . فيكثر الذهب فى المغرب من تبر السودان ومن أموال الفديات معاً ، وبلغ الأمر أن لقب أحد سلاطين السعديين بالذهبى ، وهو أحمد المنصور الذهبى فاتح بلاد السودان الأطلسى .

ماجر وأستراخان

ومن هناك وصل ابن بطوطة إلى بلدة ماجر وتسمى اليوم بورجوماد زهرى Burgomadzhary وهى على نهر كوما إلى الجنوب الغربى من أستراخان وعلى ١١٠ كيلومترات شمال شرق جورجيفسك Georgiewsk وأستراخان على رأس دلتا نهر إتل وهو الفولجا . وكانت أيام ابن بطوطة بلداً إسلامياً . وقد وجد ابن بطوطة فى ماجر زاوية للرفاعية فيها نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، منهم المتزوج والعزب ، وعيشهم من الفتوح(١) .

---

(١) أى مما يفتح الله به عليهم دون عمل يقومون به .

احترام القفجاق للنساء .

ويتعجب ابن بطوطة من احترام أهل هذه البلاد للنساء وتعظيمهم لهن ، ويطيل الكلام فى ذلك صفحات ، ويصف هيئتهن وملابسهن من الأميرات إلى الفقيرات ، بل هو يصف نساء السلطان الأربع – وهن الخواتين – وصفاً مفصلا ، وقد لقيهن ، جميعاً ، ولقى منهن كرامة .

عظماء السلاطين فى عصره

ولقى كذلك السلطان محمد أوزبك خان سلطان مغول القفجاق ويصف سعة ملكه ، ويجعله بين سلاطين الدنيا العظام على أيامه ، وهم سلطان بنى مرين ، وسلطان مصر والشام ، وسلطان العراق ، والسلطان أوزبك ، وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين .

بلاد البلغار

ووصل ابن بطوطة إلى بلغار ، وكانت عاصمة دولة البلغار العظيمة التى قضى عليها المغول فى القرن الثالث عشر ، وكانت تقوم على الضفة الغربية لنهر الفولجا جنوب التقائه بفرعه كاما وكانت إذ ذاك مركزاً تجاريًّا عظيماً ، ولا ندرى كيف وصل ابن بطوطة من ماجر إلى بلغار فى عشرة أيام والمسافة بينهما ثمانمائة ميل : أى نحو ألف وأربعمائة كيلو متر ؟ .

ومثل هذه القفزات غير المفهومة عند ابن بطوطة كثيرة :

فقد رأيناه ينتقل من سفالة على الشاطئ الشرقى لأفريقية إلى ظفار على ساحل عمان دون أن يذكر لنا كيف قام بهذه الرحلة البحرية الهائلة ؟

ورأيناه ينتقل من أماصية فى شرقى الأناضول إلى برجى أو برجينى قرب ازمير على شاطئ البحر الأبيض عابراً آسيا الصغرى كلها دون أن نعرف كيف فعل ذلك ؟ وها نحن أولاء نراه يقطع ثمانمائة ميل من ماجر إلى بلغار فى عشرة أيام ، وهذا غير معقول !

وقد اتخذ بعض الباحثين أمثال هذه القفزات دلائل على عدم صدق ابن بطوطة فى بعض أجزاء رحلاته ، وقد يكونون على حق ؛ لأن مثل هذا الرجل قد يلجأ أحياناً إلى نقل أوصاف بعض البلاد من كتب أخرى أو يأخذ أوصافها من أفواه الناس ويدرجها فى كلامه زاعماً أنه رأى ذلك بنفسه ، وذلك لكى يستكمل رحلته ، ويلم أطرافها ، أو ليزيدها طرافة ، وذلك كله غير سليم ، ولكنه غير مستنكر ، فهذا رجل يصف الدنيا

كما رآها ، والكثير من معلوماته عن البلاد التى زارها مأخوذ بالسماع ، فالسماع هنا جزء من الرحلة ، وقلّ من كبار الرحالة من لم يفعل ذلك .

ومع ذلك فنحن – وقد صاحبنا هذا الرجل فى أسفاره ، وقرأنا رحلته مرة بعد مرة نستبعد الكذب أو التدليس على الرجل ، فهو رجل فاضل حسَن الخلق نقىٌّ ذو ورع ، ثم إنه لم تكن له حاجة إلى أن يكذب أو يدلس ، فإن المقطوع بصحة مشاهدته له مما يصفه يكفى أن يجعله من كبار الرحالة الذين عرفهم التاريخ .

ثم إننا نقول إن الخلط والنسيان أمران معقولان بالنسبة لرجل قضى قرابة ربع القرن فى الرحلة والجولان ، ومع أننا نقطع بأنه كان يدون مذكرات وملاحظات ، وبدون ذلك لايمكن أن نتصور كيف وعى تلك التفاصيل كلها فى ذاكرته ؟ وكيف قص الأخبار على هذا النسق العجيب ؟ وسنرى فى نهاية هذه الدراسة أن ابن بطوطة كتب بيده رحلته ولم يفعل ابن جُزَى أكثر من صياغتها فى قالب أدبى ؛ لأن ابن بطوطة كان رحالة متحدثاً مطرفاً ولم يكن أديباً ذا أسلوب .

٢٧
بلاد الظُّلْمَة

بلاد الظلمة روسيا أو سيبيريا

كانت رغبة ابن بطوطة أن يدخل « بلاد الظلمة » من بلغار ويقول : إن بينها وبين بلغار أربعين يوماً ، والأغلب أنه يريد بذلك بلاد الروس فى وسط مجرى الفولجا ، وربما أراد بذلك بلاد سيبريا ، ولكنه – على أى حال – أضرب عن ذلك « لعظم المئونة وقلة الجدوى » كما يقول .

والسفر إليها لايكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلايثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها فى الجليد (ص ٣٢٥) .

ويضيف أن « قيمة الكلب الجيد المقدم على غيره فى جر العجلة ألف دينار ونحوها . . وهذا الكلب لايضربه صاحبه ولا ينهره ، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بنى آدم وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف ! » .

تجارة الفرو

ويقول ابن بطوطة : إن خير تجارة لهذه البلاد هى الفرو وأحسن أنواعه القاقم ، وثمن الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار « وهى شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر ، وهو المعروف اليوم باسم المينك Mink أو الأرمين Ermine ، ويلى ذلك السمور ، تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها[١] .

(١) الأصح الفاقم ، بالفاء ثم القاف ، والمشهور فى الاسم الفقمة وهى كلب البحر ، وعندما تكون الفقمة رضيعاً تحت الأشهر الستة فى العمر تكون مغطاة بفرو ناصع البياض بالغ النعومة ، فإذا كبرت نفضته عن نفسها ، ونبت لها الجلد الغليظ ذو الشعر القوى الأسود اللامع ، ولهذا يخرج الصيادون لصيد أطفال الفقمة ، وإذا عثروا عليها قتلوها بالضرب بالخشب على رءوسها حتى تموت دون أن يفسد الجلد ، ثم يبادرون بسلخها ومعالجة جلدها حتى تظل فروته ناعمة . وشعرها كاملاً ، وتباع لصناع الفرو بالثمن الغالى لتصنع منه معاطف الفرو الأبيض أو المينك الرفيع القيمة . ويعرف هذا الفرو فى بعض النصوص العربية بالفنك (بفتح الفاء والنون) وكان أغلى الفرو فى العصور الوسطى أيضاً .

وتجنباً لمشاق هذه الرحلة – عاد ابن بطوطة مع الأمير الذى كان فى صحبته إلى محلة السلطان محمد أوزبك فى بلدة بيش داغ . وهى على ثلثى المسافة بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وكان ذلك فى ٢٨ من رمضان . ولم يذكر ابن بطوطة السنة ، ولكن الغالب أنه سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م .

أستراخان

ومن بيش داغ انتقل إلى مدينة الحاج تورخان ، وهى المسماة اليوم بأستراخان على ضفة نهر الفولجا ، ويقول ابن بطوطة : إنها منسوبة إلى حاج من الصالحين من الترك ، ويمتدحها ابن بطوطة ويقول ! إنها مقام السلطان حتى ينزل البرد بالناس ، فينتقل منها ؛ لأن الأرض تثلج والبرد يشتد .

وفى هذه المدينة أبدت الخاتون بايلون – أى زوجة السلطان – رغبتها فى زيارة أبيها ملك الروم لتلد عنده ثم تعود .

ويقول المستشرق هاملتون جيب هنا : إن المراجع البيزنطية لاتذكر أن ملك الروم فى ذلك الوقت وهو أندرونيكوس الثالث ، وكانت سنه إذ ذاك ستًّا وثلاثين سنة – قد زوج إحدى بناته خان القطيع الذهبى أى خان مغول القفجاق ، ولكن لدينا معلومات ن أميرتين بيزنطيتين ابنتين غير شرعيتين للإمبراطور قد زوجتا رؤساء من التتار .

الذهاب إلى القسطنطينية

على أى حال كان استئذان هذه الخاتون فى الذهاب إلى القسطنطينية فرصة ما كان ابن بطوطة ليدعها تفلت من يديه ، فسأل السلطان أن يأذن له هو أيضا فى مرافقتها ليرى مدينة الروم العظمى ، فمنعه السلطان خوفاً عليه ، ولكنه لاطفه حتى أذن له ووصله بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة ، وأعطته كل خاتون سبائك من الفضة وأعطته ابنته أكثر منهم « وكسته وأركبته » .

ابن بطوطة فى طريقه إلى الغِنَى

يقول ابن بطوطة : « واجتمع لى من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة » . . وهكذا نرى أن صاحبنا ابن بطوطة مضى ليزور القسطنطينية فى هيئة فخمة وموكب حافل وقد امتلأت يده بالمال بعد طول إملاق !

هناك شكوك كثيرة حول زيارة ابن بطوطة للقسطنطينية ، ولكننا مهما رأينا من ظلال الشك لانستطيع أن ننكر زيارته كلها : فقد أورد لها وصفاً دقيقاً لا يصدر إلا عن مشاهدة عيان . فليس أمامنا والحالة هذه إلا أن نصدق رحالتنا فيما يقول مع إبداء

ما يبدو لنا من الملاحظات على مايذكر. وهذا لا يمنع من القول بأن الكثير من التفاصيل التي يذكرها منقول عن أصول لا نعرفها :

فالطريق الذى سلكه من بيش داغ إلى القسطنطينية فى صحبة الخاتون بيلون غير واضح ، فهو يقول : إن ركب الخاتون سار من الحاج ترخان – وهى أستراخان – إلى مدينة أكُك ، ويقول المستشرق هاملتون جيب اعتماداً على معلومات قبسها من السير هنرى يول Yule وهو ناشر رحلة ماركو بولو وصاحب دراسات مستفيضة عنها Marco Polo (11, 488) إن أكُك هذه ليست المدينة المعروفة بهذا الاسم والتى يشير إليها كتاب العصور الوسطى والتى كانت على نهر الفولجا جنوب مدينة سارتوف الحالية ، ولكن المراد بها مدينة أخرى مذكورة على الخرائط البورتولانية أى خرائط الموانى التى عملها الإيطاليون والقطلونيون خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر تسمى لوكاتشى Locachi أولكُك Locoq على بحر آزوف .

وهنا يقول ابن بطوطة : « وعلى يوم من هذه المدينة – جبال الروس ، وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور ، أهل غدر ، وعندهم معادن الفضة ، ومن بلادهم يؤتى بالصّوم وهى سبائك الفضة التى يباع بها ويشترى فى هذه البلاد ، ووزن الصومة منها خمس أواق » (ص ٣٣٠) وهذه هى الصورة التى يعطيها رحالتنا الروس ، أما معادن الفضة التى يشير إليها فمناجم خام مركب من مركبات الفضة مختلط بالرصاص قرب نهر الميوس ، وهو نهر يصب فى بحر آزوف على بعد نحو ٣٢ كيلومتر من مدينة تاجا نروج الحالية Taganragg، ومنها كان الروس القدماء يأخذون الروبلات وهى قوالب الفضة .

ثم يصل ركب الخاتون ، وفيه ابن بطوطة – إلى مدينة سلطوق – وهى سرداق Surdálq أوسولدا Soldaia وتسمى اليوم سوادق Sudak وهى فى وسط شبه جزيرة القرم – وكانت مركز التجارة فيها وفى البحر الأسود قبل قيام كافا . ويتساءل بعض الدارسين : لماذا قام ركب الخاتون بهذا الطواف الطويل فى شبه جزيرة القرم ، لأن الطريق المباشر لا يمر بسرداق ، ويغلب على الظن أن الطريق اختلط على ابن بطوطة لطول العهد ،وأن زيارته لسرداق كانت فى أثناء مقامه فى مدينة السرا فى جزيرة القرم

واسمها اليوم ستارى كريم Stary Krim

وصوله إلى بلاد الدولة البيزنطية

ويقول ابن بطوطة : إن سلطوق هذه آخر بلاد الأتراك ، بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوماً ؛ أى أنها كانت نقطة الحدود بين أملاك مغول القفجاق وبلاد الدولة البيزنطية ، وبعدها يجتاز الركب برية مقفرة حتى يدخل بلاد الروم .

وبقية رحلة ابن بطوطة إلى القسطنطينية يشوبها خلط وخطأ ، ربما لأن أسماء الأعلام الرومية اختلطت عليه ، فهو يقول : إنه وصل إلى حصن مسلمة بن عبد الملك . ولاحصن بهذا الاسم فى تراقيا وهى التى لامفر له من اختراقها للوصول إلى القسطنطينية .

ثم وصل بعد ذلك إلى خليج ، ويظن أن المراد بذلك مصب الدانوب ، أما مدينة الفنيكة التى يذكرها فالغالب أنها أجاثوميكى Agathomiké حيث يقطع الطريق الرئيسى من ديامبوليس نهر تونجا وهو تونتزوس Tontzos عند أو قرب قزل أجاتش .

ولا نفهم كيف يقول : إنه وصل إلى حصن مهتولى « وهو أول عمالة الروم » ؟ لأن عمالة الروم أى بلادهم بعد الخروج من بلاد القفجاق فى ذلك الحين — وهو سنة ١٣٣٤م — كانت مدينة ديامبوليس وتسمى أيضاً كڤولى Kavùli واسمها اليوم جمبولى Jamboli وهو لفظ قريب من مهتولى .

وعند هذه المدينة كان أهل الخاتون فى استقبالها وعلى رأسهم أخوها كفالى قراس وكفالى ليس اسمه بل هو لقب ومعناه الرئيس ، ويصف ابن بطوطة الاستقبالات والحفلات التى أقيمت لهذه الأميرة بتفصيل طويل .

وعندما يدخل القسطنطينية يختلط عليه أمر إمبراطورها فيقول : « واسمه تكفور بن السلطان جرجيس ، وأبو السلطان جرجيس بقيد الحياة ، لكنه تزهد وترهب ، وانقطع للعبادة فى الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره » (٣٣٥) .

والحقيقة أن الإمبراطور إذ ذاك كان أندرونيكوس كومنين حفيد أندرونيكوس الثانى ، أما تكفور فليس اسماً وإنما هو لقب معناه « الملك » أخذه الروم عن لفظ أرمنى هو تاجافور Tagavor وقد اعتزل أندرونيكوس الثانى العرش لابنه أندرونيكوس الثالث فى ١٣ من فبراير ١٣٣٢ م ، فمن عجب أن يسميه ابن بطوطة جرجيس وهو جورج .

وكلام ابن بطوطة عن القسطنطينية دقيق ، ولكن ليس فيه جديد نذكره ونقف عنده غير كلامه الممتع عن الكنيسة العظمى وهى آيا صوفيا وعن الجالية الإسلامية فى البلد وقاضيها وكلامه عن المانسترات وهى جمع موناستير أى دير وتشبيهه لها بالزوايا .

وقد رغبت الأميرة فى البقاء مع أهلها وتنصرت ، فلم يعد أمام مرافقيها إلا العودة ، فعاد معهم ابن بطوطة ، وبقى مع السلطان محمد أوزبك فى عاصمته السرا ، وقد ذكرناها ، ومن هناك خرج إلى خوارزم .

المعسكر : مدينة متنقلة .

وإليك فقرتين من كلامه فى هذا الجزء من رحلته :

الأولى : يصف فيها معسكراً ضخماً كأنه المدينة المتنقلة .

والأخرى يصف فيها بعض ما شاهده فى القسطنطينية : قال فى بعض كلامه عن مسيرة من مدينة الماجر إلى بيش داغ وكان فيها معسكر السلطان محمد أوزبك : « وعندما وصلنا إلى المعسكر رأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعد فى الهواء ، وهم يطبخون فى حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت »

وقال يصف بعض ما شاهده فى القسطنطينية : « والقسطنطينية متناهية فى الكبر ، منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادى سلا ببلاد المغرب ، وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت ، وهو يعبر فى القوارب ، واسم هذا النهر « يسمى » وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطمبول وهو بالعدوة الشرقية من النهر ، وفيه يسكن السلطان وأرباب دولته وسائر الناس ، وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة ، وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم ، وعلى كل سوق أبواب تسد عليهم بالليل . وأكثر الصناع والباعة بها نساء ، والمدينة فى سفح جبل داخل البحر نحو تسعة أميال ، وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفى أعلاه قرية صغيرة وقصر السلطان ، والسور يحيط بهذا الجبل ، وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر ، وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة . والكنيسة العظمى فى وسط هذا القسم من المدينة .

وأما القسم الآخر منها فيسمى الغلقة ، وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط

الفتح [١] فى قرية من النهر . وهذا القسم خاص بنصارى الإفرنج [٢] يسكنونه . وهم أصناف فمنهم : الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل إفرانسة . وحكمهم إلى ملك القسطنطينية ، وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا . وجميعهم أهل تجارة ، ومرساهم من أهم المراسى . وقد رأيت مائة جفن من القراقر وأما الكفار فلا تحصى كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقذار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قذر نجس ، وكنائسهم لا خير فيها » .

وغريب من ابن بطوطة ألا يشاهد داخل الكنيسة العظمى فى القسطنطينية ، وهو الطلعة المشوق إلى كل غريب ، ولكن يبدو أن إيمانه هو الذى حال بينه وبين دخول أيا صوفيا ، فقد كان ينفر من الكنائس وأصوات النواقيس كما رأينا .

ويسترعى نظرنا أنه يقول : إن نصف المدينة الذى فيه قصر السلطان يسمى اصطمبول ، فكأن هذا الاسم كان معروفاً قبل استيلاء المسلمين على البلد . وقد كنا نحسب أن الأتراك العثمانيين هم الذين أطلقوا هذا الاسم على ذلك البلد ، فسموه إسلامبول : أى مدينة الإسلام ، ثم حرف الاسم إلى إستامبول أو اصطمبول . ولكن هاهو ذا الاسم معروف مستعمل قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية بأكثر من مائة سنة .

---

(١) الإشارة هنا إلى مدينة الرباط عاصمة المغرب الحالية ، وهى على ضفة الأطلسى على الجانب الغربى من مصب نهر الرقراق أو بورجرج ، وعلى الضفة الأخرى مدينة سلا ، وهما مدينتان توءمان .

(٢) الإفرنج هنا هم نصارى أوربا من غير الروم وهم البيزنطيون والصقالبة وهم الروس .

٢٨

مغول شغتاى

إلى خوارزم وخانية مغول شغتاى

نحن نخرج مع ابن بطوطة الآن من واحدة من خانيات – أو إيلخانات – المغول إلى الأخرى ، فعندما يدخل ابن بطوطة خوارزم يدخل مملكة خانات مغول ماوراء النهر ، وهم أبناء جغتاى المنسوبون إلى جغتاى بن جنكيزخان ، وابن بطوطة يسميه الجَكَطى .

وكانت هذه الدولة تمتد شرقاً حتى تشمل فارس والعراق ، وملكها هو الذى يذكره ابن بطوطة باسم ملك العراق ، وتمتد غرباً حتى ماوراء غزنة وكابل ، وحدُّها جبال سليمان من الهندوكوش ، وفيها ممر خيبر الذى يؤدى إلى بلاد السند .

وعندما يعبر ابن بطوطة ذلك الممر يبدأ حلقة جديدة بالغة الطرافة من رحلته وهى الفترة الهندية .

وكانت دولة خانات ماوراء النهر هذه مملكة واسعة جدًّا تشمل أقاليم إسلامية عظيمة هى العراق والجبال – وخوزستان وخراسان وسجستان وبلاد ماوراء النهر وبلخ وهرات وكابل وغزنة .

ابن بطوطة يلقى تبعة غزوة المغول على خوارزم شاه

وقد دخل ابن بطوطة هذه البلاد بعد غزوة جنكيز خان المخربة ، وابن بطوطة يسميه تنكزخان ، ويقص شيئاً من حياته ، ويلقى التبعة فيما أنزله ببلاد الإسلام من التخريب على جلال الدين منكوبرتى المعروف باسم خوارزمشاه ، فقد اعتدى عمداً على قافلة تجار مغولية وقتل رجالها ، فتحرك جنكيز خان للانتقام منه ، ودخل بلاد الإسلام مخرباً سنة ١٢١٤م وكان أول ما خرب سمرقند .

وابن بطوطة يذكر ذلك فى إيجاز ، ولايزال يتحسر فى أثناء مقامه فى تلك البلاد على ما أصاب الإسلام وكبار مدنه على يد المغول ، من أمثال سمرقند وبخارى وترمذ

وغيرها من القواعد التى خربت ، ولن تعود إلى سابق عهدها أبداً .

مدينة السرا عاصمة محمد أوزبك سلطان مغول القفجاق خوارزم

وقد دخل ابن بطوطة البلاد من ناحية خوارزم مقبلاً من السرا عاصمة محمد أوزبك سلطان مغول القفجاق على مسافة قصيرة من ساحل بحر قزوين قرب مدينة جورييف Gureyev الحالية على مصب نهر أورال الصغير.

وخوارزم كانت قبل الغزوة المغولية إقليماً واسعاً عامراً بالخير والعمران يشمل البلاد الواسعة التى على المجرى الأدنى لنهر أموداريا وهو جيحون ، وقد يسمى الأقاليم بالخوارزمية . أما خوارزم فمكانها اليوم بلدة خيوة – أو خيفا – فى جمهورية أوزبكستان السوفييتية .

وكانت خوارزم لاتزال تحتفظ بالكثير من جمالها وروائها عندما دخلها ابن بطوطة فى حدود سنة ٧٣٤هـ /١٣٣٣ – ١٣٣٤م ، فهو يصفها بأنها أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها ، ويقول : إنها كانت تموج بالناس موج البحر ، وبلغ من ازدحام الناس فى أسواقها أن ابن بطوطة دخل السوق مرة فضاع فى الزحام ، ولم يستطع العودة إلى داره إلا بعد مشقة !

وكانت ناحية خوارزم وما يليها من النواحى التى زارها ابن بطوطة هناك عامرة بالإسلام لا تزال برغم تخريب المغول ، وكانت البلاد قد بدأت تستعيد حياتها الأولى بفضل خان مسلم تولى أمرها يسمى تارما شيرين ، ويكتبه ابن بطوطة : علاء الدين طَرْمَشيرين وقد غضب المغول على ذلك الرجل لدخوله الإسلام ، واجتمع مجمعهم المسمى بالقورولتاى وعزله ، وقام عليه كبار المغول سنة ١٣٣٥م أو ١٣٣٦م .

وكان له خبر طويل بعد ذلك يقصه ابن بطوطة ، فهو أشبه بالأسطورة ، فقيل : إنه قتل ثم ظهر مرة أخرى فى الهند ، وثبت أنه لم يقتل ، وكاد ملك الهند أن يصدقه غير أنه آثر تكذيبه حتى لا يغضب المغول ، ولكنه لم يقتله بل تركه يمضى لسبيله ، فمضى واعتزل فى شيراز وظل فيها حتى لقيه ابن بطوطة فى ذلك البلد عند عودته من الهند سنة ١٣٤٧م .

نظم المغول

وقد تحدث ابن بطوطة عن نظم المغول فى دولتهم حديث العارف فيقول : « وكان تنكز (أى جنكيز خان) ألف كتاباً فى أحكامهم يسمى عندهم « اليَسَاق » – وهو

عرضية اليساق أو إلياسة

الذى يسميه مؤرخونا إلياسة ، ويخطئ بعضهم فيقرؤه السياسة ، وهو يجمع أحكاماً مغولية تخالف شريعة الإسلام .

وكان المغول والأتراك – خلا العثمانيين –يطبقون فى بلادهم القانونين ، فإذا كان الأمر أمر سياسة وملك ومعاملة خصوم سياسيين أو عُداة على الأمن طبقوا شرعة إلياسة ، وإذا كان الأمر يدخل فى نطاق شريعة الإسلام من زواج وطلاق ومعاملات وتركات وما إلى ذلك طبقوا شريعة الإسلام .

وقد اختفت إلياسة وأحكامها مع الزمن وبقيت شريعة الإسلام ، والله غالب على أمره .

وبعد أن عزل طرمشيرين تولى سلطان مغولى آخر يسمى أوزون أوغلى[1] وكان مسلماً ولكنه كان فاسقاً فظلم المسلمين وقدم عليهم اليهود والنصارى ، فثار عليه المسلمون واجتمعوا على أمير مغولى مسلم يسمى بخليل[2] وهو ابن الأمير اليسور وكان أميراً على خراسان ، فاجتمع عليه المسلمون وتولى وزارته الأمير علاء الدين خدَاوند صاحب ترمذ وكان حسينى النسبة ، فنهض خليل بعساكره إلى مالق وهى عاصمة دولة خانات التركستان ، وتمكن من الانتصار على التتر عند بلدة أطرار ، وانتصر خليل على التتر فى موقعة أخرى وتقدم شرقاً نحو بلاد الخطا وهى الصين ، فحاول خان الصين إيقافه فعجز ثم وقع الصلح بينهما ، واستقر الأمر لخليل بن اليسور أو ابن ياسادان بتعبير أدق .

ولم تكن خوارزم من بلاد هذه السلطنة أو الخانية ؛ وإنما كانت آخر بلاد خانات القفجاق وسلطانهم محمد أوزبك خان .

سمرقند

ومن خوارزم انتقل ابن بطوطة إلى سمرقند ، وهو يصف جمالها ويرثى لها فى آن معاً ، ويثنى على أهلها ويقول : إن لهم مكارم وأخلاقاً ومحبة فى الغريب .

وقد زار خارجها قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب الذى استشهد هناك أيام

---

(١) صحة الاسم بوزون بن دورا تيمور (حوالى ٧٣٥ إلى ٧٣٩/ ١٣٣٥ – سنة ١٣٣٨ .

(٢) هو على خليل الله بن ياسادار ، وقد حكم مدة قصيرة خلال ١٣٤٢/٧٤٣ وبينه وبين بوزون إسن تيمور (زامباور ٣٧٠ و ٣٧٢) .

الفتوح الأولى ، وعلى قبره زاوية جميلة ذات رواء بنيت بأموال النذور ، وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر .

حفيد المستنصر بالله آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد

وكان قيم هذه الزاوية حين نزول ابن بطوطة بها الأمير غياث الدين محمد ابن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف بن الخليفة المستنصر العباسى ، قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق ، وهو الآن عند ملك الهند ، وسيأتى ذكره (ص٣٦٣) .

نَسَف وتِرْمِذ

ثم يمضى إلى نسف ثم ترمذ ، ويصفها بكثرة الخيرات ويقول : « وأهلها يغسلون رءوسهم فى الحمام باللبن بدل الطفل » ، ويضيف : « وأهل الهند يجعلون فى رءوسهم زيت السمسم ويسمونه الشيرج ، ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ، وبهذا طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم » (ص٣٦٤) .

ويقول : إن ترمذ التى نزلها مدينة جديدة غير القديمة التى خربها التتر ، وكانت على ضفة جيحون ، أما الجديدة فعلى ميلين منه ، وقد نزل ابن بطوطة بها بزاوية الشيخ عزاوان .

بلاد خراسان ببلخ

ثم جاز نهر جيحون إلى بلاد خراسان ، وسار فى صحراء حتى بلغ بلخ ، « وهى خاوية على عروشها غير عامرة » ، ولكن آثارها مازالت ماثلة للعين تتحدث عن مجدها الغابر ، وهنا أيضاً نزل ابن بطوطة ، بزاوية ملحقة بمسجد بنته إحدى الأميرات .

هراة

ثم يصل إلى هراة قاعدة السلطان المعظم حسين بن السلطان غياث الدين الغورى ، وكان يحكم هراة منذ سنة ١٢٤٥م بيت يسمى بيت كَرْتس ومن أكبر أمرائه الأمير معز الدين حسين الذى حكم من ١٣٣١م إلى ١٣٧٠م ، وكان حسين هذا صبيًّا عندما دخل ابن بطوطة هراة .

ويقص ابن بطوطة حكاية حرب وقعت بين حسين هذا ونفر من بدو الأتراك كانوا يسكنون قرب هراة وعليهم ملك يسمى طغيتمور ، ولفظ ملك لا تعنى هنا كما فى الهند أكثر من أمير محلى .

وظاهر أن الأمر اختلط على ابن بطوطة فجعل السلطان معز الدين حسين ابنا لغياث الدين والعكس صحيح : أى أن غياث الدين بدأ حكمه بعد سنة ١٣٧٠م فلا

يتفق أن يروى عنه ابن بطوطة خبراً ، والغالب أن ابن بطوطة دخل هراة أيام معز الدين حسين وفى أيام هذا وقعت الحادثة ، وربما كانت الحقيقة أن غياث الدين كان والياً للعهد فى ذلك الحين وتولى كِبْر فتنة الأتراك .

وكانت خراسان كلها فى طاعة سلطان أوإيل – خان فارس والعراق ، ولكن أمره كان قد ضعف ، واستبد أمراء النواحى بنواحيهم .

مدينة الجام

ثم انتقل ابن بطوطة إلى مدينة الجام جنوب مشهد الحالية واسمها الحالى الشيخ جام ، ومنها إلى طوس وهى – كما يقول – بلد الإمام الشهيد أبى حامد الغزالى ، وفيها توفى هارون الرشيد سنة ٨٠٩هـ .

ومن هناك ذهب إلى مشهد ، وهى مشهد الإمام على بن موسى الرضا ثامن أئمة الشيعة الإسماعيلية ، وقد توفى أيام المأمون بن الرشيد بعد موت الرشيد بتسع سنوات أى سنة ٨١٨هـ .

ومنها إلى سَرَخس ثم زاوة ، وهى مدينة الولى قطب الدين حيدرى ، ولهذا تسمى اليوم تربتى – حيدرى .

دخوله الهند

ثم اتجه ابن بطوطة إلى الهند ، ودخلها عن طريق ممر خاوك شمال شرق كابل . وهذا مجرد افتراض ؛ لأن كلام ابن بطوطة يدل على أنه اتبع طريقاً يؤدى إلى شاش نجار – وهى اليوم هشت نجار – قرب بشاور ، وهذا معناه أنه دخل الهند عن طريق ممر خيبر ، ثم إنه يقول : إنه مر بغزنة ، وطريق غزنة لايؤدى إلى خيبر ، بل إلى ممرات جبال سليمان ، والله أعلم أى طريق سلك ؟

وبدخول ابن بطوطة الهند تتغير حاله من حال إلى حال : فسيبلغ فى الهند كرامة لم يبلغها فى أى بلد دخله إلى ذلك الحين ، وسيتعرض كذلك لأخطار لم يتعرض لها من قبل .

وهكذا نرى ذلك الرجل العجيب ينتقل من عالم إلى عالم ومن نطاق حضارى إلى نطاق حضارى ، فقد رأيناه فى الفصول القليلة الماضية ينتقل من عالم الروم الأتراك أو إمارات الغزاة فى آسيا الصغرى إلى عالم مغول القفجاق ، ثم إلى بلاد الروم ويزور القسطنطينية ، ثم يكر راجعاً إلى بلاد مغول القفجاق ، ثم يدخل بلاد ماوراء النهر

وكأنها من بلاد الأتراك القبراخانية إذ ذاك ، ثم ينتقل إلى عالم الفرس فيدخل خراسان ويزور هراة ، ولكنه لا يوغل فيها ، فقد عرفها من قبل ، ومن هناك اتجه إلى بلاد الأفغان وتجشم الطريق العسير ، فدخل الهند من الشمال من ممر خيبر إلى بشاور.

وهذه كلها عوالم أو نطاقات حضارية يختلف بعضها وبعض كل الاختلاف ، وكلها إسلامية عدا بلاد الروم ، وابن بطوطة فى تنقله هذا بين النطاقات الحضارية يلاحظ الاختلاف بين بعضها وبعض ، ويسجل ملاحظاته ومرئياته بغاية الدقة ، وهو من هذه الناحية خبير بالحضارات وطرازها والمجتمعات ونظمها لايشق له غبار.

٢٩

الهنـــد

ابن بطوطة يدخل الهند رجلاً غنيًّا

دخل ابن بطوطة بلاد الهند من الشمال ، وعبر نهر السند فى موضع إلى الشمال قليلاً من ملتان ، وهو يسمى السند باسمه الحقيقى وهو البنجاب ، ويكتبها بنج – آب ، ويقول : إن معناها المياه الخمسة ، ويريد بالمياه : الأنهار وكان دخوله أول المحرم سنة ٧٣٤هـ /١٢ من سبتمبر ١٣٣٣م وهو يشكو الحر الشديد ، فلعل حرارة الصيف امتدت إلى أطول من المعهود ذلك العام .

وقد دخل الرجل الهند ميسور الحال كثير المال والخيل والخدم بفضل ما اجتمع له من عطايا الملوك والأمراء والخواتين ، وقد وصل إليه هذا المال على اعتبار أنه فقيه ورجل دين .

وكان الأتراك والمغول يعظمون أهل الدين والعلم ، وقد طال عهد ابن بطوطة بالمظهر الدينى وملازمة الشيوخ والقضاة والسماع عنهم حتى أصبح فقيهاً جليلاً حقًّا ولو فى الظاهر ، وهذه الصفات مجتمعة جعلت الرجل يدخل الهند شخصية محترمة مرموقة ، وسيكون لذلك كله أثره فى تصرفه ونظرته إلى الأمور كما سنرى .

ابن بطوطة والنساء

فنحن الآن مع رحالة غنى وفقيه جليل يصاحب الملوك والأمراء وذوى السلطان ويخدمهم ، ويفوز بعطاياهم ، فاتسعت حاله أكثر فأكثر ، وظهرت عليه تلك الصفة التى حسب الناس أنها لازمته منذ بداية رحلته ، وهى ولعه بالنساء وحرصه على أن تكون له الجوارى الحسان ، وهو أمر لاحظناه عليه فى أثناء رحلته فى بلاد القفجاق ثم بلاد مغول فارس والعراق . وسيزداد الأمر ظهوراً بعد ذلك ، فأفسد على ابن بطوطة جانباً كبيراً من متعة الرحلة ، وأضاع علينا الكثير من جوانب الاستمتاع بها ، وقد رأينا

أن اهتمامه بالنساء قليل قبل أن يدخل بلاد سلاجقة الروم .

دخل ابن بطوطة الهند أيام السلطان فخر الدين محمد تغلق ثانى السلاطين من آل تغلق الذين خلفوا الخلجيين سنة ٧٢٠هـ/١٣٢١م ، وتولى محمد تغلق الملك بعد أبيه غياث الدين تغلق مؤسس الأسرة فى ربيع الأول سنة ٧٢٥هـ/فبراير ١٣٢٥م.

وكان محمد تغلق سلطاناً واسع النشاط كثير المشروعات يختلط فى عمله حسن النية والانخداع بالآمال بسوء التصرف وسوء الطالع معاً ، فجلب على الهند الإسلامية بعض جوانب من الخير وكثيراً من الأذى بأفكاره التى تدل على قصر نظر ، مثل تقديره نقل عاصمة الدولة من دهلى إلى دولت أباد فى أعلى الدكن وإرغامه الناس على الهجرة إليها ، ومثل تفكيره فى إحلال النحاس محل الذهب والفضة فى التعامل .

ابن بطوطة يعجب بالسلطان محمد تغلق

ولكن ابن بطوطة يرضى عنه لأنه – كما قال – كان يكرم الغرباء ويفضلهم على أهل البلاد ، ويثق فيهم أكثر مما يثق فى رعيته ، فتقاطر عليه الأجانب من كل صوب ، وفى جملتهم صاحبنا ابن بطوطة الذى ذهب إلى الهند بدافع الرغبة فى الرحلة ربما دون أن يعلم بهذا الأمر ، فلقى من أفضال هذا السلطان الشىء الكثير .

مدينة جنانى

وأول مدينة لقيها عند دخوله السند كانت جنانى ، وقد لقى فيها ناساً من السامرة قال : إنهم دخلوا الهند من الشام أيام فتحها محمد بن القاسم أيام الحجاج ، وذهب هاملتون جيب إلى أن المراد بهؤلاء السامرة أهل طائفة راجبوت سماس Rajput, Sammas الهندية الذين كانوا يسودون منطقة الحوض الأدنى للسند فى ذلك الحين ، وقال – استنتاجاً من ذلك – إن جنانى ربما تكون قد قامت بين مدينتى رورى Rhori وسيوان Sehnwan الحاليتين فى الطريق من الملتان إلى دهلى .

ولابد أن نوسع الخطو بعض الشىء فى سيرنا مع ابن بطوطة فى الهند : فقد قضى فيها ثمانى سنوات حافلة بالأحداث فلم يبارحها إلا سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م ، ولهذا فسنقتصر على ذكر الأهم من المهم ، ولاسبيل لنا غير هذا ، لأن ابن بطوطة رحالة يسير بعينين مفتوحتين ، فهو يرى كل شىء ويصف كل شىء ، وحديثه عن الهند يحتاج إلى أضعاف مانملك من الحيز ، وقد ترجمه إلى الألمانية وعلق عليه المستشرق فون مجيك فى

كتاب كبير هو معتمدنا فى هذا التحليل والتعليق[١]

من جنانى ركب ابن بطوطة نهر السند فى مركب يسمى بالأهورة ، وهى سفينة سلطانية تسير فى النهر ومن حولها أربعة مراكب فيها طبول الأمير وأبواقه وندماؤه ومطربوه حتى وصلوا إلى لهارى ، وهى لارى بوندر Larry Bunder على الضفة الشرقية من قناة راهو على نحو خمسة وثلاثين كيلو مترٍ جنوب شرق كراتشى التى حلت محلها وأخملتها حوالى سنة ١٨٠٠م .

الملتان

ومن هذه البلدة يصل إلى الملتان وهى – فى رأيه – عاصمة السند ، ويمر فى طريقه ببلد فيه آثار معابد هندية . ويذهب كُنِنْجهام إلى أن هذا البلد المهجور هو الديبل – أوديبال كما يقال فى الهند – وهو الميناء الهندى الشهير عند العرب على مصب نهر السند على نحو سبعين كيلو متر جنوب شرق كراتشى ، ولكن ذلك مستبعد ، لأن الديبل ظلت بلداً عامراً وميناء واسع النشاط إلى زمن ابن بطوطة .

ويصل ابن بطوطة إلى بليدة صغيرة تسمى (أبوهر) ، وهى أول بلاد الهند فى رأيه ، أما ماسبق ذلك فكان بلاد السند . والتقسيم هنا إقليمى لاسياسى ؛ لأن هذه البلاد كلها كانت فى طاعة سلطنة آل تغلق أصحاب دهلى وإن كان لكل ناحية أو بلد كبير حاكم إقطاعى مستقل بشئونه يشبه الأمير .

فاكهة الهند

وهنا يقف ابن بطوطة وقفة طويلة ليستقصى أشجار الهند الغريبة وفواكهها التى لاتوجد إلا فيها ، ومما يلاحظ أنه يذكر أصنافاً كثيرة هندية خالصة ، ولكنه لايذكر واحدة من أشهر فواكه الهند ، وهى الجوافة . أما المانجو فهى عنده المنج ، وهو لايذكر شيئاً من خصائص هذه الفاكهة الطيبة ؛ وإنما يقول : « ومنها المنج وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافى الخضرة ، ويطبخون المنج مع الأرز ، ويأكلونه بالسمن ، ويسمونه الكشرى ، وعليه يفطرون كل يوم . وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب » (ص ٩٣٤) .

وفى بلدة تسمى حصن أبى بكر ، وهى مدينة بخار Bakkur Bakkar ثم فى

---

(١) H. Von Mzik, Die Reise des Arabers Ibn Batuta in Indien und China. Hamburg 1911.

إحراق الأرملة مع زوجها الميت

مدينة أمجرى amjari [1] يصف ابن بطوطة بتفصيل بالغ إحراق الأرامل أنفسهن مع بعولتهن الذين تدركهم المنية ، ووصفه طويل ممتع وإن كان المنظر بشعا ، ونجتزئ منه بالفقرة التالية نصف مشهد إحراق ثلاث أرامل :

« ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتى ذكرناهن على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ، ويأتى إليهن النساء من كل جهة ، وفى صباح اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس ، وهى متزينة متعطرة ، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنقار [2] ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى ، وهى تقول نعم ، وتضحك لهم (ص ٣٩٧) ثم يصف بعد ذلك مشهد الإحراق بكل تفصيل » .

دهلى

ثم ينتهى ابن بطوطة إلى حضرة دهلى ، وهو لايذكر لنا تاريخ ذلك الوصول ، وإنما يبدأ بوصف المدينة وصفاً دقيقاً لا ينم عن مشاهدة شخصية فحسب ، بل على اجتهاد فى التعرف على التفاصيل والبحث عنها .

فهو يذكر أنها مكونة من أربع مدن متجاورات متصلات ، وهى دهلى القديمة التى فتحها المسلمون سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م كما يقول ، وهو يشير إلى فتحها على يد معز الدين بن سام المعروف باسم محمد الغورى .

بداية دولة النوريين بعد الغزنويين

فقد كان محمد النورى هذا أميرا لغزنة ، فلما ضعفت دولة الغزنويين فى الهند وقام عليها أهل البلاد — تقدم هذا الأمير بقومه من الترك النوريين فدخلها سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م واستمر يوالى غزواته على بلاد السند والبنجاب وشمالى الهند حتى فتحها كلها ، ثم عاد إلى غزنة بعد أن أناب عنه قائده قطب الدين أيبك .

قطب الدين أيبك

وقطب الدين أيبك هذا هو الذى افتتح دهلى ، واتخذها قاعدة له ، وهو الذى بنى مسجده المشهور بها ، وأهم مافيه منارته المعروفة بقطب منار ، وهو لم يتمها ؛ وإنما شرع فى بنائها .

---

(١) فى النص العربى المطبوع بـا بجرى ، وهو خطأ (ص ٣٩٦) .

(٢) المفرد نقارة ، وهى طبلة صغيرة ينقر عليها بالعصا .

والمهم لدينا أن التاريخ الذى يحدده ابن بطوطة لفتح دهلى غير دقيق ؛ لأن البلد فتح وأصبح قاعدة الحكم الإسلامى فى الهند بعد ذلك بعشر سنوات .

والمدينة الثانية تسمى « سيرى » وتسمى أيضاً « دار الخلافة » ، والثالثة تسمى « تغلق أباد » مسماة باسم « والد السلطان محمد تغلق ، سلطان الهند الذى قدمنا عليه » (ص ٤٠٠) .

وحديث ابن بطوطة عن الهند الإسلامية أيام آل تغلق يعتبر وثيقة تاريخية ، لأنه يكاد يكون العربى الوحيد الذى كتب عنها ، وبقية معلوماتنا عن تاريخ الهند الإسلامية ، وخاصة فى أيام الخلجيين ومن جاء بعدهم من آل تغلق فمصدره مراجع فارسية وهندية ثم إنجليزية . غير أن كلام ابن بطوطة هنا موضع شك كبير ، فما كان محمد تغلق بهذه القسوة ، ولاصدرت عنه كل هذه الأفاعيل فيما يروى مؤرخو الهند ممن يعرفون ذلك التاريخ معرفة صحيحة .

حقاً إن محمد تغلق (٧٢٥ — ٧٥٢ هـ / ١٣٢٥ — ١٣٥١ م) الذى كان يسمى قبل توليه العرش بفخر الدين جونه ألغ خان يقال : إنه قتل أباه مشتركاً فى ذلك مع رجل من أوليائه يسمى الشيخ نظام الدين أوليا ، ولكن أحداً لم يصفه بهذه القسوة البالغة التى يرميه بها ابن بطوطة .

والغالب أنه أخذ هذه الأقوال عمن كان يصحبهم ويطمئن إليهم من أهل الطرق الصوفية من الدراويش والفقهاء ، وقد قتل محمد تغلق نفراً كبيراً كانوا يعارضونه وينقدون أعماله . وهذا برهان جديد على ما قلناه هنا مرة بعد مرة من أن ابن بطوطة كان يأخذ معلوماته ممن يتصل بهم من العوام وأهل الأسواق . وكان أولئك العوام يكرهون السلطان (محمد تغلق) لسوء تصرفه معهم وإيذائه لهم عندما أخرجهم من ديارهم فى دهلى وأجبرهم على الانتقال إلى دولت أباد ، وعندما آذاهم فى أموالهم عندما أراد إبدال عملة الذهب بالنحاس .

وخلاصة مايقال فى هذا الرجل هو مايقوله الدكتور حسن الساعاتى فى تقدير هذا الرجل فى كتابه القيم « تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية » (الطبعة الثانية سنة ١٩٧٠) :

هذا وينسب بعض المؤرخين ما صادف هذا السلطان من الفشل فى مشروعاته الكثيرة إلى سوء طالعه ، وماكان حوله من مستشارين تنقصهم الخبرة والإخلاص .

وينسب ابن بطوطة لهذا الملك كثيراً من الفضائل ، كما يثنى المؤرخ ميناء الدين بارنى معاصره على تمسكه بأهداب السنة ، وحرصه على إقامة العدل بين الناس . ويشير أغلب مؤرخى الهنادكة المحدثين إلى تسامحه ، حتى قرب إليه الكثير من الهنادكة وولاهم عدة مناصب فى الدولة ، وينفون عنه ما أشيع من ميله لسفك الدماء ، وتعطشه لارتكاب العنف والقسوة ، ويقولون إن تشنيع بعض المؤرخين عليه بهذه التهم لم يكن إلا لقتله بعض الدراويش والفقهاء . ولعل قياس هذه الحوادث جميعاً على ضوء مجتمع القرون الوسطى وتقاليده ، قد يربأ بهذا السلطان عن أن يحشر فى زمرة جلادى عصره [١] .

---

(١) د. حسن الساعاتى ، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية . الطبعة الثانية ، سنة ١٩٧٠ ص ١٤٠ .

٣٠

ابن بطوطة ينتقل إلى الغنى . .

يدل كلام ابن بطوطة فى وصف دهلى على مشاهدة وبحث واستقصاء ، فهو يتحدث عن جامع دهلى الذى جدده غازى ملك تغلق والد السلطان محمد تغلق وصفاً دقيقاً ، وهو فى الأصل مسجد القطب الذى بناه قطب الدين أيبك فى موضع بُدْخَانَه : أى مَعْبَد بوذى ، وبنى له المئذنة المعروفة باسم قطب منار .

ويصف لنا ابن بطوطة هذا المنار الذى يسميه صومعة ، يصفها لنا وصفاً دقيقاً ، وهو أول وصف عربى بين أيدينا عن هذه المئذنة الهائلة التى لا نظير لها فى الدنيا .

ثم يصف لنا بعض مشاهد دهلى الأخرى ، وكما هى عادته يلم بذكر من لقى فى البلد من الصالحين والعلماء ثم يوجز تاريخ الهند الإسلامية مبتدئاً من أيام الغزنويين .

وعلى الرغم من أهمية ذلك التاريخ وما يبديه خلاله ابن بطوطة من ملاحظات ذات أهمية تاريخية كبيرة فإننا ينبغى أن نستطرد عن هذا التاريخ كله حتى يصل إلى السلطان محمد تغلق الذى وفد عليه ابن بطوطة ، وهو يسميه أبا المجاهد محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند ، ولقبه فى كتب التاريخ فخر الدين ، وقد حكم من ربيع الأول ٧٢٥هـ/فبراير ١٣٢٥م حتى رجب ٧٥٢هـ/سبتمبر ١٣٥٠م ، وخلفه ابن عمه فيروز تغلق .

وكان محمد تغلق رجلاً واسع الآمال دائم النشاط ، ولكنه كما قلنا كان سيئ الطالع فلم يوفق فى الكثير مما طلب ، وهو يعد — على الجملة — من المحسنين من سلاطين الإسلام فى الهند ، وثناء ابن بطوطة المستفيض عليه مبالغ فيه دون شك .

ابن بطوطة يصبح فى عداد الأغنياء

وقد حظى ابن بطوطة من هذا السلطان بمال كثير ، فانتقل إلى عداد الأغنياء حقًّا ، ثم فقد ذلك المال كله بعيد خروجه من الهند ، وله فى المال المكسوب فى الهند

تعليق طريف ذكره بمناسبة تاجر يسمى شهاب الدين الكازرونى جمع من الهند مالاً كثيراً ثم فقده ، قال : « ورأيت أيضاً شهاب الدين وقد فنى ما كان عنده ، وهو بشيراز يستجدى سلطانها أبا إسحاق ، وهكذا مال هذه البلاد الهندية قلما يخرج أحد به منها إلا فى النادر ! » (ص ٤٣٩) .

والملاحظة صحيحة ولكن ليس سببها شؤم البلاد ؛ وإنما اضطراب الأمن فيها وفى البحار حولها وعجز حكامها عن حماية النفس والمال ، وميلهم إلى مد أيديهم إلى أموال الناس ، ثم كثرة متلصصة البحر فى البحار المحيطة بها ، فما كان يفوز بشىء من مالها أحد إلا بحظ حسن وصدفة مواتية . وعلى طول مقام ابن بطوطة فى الهند لا نزال نسمع بعدوان اللصوص وقطاع الطرق على السابلة والتجار وأهل المدن ، وهو مرض يبدو أنه كان مزمناً فى الهند على طول تاريخها .

وينفق ابن بطوطة صفحات طويلة فى أحاديث مكارم هذا السلطان على الناس ثم غدراته بهم . ثم يصف كيف لقى السلطان لقاء عابراً لا معنى له ، وبعد ذلك بقليل يحدثنا عن إكرام السلطان إياه وإنزاله فى بيت طيب « وجدت فيه ما يُحتاج إليه من فرش وبسط وحُصْر وأوان وسرير للرقاد » وبعد أيام أعطاه بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم وقال لى : « هذه سرششتى ومعناه لغسل رأسك » ثم أعطى أصحابه وغلمانه وخدمه عطايا مجموعها أربعة آلاف دينار ونيف ، هذا إلى جانب الضيافة وهى مقادير كبيرة من الدقيق واللحم والسكر والسمن والفوفل وغير ذلك ثم يقول : « والرطل الهندى عشرون رطلاً من أرطال المغرب ، وخمسة وعشرون من أرطال مصر ، وكانت ضيافة خداوند زاد وهو الوزير – أربعة آلاف رطل من الدقيق ، ومثلها من اللحم مع ما يناسبها مما ذكرناه » (ص ٤٩٤) .

ولا يملك المرء إلا أن يسأل : علام أخذ ابن بطوطة هذا العطاء كله ، وهو لم يفعل شيئاً يستحق عليه جزءاً مما أصاب ؟ وربما جاز لنا أن نقول هنا : إن هذا مثل من سفه حكام الهند هؤلاء وسوء تصرفهم فى أموال الناس !

ويزداد إدراكنا لهذه الحقيقة عندما نعلم أن فقر الناس فى الهند جعل الكثيرين منهم يؤجرون أنفسهم لحمل الناس على محفات كأنهم السوائم . وهذه المحفات تسمى دُول

واحدتها دُولة ، يقول : « وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون بالأسواق وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكرىْ » (ص ٤٩٥) .

وعلى هذه الحال من السفه فى إنفاق المال كان آل السلطان ومنهم المخدومة جهان أم السلطان ، وكانت امرأة كفيفة ، ولكنها كانت واسعة الثراء .

وقد ماتت لابن بطوطة بنت من جارية تركية ، فأرسل الجارية بعد دفن البنت إلى المخدومة جهان هذه وقال : « فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة ، وجاءت فى اليوم الثانى وقد أعطوها ألف دينار دراهم ، وأساور ذهب مرصعة ، وخلعة حرير مذهبة وتختا بأثواب . ولما جاءت بذلك كله أعطيته أصحابى والتجار الذين لهم على الدين محافظة على نفسى ، وصوناً لعرضى ، لأن المخبرين يكتبون للسلطان بجميع أموالى » (٤٩٦) . ويقول بعد ذلك : « وفى أثناء مقامى أمر السلطان أن يعين لى من القرى ما تكون فائدته خمسة آلاف دينار فى السنة » ثم أرسل له الوزير بعد ذلك عشر جوار فأعطى ثلاثاً منهن أصحابه وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن . والسبى هناك رخيص الثمن لأنهن قذرات لا يعرفن مصالح الحضر . والمعلمات رخيصات الأثمان ، فلا يفتقر أحد إلى شراء السبى » (ص ٤٩٩) .

ثم يتحدث عن الوضع بين المسلمين والهنود ، ويسميهم الكفار فيقول : « والكفار ببلاد الهند فى بُر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين ، والمسلمون غالبون عليهم ؛ وإنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار ، ولهم غَيْضَات من القصب ، وقصبهم غير مجوف ، ويعظم ويلتف بعضه على بعض ولا تؤثر فيه النار ، وله قوة عظيمة ، فيسكنون تلك الغياض ، وهى لهم مثل السور ، وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم ، ولهم فيها المياه مما يجتمع من مياه المطر ، فلا يقدر عليهم إلا العساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ، ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك » .

ثم رتب له السلطان اثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وأعطاه قريتين غير الثلاث التى أخذ ، وبعد قليل أبلغه الوزير خُدَاونْد زاده ضياء الدين أن خَوَند عالم — أى سلطان الدنيا ، وهو محمد تغلق — عينه قاضى دار الملك دهلى « وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وعين لك مجاشرَ — أى ضياعاً — بمثلها ، وأمر لك باثنى عشر ألفاً نقداً

تأخذها من الخزانة غداً إن شاء الله » وأشياء أخرى كثيرة ، وهكذا أصبح ابن بطوطة قاضياً ورجلاً موسراً ، وتغيرت حاله جملة (ص ٥٠١) .

وكأنما كان ذلك كله مغرياً لابن بطوطة بالاستزادة من المال ، فزعم أن عليه ديوناً للتجار ، وصنع قصيدة للسلطان يرجوه فيها أن يعطيه خمسة وخمسين ألف دينار ليدفعها إلى التجار ، وكأنما شكّوا فى أمره فطلوه ، وبعد أيام أمر السلطان بأن يقال للتجار : إن هذا المال عند السلطان فلا يطالبون به ابن بطوطة !

ثم دخل فى إشكالات ومتاعب مع الوزير خداوند زاده ضياء الدين ، ولم يحصل من المتاعب على شيء ، وبدا وكأن الناس قد ارتابوا فى أمره ، وهم على حق ؛ إذ كيف تكون للتجار عليه ديون بمبلغ خمسة وخمسين ألف دينار ؟

ولكن ابن بطوطة لم ييئس ، وظل ملازماً باب السلطان ، مصاحباً له فى كل خروج حتى مل السلطان ، ثم أهدى له ابن بطوطة جملاً ، ثم جملين وحلواء ، وأخيراً فاز بالمال المطلوب وأضيف إليه اثنا عشر ألف دينار .

ثم ولاه السلطان أمر مقبرة قطب الدين إلى جانب القضاء ، فزاد ماله واتسعت حاله ، وعلت مكانته وأصبح رئيساً كبيراً حتى لقد خرج فى أمر من أموره إلى قرية تسمى هزار أمْروها على ثلاثة أيام من دهلى ، فاصطحب معه ركباً من الأتباع فيه خمسة من المغنين يغنون له على الطريق .

وما دام ابن بطوطة قد مد يده إلى السلطان ونال منه هذا كله فقد كان لابد أن يناله مكروه ، فاتهموه بزيارة أحد أعداء السلطان ، فأقاموا عليه الحراسة تمهيداً لعقابه ، فجعل يتوسل إلى الله سبحانه أن يخلصه ، وصار يقرأ كل يوم : حسبنا الله ونعم الوكيل ثلاثاً وثلاثين ألف مرة ، وجعل يختم القرآن كل يوم مرة ، وصام خمسة أيام لا يفطر إلا على الماء حتى خلصه الله من المحنة ، فقرر بعد ذلك أن يحتجب عن الناس وأن يخرج عن الدنيا ، فأعطى كل ما كان عنده ولزم شيخاً صالحاً يخدمه .

وقد تساءلنا آنفا عن السبب الذى نال به ابن بطوطة هذه الكرامة الكبيرة والنعمة الظليلة فى الهند وما هو بالفقيه الكبير ولا الشخصية التى تداخل الملوك وتكسب ثقتها وتستمد منها القوة ؛ إنما هو كان رجلاً سفاراً يلتمس الطرائف ، ويبحث عن

الغرائب ويعشق العجائب فما باله الآن يصاحب الملوك ويحظى برفدهم وينال من أفضالهم الألوف بعد الألوف ، ويتولى القضاء ثم يختار للسفارة ويعطى الأموال الكثيرة ؟ ومع ذلك فنحن نراه لا يتخلق بأخلاق هذا المكان الكبير الذى وصل إليه . فهو يزعم أن عليه للتجار ديوناً تصل إلى خمسة وخمسين ألف دينار ! وهو دين لا يتجمع إلا على رجل موسر واسع النفقة أو تاجر كبير يغامر فى الأسواق ليكسب حيناً ويخسر أحياناً ؟

ولكن لا سبيل لنا إلا أن نأخذ كلامه على علاته ، أو نمر به مر الكرام ، فكلامه هنا يتعلق بشخصه وما جرى له فى الهند ، ولا يهم كثيراً أن نصدقه أولا نصدقه ، ولكننا ينبغى أن نرده للنظر فى كلامه هذا إذا أردنا حقيقة أن نعرف أخلاق هذا الرجل ونسبر شخصيته ، وهى شخصية بسيطة أو قل واضحة ، فهذا رجل يحب الحياة ، أحبها فى الرحلة والمشاهدة ، وأحبها فى رؤية الأولياء الصالحين والفوز ببركاتهم ، وأحبها فى الاستمتاع بصحبة العلماء والفقهاء والعيش مع طلبة العلم فى الزوايا والتكايا والمدارس ، وأحبها فى الحج إلى بيت الله الحرام والمجاورة مع العباد الصالحين ، وأحبها فى ترف الهند ويسر الحصول على المال من الملوك ، فأخذ يستزيد منه وفى سبيل ذلك تصاغر وادعى الدَّين وحصل على المال ووصل إلى القضاء والسفارة .

وفى أحاديثه عن الهند وأعاجيبها ومحرقها وبراهمتها وكهنتها نحس حب الحياة وما فيها يملأ قلب هذا الرجل الطريف ، وهذا أصدق وصف للرجل : إنه إنسان طريف يحب كل طريف !

٣١

الرحلة إلى الصين ومتاعبها

ظل ابن بطوطة معتكفاً عن الناس متقشفاً بعض الوقت ، ثم بعث إليه السلطان ليعود إلى الخدمة فرفض ، ونزل فى زاوية تنسب إلى شيخ يسمى بشيراً فى آخر جمادى الآخرة سنة ٧٤٢هـ /نوفمبر ١٣٤٢م ، وظل على تلك الحال شهر رجب وعشرة من شعبان .

السلطان يرسله سفيراً عنه إلى ملك الصين

ثم استدعاه السلطان وأكرمه وقال له : «إنما بعثت إليك لتتوجه عنى رسولاً إلى ملك الصين فإنى أعلم حبك فى الأسفار والجولان» فجهزنى بما أحتاج إليه ، وعين للسفر معى من يُذْكَر بعد (ص ٥١٩) .

وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يكن يرغب فى سفارة ، إنما كانت أمنيته الهروب من تلك البلاد ، وكان من تقاليد ملوك الهند فى تلك العصور ألا يخرج غريب من البلاد إلا بإذنهم .

وكان ابن بطوطة قد ضاق ذرعاً بمقامه فى الهند ، ونعتقد أن خروجه عن الدنيا وتزهده كانا حيلة منه لصرف الأنظار عنه حتى يستطيع التسلل إلى الخارج ، فأتاه أمر الملك هذا فرجاً من حرج .

ونحن لا نعلم فى الحقيقة ما الذى جعل السلطان يختاره لهذه المهمة ؟ ويذكر ابن بطوطة أن ملك الصين كان قد بعث إلى السلطان محمد تغلق بهدية سنية وطلب إليه أن يأذن له فى أن يعيد بناء معبد بوذى فى موضع يعرف بِسَمَهْل وإليه يحج أهَل الصين ، وتغلب عليه أهل الإسلام بالهند فخربوه وسلبوه .

فاعتذر محمد تغلق عن عدم إمكانه السماح ببناء معبد بوذى فى أرض الإسلام ، وأراد أن يرضى ملك الصين ، فقرر أن يرسل له هدية عظيمة القدر يحملها إليه وفد

يرأسه رجل جرىء يحب السفر ولا يخاف البحر ، فوقع اختياره على صاحبنا ابن بطوطة .

وقد أورد ابن بطوطة وصف الهدية بتفصيل (ص ٥١٩ – ٥٢٠) ثم قال :

« وعين السلطان للسفر معى بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجانى ، وهو من فضلاء أهل العلم ، والفتى (كافور) الشُّرَبْدار وإليه سلمت الهدية وبعث معنا الأمير « محمد الهروى » فى ألف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذى يُرْكب منه البحر ، وتوجه صحبتنا أرسال ملك الصين ، وهم خمسة عشر رجلاً يسمى كبيرهم (تَرس) وخدامهم نحو مائة رجل ، وانفصلنا فى جمع كبير ومحلة عظيمة ، وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده .

وخرج ركب ابن بطوطة لهذا السفر فى السابع عشر لشهر صفر سنة ٧٤٣هـ/٢٢ من يوليو١٣٤٢م. وبعد مسيرة يوم عسكر الركب فى مدينة كول Kul – وتسمى أيضا كويل وهى أليجار Aligarh التى تسمى عندنا أحياناً : عَلِيكْرة – وهناك سمعوا أن نفراً من اللصوص أغاروا على بلدة جلالى Jalali على نحو عشرين كيلو متر من عَلِيكره ونهبوها .

ويعلق جيب على ذلك بقوله : إن غارة اللصوص على موضع بهذا القرب من العاصمة تعطينا فكرة عن حالة الأمن فى مملكة محمد تغلق . وهى ملاحظة فى محلها ، وسنرى أسوأ من ذلك بعد قليل . وكان أولئك اللصوص جيشاً حقيقيا من ألف فارس وثلاثة آلاف راجل . ويقول ابن بطوطة ! إنه ورفقته كروا عليهم وقتلوهم عن آخرهم ، وأخذوا خيلهم وأسلحتهم وكتبوا بذلك إلى السلطان !

وبينما كانوا فى انتظار رد السلطان كان اللصوص وقطاع الطرق يهاجمون القرى المحيطة بجلالى دون انقطاع . وحدث ذات مرة أن خرج ابن بطوطة مع نفر من صحبه ليستريحوا فى روضة ، فهاجم اللصوص المعسكر ، ونهضوا للقائهم وتفرقوا قطعاً تطارد كل قطعة منهم نفراً من اللصوص ، وبعد قليل وجد ابن بطوطة نفسه منفرداً مع خمسة رجال من صحبه فى برية لايعرفها . فانقضت عليهم جماعة من قطاع الطرق ما بين فارس وراجل ، فقاوموهم فترة ، ثم هرب ابن بطوطة على جواده وتبعه نفر من

اللصوص . فلم يخلص منهم إلا بأن استتر فى غيضة بعد أن كادوا يظفرون به !

هنا تبدأ قصة مغامرة طويلة لابن بطوطة يلاحقه فيها الموت على يد الأعداء أو الهلاك ظمأ وجوعاً ، فقد خرج من غيضته وسار على الطريق فوقع فى أسر لصوص آخرين يبلغ عددهم الأربعين ، وأشرف على الموت ، وظل فى قبضتهم حتى رق له قلب شاب منهم ، فأطلق سراحه .

اضطراب الأمن فى الهند أيام محمد تغلق

وبعد أن سار ابن بطوطة قليلاً خاف أن يبدو لهم فيأخذوه مرة أخرى ، فاختفى فى غيضة قصب إلى غروب الشمس ، ثم نهض فواصل السير .

فلما غربت نهض وسار والليل مقمر حتى أدركه التعب فنام تحت جبل ، ثم عاود السير مع الصباح ، وما كاد يجد من الطعام إلا نبقاً فتقوت منه . وكان يشرب الماء من آبار يحفرها الناس معاونة للسفار يسمى الواحد منها (بايَن) .

واستمرت حاله على ذلك ثمانية أيام حتى كاد يهلك ، ثم رزقه الله رجلاً صالحاً « أسود اللون بيده إبريق وعكاز وعلى كاهله جراب » فقال له : « سلام عليكم ! » فرد عليه السلام واطمأن قلبه ، ولم يستطع السير طويلاً مع الرجل لأنه كان مجهداً ، فحمله الرجل ، وتبين بعد ذلك أن هذا الصوفى الجوال كان الهندى دلشاد الذى قال فى شأنه ولى الله عبد الله المرشدى فى دمنهور مصر قبل نحو عشرين سنة : «ستدخل أرض الهند ، وتلقى بها أخى دلشاد ، ويخلصك من شدة تقع فيها » . وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال : القلب الفارح ، وتفسيره بالفارسية : دلشاد ، فعلمت أنه هو الذى أخبرنى بلقائه وأنه من الأولياء ، ولم يحصل لى من صحبته إلا المقدار الذى ذكرته .

ثم وصل آخر الأمر إلى قرية عامرة حاكمها مسلم ، فأكرمه وكساه . وكانت تلك القرية على يومين من مدينة كول وفيها أصحاب ابن بطوطة ، فذهب إليهم ، ووجد أنهم قد تشاءموا من الرحلة وأرادوا الرجوع إلى دهلى ، فأصر على أداء رسالة السلطان ، وكان السلطان قد بعث إليهم بعدد جديد

ومن كول – وهى عَلِيكَرْة ساروا حتى وصلوا إلى برج بوره ، وهى اليوم برج بور Burjpur ومضوا حتى صادفوا نهراً يسمى آبى سياه أى الماء الأسود وهو نهر الكالندى .

ثم وصلوا إلى مدينة عامرة كبيرة هى قَنَوْج . ثم مروا بأماكن عدة أهمها جوَالْيور ، ويسميها كاليور ، ثم وصل إلى بلدة تسمى بروان وهى مركز لنفر من السحرة يسمون الجوكية وهم المعروفون باليوجى[1] . ويبلغ من سحرهم أن واحدا منهم كان يتنكر فى صورة سبع ويفتك بالناس فى الليل ، ثم يذكر عجائب من أعمال اليوجى هؤلاء ، كصبر أحدهم على الجوع شهوراً ، أو دفن نفسه حيا فى حفرة تبنى عليها قبة ليس فيها إلا ثقب للتنفس ثم يظل كذلك شهورا .

الجوكية السحرة

وقد أعطانا ابن بطوطة مثلاً من أعاجيب ماكان يصنع أولئك السحرة الجوكية أراه إياه السلطان ، فقال : إنه كان عنده يوماً « فأمرنى بالجلوس فجلست وقال لهما — أى لاثنين من الجوكية أى اليوجى — إن هذا العزيز — أى الغريب — من بلاد بعيدة فأرياه مالم يره ، فقالا : نعم . فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعاً . فعجبت منه ، وأدركنى الوهم ، فسقطت إلى الأرض ، فأمر السلطان أن أسقى دواءً عنده ، فأفقت وقعدت ، وهو على حاله متربع ، فأخذ صاحبه نعلاً له من شكارة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا ، فقال لى السلطان : إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل ، ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت ! فانصرفت عنه ، وأصابنى الخفقان ، ومرضت حتى أمر لى بشربة أذهبت ذلك عنى ! » (ص ٥٣٤) .

ومن بروان انتقل ابن بطوطة إلى أموارى ثم كجرا ، وهى اليوم خاجورا هو Khagurahu على نحو أربعين كيلومتر شرق شهاتابور Chhatapur ثم إلى بلدة شنديرى ، ثم إلى ظهار ، وهى Dhar ، وهى أكبر مدن ملوه ، ثم إلى أجَّيْن — وكان ينبغى أن يذكر أُجَّيْن هذه قبل ذِر .

فى دولت أباد

ومن هناك إلى دولت أباد التى ذكرنا أن (محمد تغلق) أراد أن يجعلها عاصمة ملكه ، بل حاول إرغام أهل دهلى على الانتقال إليها ، فكانت كارثة على الناس حتى عدل السلطان عن ذلك .

---

(١) أى الذين يقومون بممارسات اليوجا ورياضاتها .

وهو يقول : إن سكان دولت أباد من المرهتة وهم المرهتّها Marathas وكان اسمها قبل ذلك ديوجيرى ، واستولى عليها المسلمون سنة ١٢٩٤م ، والذى سماها دولت أباد – أى عاصمة الدولة – كان (محمد تغلق) .

وبعد مسير طويل تصل القافلة إلى كنباريه Kinbarya وهى كما يقول – على خور من البحر ، وهو شبه الوادى تدخله المراكب . وهذا الخليج جنوبى شبه جزيرة الكوجرات .

ويقول ابن بطوطة : إنه مر بعد ذلك على مدينة قندهار ، وهذا وهم منه ، وكأنه خلط بين اسم هذه المدينة الأفغانية واسم شبه الجزيرة فى القديم وهو كاثياوار Cathiawar يقول هاملتون جيب إن الاسم الحقيقى ربما كان جندهار ، أوجندهار مدينة كانت على هذا الخليج .

ومن هنا ركب هو ومن معه البحر إلى قاليقوط .

وهذه أول مرة يميل حديث ابن بطوطة فى رحلته ناحية القصص الذى يذكرنا ألف ليلة ، فإن هذه الأحداث التى مر بها منذ خروجه من دهلى تذكرنا بعض ما جرى للسندباد ، ولكننا مع ذلك لا نميل إلى الشك فى هذه التفاصيل ؛ لأننا نرى الرجل يرسم طريقه من بلد إلى بلد على الخريطة ، ونحقق أسماء البلاد وما يقدره من المسافات بينها فنراها صحيحة أيضاً ، وقد حققنا الأسماء كلها على ما رأيت .

أما ما جرى عليه من الأهوال والخطوب فى أثناء هذه الرحلة فى الهند فأمر لا يستغرب وقوعه فى الهند فى تلك العصور : فقد كان اضطراب الأمن فى البلاد سمة غالبة على الهند ، ثم إنه كانت تتنازع السلطان عليها ثلاث قوى أكبر : الدول الإسلامية ومجموعة ولايات الراجبوتانا فى الشمال الغربى للهند إلى الشمال من ولايات الكجرات وميور وملوه . وهذه الولايات الثلاثة إسلامية . ومعظمها يدخل اليوم فى جمهورية الباكستان ، وقد غزا المسلمون بلاد الراجبوتانا وسادوها قروناً متطاولة ولكنهم لم يستطيعوا تحويلها إلى بلاد إسلامية لتأصل الهندوكية فيها .

أما صخرة المقاومة للإسلام فى الهند فكانت جماعات المرهتها الهندوكية التى كانت تسيطر على بلاد جنوبى الدكن ، وهى بلاد غابات متشابكة وغياض يتكاثر فيها غابات

غليظة كثيرة تجعل سلوكها عسيراً كل العسر ، وهناك هضاب وأراض صخرية وصحراوات ومفاوز مهلكة . وكان المرهتها هنادكة ، ولم يكونوا جماعة قومية أو شعباً متجانساً ؛ وإنما هى جماعات من الطغاة كانت تستبد بالقرى وأهلها وتفرض الإتاوات ، وكان فيهم زعماء ذوو قدر ونباهة وجرأة ، ولكنهم لم يكونوا يمثلون الشعب الهندى الأصيل كما يريد المؤرخون المحدثون من الهنود ، فلم تكن لهم نظم مستقرة ولا سياسات موضوعية بشأن البلاد . وإنما هم كانوا سادة عتاة أشبه بسادة الحرب ، فى الصين ، وكانت حربهم مع المسلمين دفاعا عن سيادتهم وأموالهم ومراكزهم ، وهذا يفسر لنا السبب فى استطاعة الإنجليز السيطرة على البلاد بمعاونتهم ، فقد خضعوا للإنجليز ؛ لأن الإنجليز دخلوا بالحديد والنار ، فلم تعد غاباتهم ولا غياضهم بواقية لهم ، فدخلوا فى طاعة الإنجليز ، وانضموا إليهم فى حرب المسلمين ، وكانوا فى ذلك الحين يمثلون الهند وحضارتها .

وعلى ضوء هذه المعلومات يمكن تفسير ما يقصه ابن بطوطة مما لقيه فى نواحى الدكن وهو يوغل فى بلاد يسيطر عليها المرهتها .

٣٢
دخوله جزائر ذيبة المهل

الجميل فى رحلة ابن بطوطة أنك كلما مضيت فى قراءتها ازددت بها استمتاعاً وبصاحبها إعجاباً ، فهو منذ دخل الهند لا يزال فى مغامرات ومفاجآت وأخبار غريبة ، يرويها فى بساطة تجعلك تشعر – أيا كان موقفك منه – بالحب له والتصديق لما يقول ، وهو فى أثناء روايته لهذه الأخبار لا ينصرف عما ركّبه الله فى طبعه من التطلع والولع بمعرفة كل شيء ثم وصفه بتفصيل .

ويستحيل علينا أن نأتى بكل التفاصيل والحكايات والطرق التى يأتينا بها ، فرحلة البحر وحدها من جَنْدهَار – التى يسميها قندهار – إلى قاليقوط على ساحل المالبيار استغرقت شهرين .

ومنها عبر إلى جزر ذيبة المهل – وهى الملديف – ليبدأ فصلاً جديداً من رحلته حافلاً بالمغامرات ، وهو يصف ما حدث له خلال هذين الشهرين فى عشرين صفحة لا تستطيع أن تسقط منها سطراً إذا أردت التحقيق ، ولكن لا مفر لنا من الإيجاز والاقتصار على ذكر الأهم من المهم .

ساحل المالبيار أو المُلَيْبار ، ونحن نسميه اليوم ملابارا ، وهو ساحل الهند الشرقى كان فى ذلك العصر قسمة بين المسلمين والهندوس والبوذيين وغيرهم ممن يسميهم الكفار : فللمسلمين مدنهم وللكفار مدنهم ، وهم يعيشون فى سلام بعضهم مع بعض ، لأن غير المسلمين يعرفون أنهم فى بحر عربى يسوده الإسلام ، وأنهم إذا عدوا على مسلم كانت العاقبة وخيمة .

وابن بطوطة يصف الساحل بأنه آمن ، ويقول إن أمراءه – مسلمين وغير مسلمين – حريصون على حفظ الأمن فى بلادهم ، وبلادهم غنية كثيرة الأشجار

والزروع والخضرة والمسافر فيها بالبر والبحر يمضى فى ظلال الأمان .

رحلته بحذاء ساحل مليبار

وكانت مراكب ابن بطوطة وأصحابه تقلع من ميناء وتحط فى آخر . فبعد جندهار نزلوا بقوقه ثم سِنْدَابور وهى التى سميت من بعد بجوا ، ثم مِغْور ثم أبو سرور ثم فاكرور ثم منجرمور ثم هيلى ثم جرفتن ثم فندارانية ثم شالوجات ثم قاليقوط ، ومنها أخذ البحر إلى الصين .

سلطان هِنَّوْر

وبديهى أن يكون ثناء ابن بطوطة على سلاطين المسلمين أكبر من ثنائه على غيرهم ، ومن هؤلاء جمال الدين محمد بن حسن سلطان هنور ، وهو تابع لسلطان كافر أقوى منه ، ولكنه مستقل ببلده قائم بأمرها ، وقد وصف لنا ابن بطوطة وليمة صنعها السلطان فيها شملت قدراً من الأطعمة يدل على أن ابن بطوطة كان يتمتع بمعدة من حديد .

ويقول ابن بطوطة : إنه عند هنور تبدأ بلاد المُلَيْبار وهى بلاد الفلفل ، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كَوْلمَ ، والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار ، وفى كل ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يفد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر ، وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ورجل كافر موكل بها ، فمن كان كافراً سقاه فى الأوانى ، ومن كان مسلماً سقاه فى يديه ، ولا يزال يصب له إلى أن يشير له أن يكف !

تعصب الهندوس

ثم يقول : « وعادة الكفار ببلاد المليبار ألا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم فى آنيتهم ، فإن طعم فيها كسروها ، أو أعطوها المسلمين ، وإذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز ، وصبوا عليه الإدام ، وما فضل عنه تأكله الكلاب والطير ! » (ص ٥٤٧) .

وهنا لا يسع المرء إلا أن ينحنى إجلالاً للإسلام الذى ما عرف قط هذا التعصب غير الإنسانى .

وجدير بالذكر أن مثل هذا الموقف من التعصب ضد الإسلام كان هو القاعدة فى الغرب المسيحى فى ذلك العصر وإن اتخذ صورة أخرى ، فى حين أن أهل ملة الإسلام برغم اعتقادهم الراسخ فى امتياز دينهم وفى أنه الدين الوحيد المقبول عند الله فإنهم

وبتوجيه من الإسلام نفسه – فتحوا قلوبهم وبيوتهم لغير المسلم ، وعاملوه على أساس الإنسانية حتى لو لم يكن لهم أمل فى هدايته .

ثم انظر إلى مشهد آخر من مشاهد العدوان على كرامة البشر فى بلاد أولئك الهندوس ، وهم كانوا أغلبية سكان ساحل مليبار هذا ، وهو على الحقيقة ساحل الدكن ، وكان الدكن إذ ذاك معقل الهندوكية حتى دكها سلاطين مغول الهندوكا وفتحوا أبوابها لنور الإسلام وإنسانيته : « ولا يسافر أحد فى تلك البلاد بدابة ، ولا تكون الخيل إلا عند السلطان وأكثر ركوب أهلها فى دُولة على رقاب العبيد أو المستأجرين .

والدُّولة هى المحفة ذات السقف الذى يقوم على عمد ، ومن لم يركب فى دُولة مشى على قدميه كائناً من كان ، ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالاً يحملونه على ظهورهم » (ص ٥٤٩) .

ويصف ابن بطوطة شجرات الفلفل ، وساحل مليبار هو ساحل الفلفل ، ويقول إنها شبيهة بدوالى العنب ، وهم يغرسونها إزاء النارجيل ، فتصعد فيه كصعود الدوالى ، ويثمر عناقيد صغاراً ، وإذا كان أوان الخريف قطعوه وفرشوه على الحصر فى الشمس حتى يستحكم لونه ، ثم يبيعوه للتجار (ص ٥٤٩) .

مدن الساحل التى مر بها

وأول مدينة دخلها ابن بطوطة من بلاد المليبار أبو سرور ، وهو تعريف لطيف لاسمها الهندى Barcelore .

ثم وصلوا إلى مدينة فاكنور ، وهى باكانور Bacanur وهى اليوم Barcur .

قاليقوط

ثم وصلوا إلى منجرور ، وهى اليوم مانجلور Mangalore .

ومن هناك إلى هيلى ، وهى فى القديم إيلى Eli ، ولا يزال اسمها باقياً فى جبل هناك يسمى جبل دللى Mount Delly ثم يصل إلى قاليقوط ، « وهى أحد البنادر العظام ببلاد المليبار ، يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل (ملديف) وأهل اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ، ومرساها من أعظم مراسى الدنيا .

وسلطانها كافر يعرف بالسامرى » شيخ ممن يحلق لحيته كما تفعل طائفة من الروم . . . وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم ، يجتمع إليه التجار ويأكلون فى سماطه ، وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم ،

وصاحب الزاوية التى بها الشيخ شهاب الدين الكازرونى . . .

وبهذه المدينة الناخوذة مثقال[١] الشهير الاسم ، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ، وقد تدهور أمر قاليقوط وفقدت أهميتها بعد دخول البرتغاليين بحار الهند وقضائهم على التجارة فيها واحتكارهم إياها وإنشائهم المراكز التجارية على سواحلها .

أما اسم ملكها كما يذكره ابن بطوطة وهو السامرى ، فهو اسم مألوف عند العرب ؛ إذ هو مقترن عندهم باسم جد طائفة السامريين من اليهود ، ولكن حقيقته هنا ساموتيرى Samutiri أو سامورى Sàmùri وهى كلمة معناها ملك البحر ، وقد حرفها البرتغاليون إلى زامورين Zamorin

وفى قاليقوط انتظر ابن بطوطة وأصحابه ثلاثة أشهر فى ضيافة سلطانها ، يقول ابن بطوطة : وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين .

مراكب الصين

ثم يتحدث عن هذه السفن ، وحديثه عنها فى الغاية من الطرافة والفائدة ، فيقول إن مراكب الصين ثلاثة أصناف : كبيرة تسمى الجَنْك ومتوسطة تسمى الزو (وهى الدو) وصغيرة تسمى الكَكَم » .

« ويكون فى المركب الكبير منها اثنا عشر قلعاً فما دونها إلى ثلاثة ، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تمط أبداً[٢] ويديرونها بحسب دوران الريح ، وإذا أرسوا تركوها فى مهب الريح .

ويخدم فى المركب منها ألف رجل ، منهم البحرية ستمائة ، ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيها الرماة وأصحاب الدرق والجرخية . وهم الذين يرمون بالنفط ، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفى والثلثى والربعى ، ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون (وسنتحدث عنها فيما بعد) من الصين أو بصين كلان وهى صين الصين » .

ثم يصف طريقة صنع هذه السفن من ألواح ضخمة من الخشب ويقول : «وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم ، وهى كبار كالصوارى ، يجتمع على أحدها

---

(١) أى الربان مثقال .

(٢) أى لا تطوى .

المصريسات وهى الغرف أو الأجنحة ذات الحمامات

العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويجذفون وقوفاً على أقدامهم ، ويجعلون للمركب أربعة ظهور ، أى طوابق (وهى Decks بالإنجليزية) ويكون فيها البيوت ، أى الغرف المفردة ، والمصارى جمع مصرية وهى ما يعرف اليوم باسم جناح أو Suite والغرف للتجار وهى الغرف الجماعية ، والمصرية منها يكون فيها البيت أى الغرف والسنداس أى الحمام ، وعليها المفتاح ، يسدها صاحبها ، ويجعل معه الجوارى، ،والنساء . .

والبحرية يُسكنون فيها أولادهم ، ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل فى أحواض خشب ، . ووكيل المركب — أى ربانه وهو الكابتن — كأنه أمير كبير ، وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والأطبال ، وإذا وصل إلى المنزل الذى يقيم به ركزوا رماحهم على جانبى بابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته (ص ٥٥٤ — ٥٥٥) .

إذن فهذه عابرات محيطات تشبه أعاظم سفن اليوم التى كنا نظن أنها من ابتكار الغرب فى العصور الحديثة .

وقد تحدث بعض الرحالة الآخرين عن تلك السفن ، ولكن ابن بطوطة هو أول من حدثنا عنها بهذا التفصيل ، فكل من تكلم عن سفن الصين أو سفن بحار الصين لا يكادون يذكرون إلا الجَنَك ، وهى السفينة التى عرفت بالإنجليزية باسم Chunck، وما زال الاسم مستعملاً إلى اليوم فى بحار الصين ، وقد انفرد ابن بطوطة بالحديث عن أنواع السفن ومقاييسها وطريق صنعها وطريق تسييرها .

أما تسمية الغرفة ذات الحمام أو الجناح ذى الحمام بالمصرية فلم يكن لفظ المصرية يقتصر على غرف السفن . بل كان شائع الاستعمال للدلالة على المسكن الكامل ذى الغرفة الواحدة ، ففى كل العالم العربى كان هذا النوع من المساكن الصغيرة يسمى بالمصريات ، وكان من عادة الكثيرين أن يتخذوا فى أعالى بيوتهم المصريات ليخلدوا فيها إلى راحتهم أو ينفردوا بأصحابهم وربما بجواريهم ، واللفظ مشهور كثيراً مستعمل فى هذا المعنى وإن كنا لا نعرف لماذا نسبته إلى مصر بالذات ؟

٣٣

مخاطر ومغامرات

تركنا ابن بطوطة فى قاليقوط يتأهب للسفر إلى الصين ؛ ليؤدى سفارته عن السلطان أبى المجاهد محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه سلطان دهلى ، ونمضى الآن فى تتبع أحداث هذه السفارة التى لم يقدر لها أن تتم .

لقد قال عقيب دخوله قاليقوط واستقبال الناس إياه والوفد الذى معه استقبال الملوك : « فكانت فرحة تتبعها ترحة » ؛ لأن ابن بطوطة لقى فى هذه السفرة وصباً شديداً روينا بعضه ونتم الباقى الآن ، وهو خبر لطيف كأنه قصة ، انتهى بابن بطوطة إلى ضياع أمواله وهدية السلطان ثم ذهابه إلى ذيبة المهل – وهى ملديف – بدلاً من ذهابه إلى الصين !

والقارئ لهذه الفصول من الرحلة يشعر وكأنه انتقل إلى رحلات السندباد من أحاديث ألف ليلة ؛ لأن الرحلة أخذت طابع القصص فعلاً ، ولولا أننا نثق فى ابن بطوطة ونستبعد عليه الكذب – وإن لم نستبعد المبالغة – لقلنا : إن حديثه فى هذه الفترة من رحلته إنما هو نسج خيال .

ابن بطوطة يستأجر جناحاً بحمام فى سفينة

ونتركه يتحدث الآن برهة قصيرة من الزمن ، فإن فى حديثه هنا متعة وفائدة ، قال :

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامرى جنكا من الجنوك الثلاثة عشر التى بمرسى قاليقوط ، وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصَّفَدى الشامى ، وبينى وبينه معرفة ، فقلت له : « أريد مصرية » – أى جناحا بحمام – لايشاركنى فيها أحد لأجل الجوارى ، ومن عادتى ألا أسافر إلا بهن ؛ فقال لى : إن تجار الصين قد اكتروا المصارى ذاهبين وراجعين ، ولصهرى مصرية أعطيكها ، لكنها لا سنداس فيها (أى

لا حمام فيها) فأمرت أصحابى فأوسقوا ماعندى من المتاع ، وصعد العبيد والجوارى إلى الجنك ، وذلك فى يوم الخميس ، وأقمت لأصلى الجمعة ثم ألحق بهم . (ص٥٥٦) .

ثم يحكى بعد ذلك كيف صعد إلى المركب زميلاه فى الرحلة : ظهيرُ الدين والملك سنبل ، وهو حامل الهدية التى أرسلها الملك محمد تغلق إلى ملك الصين .

ثم جاءه غلام له يسمى هلال فقال له : إن المصرية التى اكتريناها ضيقة لا تصلح ، فذكر ذلك للناخودة ، فاعتذر له ، ثم قال : إنه يستطيع أن يعطيه مصرية واسعة بسنداس فى الككم ، أى فى مركب أصغر من الجنك ، فوافق ابن بطوطة على ذلك ، وانتقل متاعه وغلمانه وجواريه إلى الككم ، ولبث هو على البر ليصعد إلى الككم فى الصباح .

الأمواج والرياح تذهب بالسفينة وأهله فيها

فلما كان بعد الظهر انقلب البحر وهاج ، وانقلعت مراسى السفن وأخذتها الأمواج ، فلما طلع النهار كان الجنك والككم قد بعدا عن المرسى وتعذر على ابن بطوطة الصعود . فإذا كان الليل رمى البحر بالجنك الذى كان فيه ظهير الدين والملك سنبل والهدية ، وهلك الاثنان فى ذلك وغرقت الهدية ، وقال :

« ولما رأى أهل الككم ماحدث على الجنك رفعوا قلعهم ، وذهبوا ومعهم جميع متاعى وغلمانى وجوارى ، وبقيت منفرداً على الساحل ليس معى إلا فتى كنت أعتقته ، فلما رأى ما حل بى ذهب عنى ، ولم يبق إلا عشرة الدنانير التى أعطانيها الجوكى والبساط الذى كنت أفترشه !

سفره إلى كولم

وقال لى الناس : إن ذلك الككم لابد أن يدخل مرسى كَوْلم ، « فعزمت على السفر إليها ، وبينها مسيرة عشر فى البر أو فى النهر ، وفعلا سافرت إلى كَوْلم » ، وهى كيلون Quilon إلى الجنوب من قاليقوط . وكانت أيضاً من كبار مراسى تجارة الهند مع أفريقية والصين ، وقد ذكرها رحالة المسلمين فى القرن التاسع الميلادى باسم كولم الملايو ، وقد تدهورت خلال القرن السادس عشر نتيجة لعدوان البرتغاليين على سواحل الهند وتجارتها .

وفى أثناء ذلك يتحدث ابن بطوطة عن شجر القرفة وهى الدارصينى والبقم ، والبقم شجر جيد متوسط الحجم ويسمى بالإنجليزية Brazil tree .

ووصل إلى كولم بعد عشرة أيام فامتدحها وأعجب بأسواقها ، وظل ينتظر الككم فلم يَسمع له خبراً ، وعرف أن رجال ملك الصين نجوا من الموت ، وأعادهم صاحب كولم إلى بلادهم ، حيث لقيهم ابن بطوطة فيما بعد .

عودته إلى هِنور

وخطر بباله أن يعود إلى السلطان محمد تغلق ليبلغه ماحدث ، ولكنه خاف أن يعاقبه لتخليه عن الهدية ، واستقر رأيه آخر الأمر أن يعود إلى جمال الدين سلطان هِنَوْر ففعل ، ولقى منه إكراماً بسيطاً ، ونصحه هذا بألا يعود إلى دهلى .

وفى أثناء ذلك كان جمال الدين يعد حملة على سندابور ، وهى جوا ، لخلاف وقع بين سلطانها الهندوسى وابنه ، فكتب الابن إلى السلطان جمال الدين صاحب هنور يدعوه إلى دخول المدينة ، ويعد بالمعاونة وبدخول الإسلام وزواج ابنة السلطان جمال الدين ، فوافق السلطان وأعد أسطولاً من اثنتين وخمسين سفينة حربية .

وشعر ابن بطوطة برغبة فى الجهاد ، فقرر الانضمام إلى الحملة ، وأراد السلطان أن يقيمه أميراً على الحملة ، ثم قرر قيادتها بنفسه ، وعندما أبلغه ابن بطوطة أنه عندما عزم على الاشتراك فى الجهاد فتح المصحف ليرى الفأل فيما تبدأ به الصفحة اليمنى فى الموضع الذى يفتح المصحف فيه ، فقرأ فى مطلع الصفحة الجزء الأخير من الآية الأربعين من سورة الحج وهى الثانية والعشرون : (« ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيرا ولَينصرن الله من ينصره ، إن الله لَقوى عزيز) .

الحملة على سندابور

وخرجت الحملة قاصدة سندابور ، وبهذه المناسبة يذكر ابن بطوطة نوعاً من المراكب الحربية الهندية يسمى العُكبرى يشبه الغراب إلا أنه أوسع منه ، وفيه ستون مجدافاً ، وهو مكشوف ولكنهُ يُسقَّف عند القتال حماية للمقاتلين . وكانت هناك مع الأسطول طريدتان أى طرادتان ، والطرادة سفينة حربية كبيرة تحمل الفرسان وخيولهم ، ويفتح مؤخرها للإنزال كما تفعل سفن نقل الجنود البحرية اليوم .

قال ابن بطوطة : « وكان عندنا طريدتان مفتوحتا المؤخر فيهما الخيل ، وهى بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرع ويخرج » ، وقد انتصر المسلمون واستولوا على سندابور .

وقد أعجب السلطان جمال الدين بابن بطوطة وأكرمه وأعطاه مالاً وثياباً وجارية ،

وأراد منه المقام معه ، ولكن ابن بطوطة استأذنه فى السفر إلى قاليقوط على أمل السفر إلى الصين ، فأذن له .

وعاد أدراجه ماراً بالمدن التى ذكرناها حتى قاليقوط .

ثم زار مدينة تسمى الشاليات ، تصنع بها الثياب المنسوبة إليها . ويقول هاملتون جب : إن هذه المدينة سماها البرتغاليون شليات Chiliate أوشال Chalè واسمها اليوم بايبور Beypore على عشرة كيلو مترات جنوب قاليقوط ، وقال : إن النسيج الذى كان يصنع فيها ربما كان هو أصل الأغطية الصوفية المعروفة بالشيلان ومفردها شال ، وقد أخذنا نحن اللفظ عن الفرنسية Chale وهو بالإنجليزية Shawl ، ثم عاد إلى قاليقوط .

وإليها وصل غلامان لابن بطوطة كانا فى الككم ، فأخبراه بموت جارية له كانت عزيزة عليه ، وأن صاحب الجاوة — أى سومطرة — قد أخذ سائر الجوارى ، « واستولت الأيدى على المتاع ، وتفرق أصحابى إلى الصين والجاوة وبنجالة » ، فأدركه اليأس وعاد إلى هِنَوْر ، ثم إلى سندابور فوصلها فى ربيع الآخر ربما سنة ٧٣٥ هـ /نوفمبر ١٣٣٤ م .

ولازمه سوء الطالع ، فعاد الهندوس ، فطردوا المسلمين من سندابور وحاصروهم ، فانصرف ابن بطوطة إلى قاليقوط ، وقد استقر عزمه على أن يبحث لنفسه عن بلاد أخرى يعيش فيها ، ورأى أن يذهب إلى جزر ذيبة المهل ، وهى الملديف . وأسرع فنفذ ماخطر بباله ، قال : « وكنت أسمع بأخبارها » ، ووصلها بعد عشرة أيام فى البحر .

وبوصوله إلى ذيبة المهل يدخل ابن بطوطة فى مرحلة جديدة وبالغة الطرافة من رحلته وحياته أيضاً .

٣٤

فى جزر ذيبة المهل (الملديف)

تعتبر الفصول التى أدارها ابن بطوطة على زيارته لجزر ذيبة المهل ، وهى الملديف من أمتع فصول رحلته وأكثرها طرافة وأهمية : فهى من الناحية العلمية أول وصف لهذه الجزر وتفصيل لأحوالها ونظام الحياة فيها وعادات أهلها وشئون الاقتصاد فيها ، فهذا الوصف وثيقة علمية ذات أهمية أكبر بالنسبة لبلد إسلامى صغير غريب فى تكوينه ونظام حياته .

حياة جديدة لابن بطوطة

ثم إن ابن بطوطة وجد أهل الجزر آمنين مسالمين صغار الأجسام فاستضعفهم ، وكانوا يعظمون أهل الفقه والعلم ، وكانت للعرب فى قلوبهم محبة ، فاستقبلوا ابن بطوطة استقبالاً حفيًا ، وأوسعوه كرامة ، فأغراه هذا بالمزيد من الاستخفاف بالناس ، فأساء التصرف ، وأكثر من الزواج والطلاق ، وتغير خلقه حتى أصبح لايشبه فى شىء ابن بطوطة السياح التقى الورع الذى عرفناه !

ثم ولوه القضاء فما أحسن القيام ولاعرف كيف يتصرف ؟ ووقعت العداوة بينه وبين نفر من كبراء البلاد ، فنفروا منه وودوا لو رحل عنهم ، فرحل إلى جزيرة سرنديب وفى نفسه أن يستعدى عليهم ملكها ، وكانت تربطه به صلة نسب نتيجة إحدى زيجاته فى الجزر ، فلم يوفق فيما طلب ، وعاد إلى الجزر ليصفى بعض شئونه ، ثم رحل إلى بنجالة وهى بلاد البنغال ، وهى اليوم جزء من جمهورية بنجلادش أى وطن البنغال .

والصورة التى يعطينا إياها عن الجزر طريفة ممتعة ومشرقة أيضاً ، أما صورة حياته هو هناك فلا إشراق فيها قط ، بل هى حديث ممل حافل بالزيجات والطلاقات والاستيلاء على الأموال والخيرات دون حق أحياناً ثم منافرات وعداوات .

ويمكن أن نقول : إن فترة مقامه فى جزر المهل هى أسوأ فترات رحلته كلها .

وكانت مدتها عاما ونصف العام . وعلى عادته لم يحدد لنا تاريخ دخوله أو خروجه ، وإنما هو كان بها فى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ، فقد ذكر لنا هذا التاريخ عرضاً فى ثنايا الحديث .

وجزر الملديف مجموعة من الجزر المرجانية المتقاربة يبلغ عددها نحو الألفين – ابن بطوطة يعطى هذا الرقم أيضا – وهى موزعة إلى مجموعات كل مجموعة منها فى هيئة دائرة ، وهى تبعد ٦٤٥ كيلومتر شرق سيلان ، وتبلغ مساحتها الكلية ٢٩٨ كيلومتر مربع .

وبين مجموعات الجزائر ممرات مائية ، ولكل مجموعة اسم ، مثل سافاديفا وأدو Addu وفوا Fua . والمسكون من هذا العدد الكبير من الجزائر ٢٢٠ جزيرة ، ويبلغ عدد السكان اليوم نحو مائة الألف . وعاصمة البلاد تسمى مال ، وهى جمهورية مستقلة وعضو فى هيئة الأمم . والغالبية العظمى من سكانها مسلمون ، وقد دخل الإسلام الجزائر فى القرن الميلادى الثانى عشر – أى قبل مجىء ابن بطوطة بقرنين – على يد رجل مغربى اسمه أبو البركات البربرى كما يقول ابن بطوطة .

وواضح أن الاسم العربى لجزيرة ذيبة المهل إنما هو مقلوب اسمها المعروف اليوم ، فهو ملديف (مال – ديب) ، ومال أو مهل هى عاصمة الجزر ، والجزر كلها منسوبة إليها .

وعندما يذكر ابن بطوطة أقاليمها يذكر منها إقليماً يسمى إقليم المهل ، ويقول : إن معظم الجزائر لازرع فيها ، وإنهم يزرعون فى بعض الجزائر حبوباً تشبه الدخن وهى الذرة الصغيرة ، واعتماد أهلها فى الطعام على السمك ، وأشهره نوع يقول ابن بطوطة إنه يشبه الليرون يسمونه قلب الماس ، يسمى اليوم باسم سمك الملديف ، وهو نوعان : واحد يسمى البونيتو والآخر هو التونة . وجدير بالذكر أن سمك التونة يسمى فى الإسبانية أيضاً البونيتو .

قوام طعامهم السمك

وهم يجففون السمك ثم يدخنونه ويصدرونه . وعندهم كذلك الكثير من أشجار النارجيل أو جوز الهند ، وهم يصنعون أصنافاً خاصة من المنسوجات يصدرون بعضها .

النارجيل

ويقول ابن بطوطة : إنهم يستخرجون من النارجيل الحليب والزيت والعسل . يقول ابن بطوطة : « وللسمك الذى يغتذون به قوة عظيمة فى الباءة لا نظير لها ، ولأهل هذه الجزيرة عجب فى ذلك ، ولقد كان لى بها أربع نسوة وجوار سواهن ، فكنت أطوف على جميعهن كل يوم ، وأبيت عند من تكون ليلتها ، وأقمت بها سنة ونصف السنة على هذه الحالة » (ص٥٦٣) .

ويقول : إن من أشجارها الجمُّون والأترج والليمون والقلقاص (يكتبه بالصاد) ، والجمُّون فاكهة استوائية تعرف اليوم بالجمبوُ ، والأترج هو الذى نسميه اليوم بالجريب فروت ، وقد بقى اللفظ فى الإسبانية فيقال له Toronja ، وهم يجففون القلقاس ويصنعون منه دقيقاً يطبحونه مع اللبن الحلو الذى يكون فى النارجيل .

أهل لللديف

ويطنب ابن بطوطة فى مديح أهل هذه الجزر ، فهم « أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة ، أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب » (ص٥٦٣) . ويبلغ من صلاحهم أن سلاحهم الدعاء ، فإذا قصدهم عدو دعوا الله أن يرده عنهم فيستجيب لهم ، فإذا طرق بلادهم لصوص البحر لم يلبثوا أن تصيبهم مصيبة ، ولهذا قل عدوان الناس عليهم وعاشوا فى أمان .

وفى كل جزيرة من جزرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عمارتهم بالخشب ، وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون فى اليوم مرتين لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها ، ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو .

نساء ذيبة المهل

وابن بطوطة معجب جدًّا بنساء ذيبة المهل لطاعتهن المطلقة للرجال وبذلهن أقصى الجهد فى مرضاتهم واحتفالهن ببعولتهن ، حتى إن الرجل منهم إذا تزوج ومضى إلى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت . ولباسهم الفوط ، يشدونها على أوساطهم فتستر نصف أجسادهم مما هو دون السرة ، أما أعلى ذلك فلا يلبسون عليه شيئاً .

وقد يجعلون على ظهورهم أحاريم — والمفرد حرام — وبعضهم يتعمم — وبعضهم يجعل على رأسه منديلاً صغيراً عوضاً عنها كما نرى اليوم عند أهل بورما وكمبوديا .

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشي بها كأنه فى بستان ، ومع ذلك فلابد لكل داخل فى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذى فى الخابية ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته ،وكذلك يفعل كل داخل فى المسجد .

حكومة الملديف

والحكومة هناك تسمى البندر ، ولها الحق فى أن تشترى من كل بضاعة واردة قدراً معلوما بثمن تحدده ، ثم يبيعه الوالى ، فتكون للبندر من ذلك فائدة ، أى مكسب وهو دخلها .

وتعاملهم بالودع وهو المحار الصغير ، ويسمون المائة منه (سياه) ولكل عدد من ذلك الودع اسم كأنه عملة مقررة ، فمائة الألف منه تسمى بستو ، والبستات الأربع منه بدينار ، أى أنك لكى تحصل على دينار ينبغى أن تقدم مليون محارة أو ودعة .

ويقول ابن بطوطة : إن الودع أيضاً صرف بلاد بنغالة وصرف السودان ، « رأيته يباع بمالى وجوجو بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبى »

سلطانة الملديف

ثم يقول : « ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالى . وكانت هذه السلطانة متزوجة من وزير لها يسمى جمال الدين ، ثم مات عنها مخلفاً بنتاً . فلما عرف أهل الجزيرة أن ابن بطوطة فقيه وقاضٍ أكرموه وأفاضوا عليه الهدايا ، ثم عرض عليه الوزير جمال الدين قبل موته أن يزوجه ابنته ، فاعتذر ابن بطوطة .

يقول : « وخفت من شؤمها ، فقد مات تحتها زوجان قبل الدخول » . ثم أراد بعد ذلك أن يتزوج بنت وزير آخر يسمى سليمان ماناتك ، فرفضت البنت ، فزوجوه عوضا عنها ربيبة للسلطان وتم ذلك فعلاً .

يصاهر البيت المالك

وارتفع مقام ابن بطوطة إذ أصبح صهرا للبيت المالك ، فولوه القضاء . ويحكى ابن بطوطة عن نفسه قاضياً حديثا يدل على أنه لم يكن ذا علم بالفقه ولم يحسن ولاية القضاء ، فكره الناس ولايته .

ثم وقعت النفرة بينه وبين الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى ، وزاد الأمر سوءاً أن ابن بطوطة لم يحسن الحكم فى قضية تتصل بهذا الوزير . وانتهى الأمر بأن قال له هذا

الوزير : « إنما غرضك السفر ، فأعط صدقات النساء وديون الناس وانصرف إذا شئت ! » .

ويقول ابن بطوطة : إن ذلك الوزير لم يستطع أذاه ، لأنه – أى ابن بطوطة – كان لا يزال سفير سلطان الهند والناس يهابونه . وبلغ الأمر أن تمنى ابن بطوطة أن ينقطع للعبادة فى إحدى الجزر الصغيرة ، ويخرج عن الدنيا إلى أن يأتيه اليقين .

وانتهى الأمر بخروج ابن بطوطة من جزائر المهل متوجهاً إلى المعبر ، وهو ساحل الهند الشرقى المعروف باسم كروماندل ، ماراً بجزيرة سرنديب ، وكان ذلك فى ربيع الآخرة/٧٤٥هـ أغسطس ١٣٤٤م .

فى سرنديب

وفى سرنديب زار جبلها الذى يقول : إنه أعلى جبال الدنيا ، وفى أعلاه أثر قدم آدم عليه السلام ؛ إذ يقال : إنه نزل هناك عندما هبط من الجنة . وإلى جانب أثر قدم آدم عليه السلام مغارة الخضر ، ذلك النبى الخالد الجوال كما تقول التفاسير .

ثم بارح سيلان إلى ساحل المعبر ، وهو ساحل كروماندل ، وكان تابعاً للسلطان محمد تغلق ، وحكمها بيد سلطان محلى يسمى غياث الدين الدامغانى .

وهكذا خرج ابن بطوطة مطروداً من تلك الجزر التى أطنب فى وصفها حتى جعلها وكأنها قطعة من الجنة .

ومما يمتدح عليه ابن بطوطة صراحته وصدقه ؛ فقد كان مستطيعاً أن يلقى التبعة فى فشله فى جزر ذيبة المهل على غيره ، ولكنه لا يخفى شيئاً ولايدعى شيئاً ؛ إنما هو يقول الحق وهذا حسبه . وقد خسر ابن بطوطة بخروجه عن هذه الجزر ، فقد سعد بالعيش هناك ، ولكنه لم يحسن معاملة الناس . ثم إنه فيما يبدو أسرف فى مسائل الزواج والطلاق ودخل فى إشكالات ومتاعب وخصومات ما كان أغناه عنها ، واضطر لذلك إلى مبارحة هذه الجزر .

ولم يكن له مفر على أى حال من مغادرة ذيبة المهل ، فهو رجل سياح جوال ، ولاقرار له فى مكان أبداً . وهذا من حسن حظنا ، فإن خروجه من ذيبة المهل قاده فى النهاية إلى جنوب شرقى آسيا والصين ، وهى نهاية الدنيا فى أيامه ، وهى أيضاً آخر ما وصل إليه من الأخطار شرقاً .

٣٥

زيارته الثانية لجزائر المهل وبنجالة

ومن جزائر ذيبة المهل توجه ابن بطوطة إلى سرنديب .

وكانت نية ابن بطوطة حين خرج من سرنديب أن يذهب إلى بنجالة ومنها يقلع إلى الصين ، ولكن كان فى نفسه شيء من أهل ملديف الذين أخرجوه ، وكان يعتز عليهم بصهر زعمه مع السلطان محمد تغلق ، فقد قال : إنه تزوج وهو بدهلى من بنت الأمير الشريف جلال الدين صهر السلطان .

فلما وصل إلى ساحل المعبر – وهو كروماندل – لقى سلطانه غياث الدين الدامغانى ، فطلب منه أن يعد جيشاً لغزو جزر ذيبة المهل ، فوافق على ذلك ، وأصدر أمره بإعداد الحملة ، ولكنه مات وخلفه ابن أخيه ناصر الدين ، وتولى وزارته خواجه سرور قائد الأسطول الذى كان قد أعد لغزو الجزر .

إصابته بالحمى

ثم أصيب ابن بطوطة بما يسميه الحمى القاتلة ، قال :

« فظننت أنها القاتلة ، وألهمنى الله إلى التمر الهندى ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه ، وجعلته فى الماء ثم شربته ، فأسهلنى ثلاثة أيام ، وعافانى الله من مرضى ، فكرهت تلك المدينة ، وطلبت الإذن فى السفر » (ص ٥٩٨) .

والمدينة المقصودة هى مِتّره ، فبارحها فى البحر ، ووصل إلى كَوْلَم على شاطئ مُلَيْبَار ، وقد تحدثنا عنها .

ثم ركب البحر مرة أخرى ليعود إلى هِنَوْر وسلطانها جمال الدين صاحبه ، فلما كانوا بإزاء جزيرة صغيرة على أربعين كيلومتر جنوب هِنَوْر – يذهب السير هنرى يول – إلى أنها جزيرة الحمام Pigeon Island خرج علينا الكفار فى اثنى عشر مركباً حربيًّا ، وقاتلونا قتالاً شديداً ، وتغلبوا علينا ، فأخذوا جميع ما عندى مما كنت أدخره للشدائد ،

وأخذوا الجواهر واليواقيت التى أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابى والزيادات التى كانت عندى مما أعطانيه الصالحون والأولياء ، ولم يتركوا لى ساتراً خلا السراويل ، وأخذوا ماكان لجميع الناس ، وأنزلونا بالساحل ، فرجعت إلى قاليقوط ، فدخلت بعض المدارس ، فبعث إلىّ أحد الفقهاء بثوب ، وبعث القاضى بعمامة ، وبعث بعض التجار بثوب آخر (٥٩٨) .

يفقد كل شىء

وهكذا فقد الرحالة المسكين كل شىء ولم يبق له مما ملك غير سروال ، ولم يستر جسده إلا بثوب وعمامة تصدق عليه بهما بعض ذوى الرحمة من الناس . ومع ذلك فإن الرجل لا يشكو ذلك ولا يصيبه يأس ، بل لا نحس فى حديثه حزناً على ما ضاع منه ، بل يمضى لطيته صابراً محتسباً متقبلاً ما وقع له بثبات الرجل الواعى الذى يعلم أن الأيام دول ، وأن الأيام تجرى بالشر كما تجرى بالخير . وهو أول الأمر وآخره رجل رحلة وتطلع وتشوف إلى المجهول ، وما هو بجامعِ أموالٍ أو جواهر أو يواقيت .

وكنا نتوقع وقد حل به ما حل ، وهبط البر على رغمه نحو الأربعين كيلومتر جنوبَ بلد صاحبه وراعيه السلطان جمال الدين محمد بن حسن صاحب هنور وهى اليوم أونور Onore كنا نتوقع أن يتابع السير على البر حتى يصل البلد ، ويلقى سلطانه ويحصل منه على ما يعوض خسارته ، ولكن ابن بطوطة رجل فريد فى تفكيره ، فد اتجه ببصره إلى جزر ذيبة المهل ، وكأنما أراد أن يصلح خطأه ويستعيد بها ما عرفه فيها من عز ، وربما يكون قد فكر فى الانخلاع عن الدنيا فى جزيرة ينفرد فيها ، ويتعبد إلى أن تنتهى أيامه !

عودته إلى ذيبة المهل

وفيما هو يدير فكره فى ذلك إذ بلغه خبر موت صديقه الوزير جمال الدين زوج السلطانة خديجة سلطانة ذيبة المهل وولاية الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى وتزوجه من السلطانة ، وكان بينه وبين هذا الوزير عداء . وهو الذى سعى فى إخراجه من الجزر ، فاستخار المصحف فخرجت له فى أول الصفحة الآية الثلاثون من سورة فصلت وهى الحادية والأربعون من سور القرآن : (تتنزل عليهم الملائكة ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة) فقوى عزمه وركب البحر إلى جزائر المهل .

ولا يعنينا من أمر زيارته الأخيرة هذه إلا أشياء قليلة منها حادث يكشف لنا حقيقة

شعور ابن بطوطة نحو أولاده الذين كان ينجبهم على الطريق ، وقد سبق أن قلنا : إنه أراد أن يحمل معه ابناً له كان قد ولد بعد رحيله وبلغ من العمر سنتين ، قال :

« ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبد الله فأعلموه بقدومى ، فسأل عن حالى وعمن قدم معى ، وأخبر بأننى جئت برسم حمل ولدى ، وكانت سنه نحو عامين ، وأتته أمه تشكو ذلك ، فقال لها : أنا لا أمنعه من حمل ولده » .

قال ابن بطوطة :

« وصادرنى فى دخول الجزيرة ، وأنزلنى فى دار تقابل برج قصره ليتطلع على حالى ، وبعث إلىّ بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم ، وجئت بثوبى حرير للرمى عند السلام ، فأخذوهما ، ولم يخرج الوزير إلىّ ذلك اليوم ، وأتى إلىّ بولدى ، فظهر لى أن إقامته معهم خير له ، فرددته إليهم ، وأقمت خمسة أيام » (ص٥٩٩) .

وهكذا نرى أن ابن بطوطة اتخذ رؤية ولده تعلة للصلح مع الوزير والإقامة فى الجزر على أمل العودة إلى العز الذى كان فيه ، فلما رأى من الوزير إعراضاً أحس أنه شخص غير مرغوب فيه هناك ، فزهد فى الولد ورده إلى أهله ، وعجل بعد ذلك بالرحيل من جزائر المهل .

أخذ ابن بطوطة مركباً حمله إلى البنجالة وهى جزء من بنجلادش الحالية ، وأنفق فى الرحلة ثلاثة وأربعين يوماً .

ونحن نتساءل الآن : إذا كان لصوص البحر قد جردوه من كل ما كان معه عند جزيرة الحمام جنوب هِنَوْر فلم يبق معه إلا عشرة دنانير — فمن أين أنفق على الرحلة إلى بنجالة وهى رحلة طويلة غير يسيرة التكاليف ؟

بلاد البنغال

كانت بلاد بنجالة — أو البنغال — فى ذلك العصر بلاداً إسلامية ، فقد فتحها المسلمون سنة ١٢٠٤ ميلادية ، واتخذ المسلمون مدينة جَوْر Gawr الحالية قاعدة لهم ، وكانت إذ ذاك تسمى لَكْنَوْتِى كما يقول ابن بطوطة ، وهو تحريف يسير لاسمها وهو Lakshmanawate واعتبرت بلاد البنغال ولاية من ولايات سلاطين دهلى ، ولكن ولاتها كانوا كثيراً ما يتمردون على السلاطين ويستقلون ببنجالة ، فتقوم الحرب بينهم وبين دهلى .

وكانت بنجالة عندما دخلها ابن بطوطة مستقلة عن سلطان دهلى يحكمها سلطان يسمى فخر الدين الملقب بفخرة أو فخيرة ، وقد حكى ابن بطوطة خبر هذا الرجل وكيف ولى السلطنة وقال : إن سلطان دهلى كان يصل إلى جَوْر أو لَكَنْوْتِى فى حين اعتصم فخر الدين ببلده بنجالة ، ولم تنقطع الحرب قط بين بنجالة وقوات دهلى فى لكنوتى .

ولم تعجب البنجالة ابن بطوطة ، فقال : « وهى بلاد متسعة كثيرة الأرز ، ولم أر فى الدنيا أسعاراً أرخص منها ، ولكنها مظلمة ، وأهل خراسان يسمونها : دوزخْت يور نعمة ، معناه جهنم ملأى بالنعيم ! (ص ٦٠٠) ثم يضرب أمثلة لهذا الرخص .

مدينة سد كاوان

وقد أوغل ابن بطوطة داخل بلاد بنغالة فوصل إلى مدينة يسميها سَدْكَاوَان وهى مدينة درست اليوم كان اسمها ساتجاون Satgaon أو Satganw على نهر هوجلى أحد نهيرات الكنج . وذهب السير هنرى يول إلى أن المراد بها شيتاكونج الحالية فى بنجلادش Chittagong وقد خمل أمرها حيناً فى أثناء الغزو البرتغالى ، ثم استعادت حياتها بعد ذلك .

أسام

ثم أوغل أكثر من ذلك حتى بلغ جبال كامرو على مسيرة شهر من سد كاوان ، وقد حقق « يول » هذه الناحية التى وصل إليها ابن بطوطة وقال : إنها سيلهِتْ حيث لا يزال قبر الشيخ جلال الدين يزار ، أما جبال كامرو فهى كامروب Kamrub أو Kàmarùpa وهى منطقة أسام على وجه التقريب ، يقول عنها ابن بطوطة :

التبت

« وهى جبال متسعة متصلة بالصين ، وتتصل أيضاً ببلاد التُّبَّت ، وهى التبت حيث غزلان المسك . وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ، ولهم قوة على الخدمة ، والغلام منهم يساوى أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم . وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشتغال به ، وكان قصدى بالمسير إلى هذه الجبال لقاء ولى من الأولياء بها وهو الشيخ جلال الدين التبريزى » (ص ٦٠٤)

فكأن ابن بطوطة وصل إلى مشارف التبت وصعد إلى سقف الدنيا كما تسمى .

ثم استرسل فى المسير ، فوصل إلى مدينة يسميها حَبَنْق عى نهر يسميه النهر الأزرق فأما حبنق فهى هابَنْج Habang اسم تل فى شمالى أسام إلى شمال مدينة هابيجان Habigan والنهر الأزرق هو المِجْنَا Meghna .

وآخــر مدينة وصلها هناك هى سد كاوان وهى سونارجاون Sonargaon أو Sunarganw على خمسة وعشرين كيلومتر جنوبى شرقى دكا عاصمة بنجلادش ، وكانت إحدى عواصم البنغال أيام الحكم الإسلامى . وهو يصف أهل الناحية بأنهم همج «ورجالهم على مثل صورنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب ، أما نساؤهم فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع» .

واكتفى ابن بطوطة من البنجالة بهذا القدر ، فقد زار الشيخ جلال الدين التبريزى واطمأن قلبه ، فمضى يضرب فى بلاد الله فى اتجاه آخر ، فقصد جاوة ويريد بها سومطرة ، فوصلها بعد رحلة خمسة وعشرين يوماً .

وأمثال هذه التفاصيل هى التى تزيد فى قيمة رحلة ابن بطوطة ، فها هو ذا يزور إقليماً إسلاميًّا لم يتحدث عنه أى مسلم آخر ، بل كان القليل من المسلمين يعرفون أنها إسلامية ولكن هذا الرجل وصلها مدفوعاً بهذا التطلع الدافق الذى كان يستحثه دائماً على المسير وركوب المخاطر .

وقد رأينا أن كل بلد زاره أو موضع ذكره هناك استطعنا تحقيقه ومعرفته على وجه الدقة ؛ مما يؤكد أن الرجل كان صادقاً فيما قال عن زياراته ، وما الذى يدفعه إلى ابتكار الحديث عن بلد مثل البنجال أو البنغال ؟ ولم تعجب رجال بنجالة ابن بطوطة بل استبشع خلقهم ، ولكن نساءهم أعجبنه وهذا مستغرب ؛ إذ كيف يكون الرجال بهذا القبح ثم تكون النساء غاية فى الجمال ؟ ولكن ابن بطوطة كان يرى النساء كلهن حسناوات فما كان يدقق فى ملامح أو يتكلف الاختيار !

أما السير هنرى يول Henry Yule فعلامة محقق إنجليزى له دراسة قيمة مفصلة عن رحلة ماركو بولو للهند والصين ، وقد حقق كل ما ورد ذكره فيها من أسماء أعلام ، ثم حقق بعد ذلك جزء ابن بطوطة الخاص بهذه البلاد وترجمه إلى الإنجليزية . وقد اعتمد على عمله السير هاملتون جيب فى دراسته الممتعة لرحلة ابن بطوطة ومختاراته التى

ترجمها إلى الإنجليزية منها . وهذا الكتاب الأخير من أحسن ما لدينا عن رحلة ابن بطوطة فى اللغات الأوربية ، وهناك كذلك ترجمة الأستاذ فرانشسكو جبيرييلى الإيطالية ، وهى ترجمة دقيقة فاخرة الطباعة ، وقد قارن الرجل كلام ابن بطوطة إلى كلام ماركو بولو فى أجزاء كثيرة من كتابه ، وقد اعتمدنا عليه وأخذنا منه كثيراً .

٣٦

فى بلاد الملايو

بلاد الملايو

لا تفرق كتب الجغرافيا العربية بشكل حاسم بين بلاد جاوة وبلاد الملايو ، فاللفظان كانا يطلقان بغير تدقيق كبير أول الأمر على شبه جزيرة ملقا والمجموع العظيم من الجزائر الذى تتكون منه اليوم إندونيسيا أو هدونيسيا بتعبير أدق .

ثم أطلق لفظ بلاد الملايو على شبه جزيرة ملقا ، واقتصر لفظ سومطرة ، وجاوة الكبرى على جزيرة جاوة .

أما اسم سومطرة فجاء من اسم مدينة كانت فى شمالها تسمى سَمُطْرة أو سَمُدْرَة ثم حرفت إلى سومطرة ، وأطلقت على الجزيرة كلها .

وعندما دخل ابن بطوطة جاوة ، والمراد هنا سومطرة – كان أول نزوله بها سنة ٧٤٥ هـ /١٣٤٤م على وجه التقريب ، وكان عمر الإسلام فيها طويلاً ، فقد وصلها شيئاً فشيئاً على أيدى الحضارمة والعثمانيين وتجار المسلمين من جنوبى الهند .

ولكن غلبة الإسلام عليها ترجع إلى القرن الثانى عشر ، أى قبل وصول ابن بطوطة بقرنين ، فقد كثر دخول دعاة الإسلام فى سومطرة ، وهم خليط من العرب والفرس والهنود ، ويعد بعضهم من أجل دعاة الإسلام بالفعل ، فنشأت للإسلام قواعد فى أَتَشيَة وسَمُدْرَة فى شمالى سومطرة ، وقامت دول إسلامية محلية أسرعت بإسلام الجزيرة ونقلته إلى جاوة وبقية الجزر فى خبر طويل أجمله السير توماس آرنولد فى كتابه الجيد عن انتشار الإسلام الذى ترجم باسم الدعوة إلى الإسلام .

دخل ابن بطوطة إذن بلاداً إسلامية ، ولهذا فقد استقبل استقبالاً حفيًّا ، إذ كان أهل الجزيرة يرحبون بأى داخل مسلم ، وخاصة إذا كان من أهل الفقه والعلم ، أو كان من الصوفية وأهل الزهادة والتبتل .

وكان ابن بطوطة – برغم ماجرى عليه – لايزال يتشبث بأنه رسول سلطان الهند إلى سلطان الصين . ومن هنا كان إكرامه واحترامه ، ولهذا يقول بعد الكلام على نزوله البر فى « البندر » وهى قرية كبيرة على البحر ، بها دور يسمونها السَّرْحَى وبينها وبين البلد أربعة أميال [١] .

والبندر يراد بها العاصمة ، والغالب أنها مدينة سُمُدْرَة فى شمالى الجزيرة .

ثم يستطرد قائلاً : « ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر إلى السلطان فعرفه بقدومى ، فأمر الأمير دولة بقدومى » (ص٦٠٧) .

ويقول ابن بطوطة إن سلطان جاوة الصغرى ، وهى سومطرة ، عند دخوله كان السلطان الظاهر ، وليس هذا اسماً ، وإنما كان لقباً يطلق على سلاطين سومطرة ، وليس لدينا سجل بأسماء ملوك هذه النواحى قبل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، ولهذا فنحن لا نستطيع تحديد المراد بهذا السلطان .

ويثنى عليه ابن بطوطة قائلاً : « إنه من فضلاء الملوك وكرمائهم ، محب فى الفقهاء يحضرون مجالسه للقراءة والمذاكرة ، وهو كثير الجهاد والغزو ، ومتواضع يأتى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه ، وأهل بلده شافعية محبون فى الجهاد يخرجون معه تطوعاً ، وهم غالبون على من يليهم من الكفار ، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح » (ص٦٠٦) .

سلطان سومطرة

وقد لقى ابن بطوطة إكراماً زائداً من سلطان سومطرة ، فأعطاه هدية من الفوط مختلفة النسيج ، وملابس داخلية يسميها التحتانيات ، وأثوابا وعمائم وجاريتين وخادمين ثم لقيه السلطان وتحدث معه مليا .

ثم يصف لنا ابن بطوطة هيئة ركوب السلطان على الفيل ، يحف به خمسون فيلاً عن يمين وأخرى مثلها عن يسار ، ثم مائة فرس فى كل جانب « وأتى بخيل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب ، وأَرْسَان حرير مزركشة ، فرقصت الخيل بين يديه ، فعجبت من شأنها ، وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند » (ص٦١٠) .

---

(١) يذهب هاملتون جيب فى تعليقاته (ص ٣٦٧ رقم ٥) إلى أن الغالب أن السرحى اسم مدينة .

وعلى عادة ابن بطوطة لايفوته أن يصف لنا بكل تدقيق كل صنف جديد يلقاه من النبات والحيوان ، وهو هنا يصف شجرة اللبان وشجر الكافور والعود الهندى ، والقرنفل .

مل جاوة

ثم يحدثنا ابن بطوطة بعد ذلك عن سلطان بلد يسمى مُل جاوة وقد تحير الدارسون والشراح فى أمر هذا البلد : فذهب بعضهم إلى أن المراد به جزيرة جاوة نفسها ، ولكن أرجح الآراء هو ماذهب إليه السير هنرى يول من أن المراد به شبه جزيرة ملقا ،[١] ومعنى هذا أن ابن بطوطة غادر جزيرة سومطرة فى طريقه إلى الصين فى الغالب دون أن ينبه إلى ذلك .

فإذا صدق تقدير الباحثين من أن مُل جاوة هى ملقا فإنه يصف الآن بلداً جديداً هو ملقا ، ويقول : إن سلطانها كان كافراً . وقد سمع هذا السلطان بأمر ابن بطوطة فاستدعاه ، فلما جاء حياه ابن بطوطة بقوله : السلام على من اتبع الهدى ؛ لأن ذلك السلطان كان كافرا ولاتجوز تحيته بتحية المسلمين .

ثم يقول : إن السلطان دعاه إلى الجلوس معه فجلس ، وسألنى عن السلطان (محمد تغلق) فأوجز فى جوابه ، وقال لى : تقيم فى الضيافة عندنا ثلاثة أيام ، وعندئذ يكون انصرافك .

وفى سياق ذلك يصل إلى بلد يسمى قاقلة ، وأغلب الظن أنه بلد على الشاطئ الشرقى لشبه جزيرة الملايو أى ملقا ، وهو على مقربة من كيلانتان Kelantan الحالية .

الإبحار من ملقا إلى الصين

ومن هناك ركب ابن بطوطة السفينة التى حملته إلى الصين ، وهو لايذكر أنه خرج إلى الصين ، ولكننا نستنتج ذلك من السياق ، فقد وصل بعد رحلة أربعة وثلاثين يوماً فى البحر إلى البحر الكاهل . وهو يصفه بقوله : « وهو الراكد وفيه حمرة زعموا أنها من تربة أرض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه . ولأجل هذا البحر

---

(١) E. Delaurier, in Journal Asiatique (Fevrier, Mars 1847); Gabriel Ferrnd: Textes, Arabes relatifs à l'Extrême Orient II (Paris 1914) PP. 436-455; H.Gibb-Op. cit.P.367.n.s.

تتبع كل جَنْك من جنوك الصين ثلاثةُ مراكب كما ذكرنا ، تجذف فيه فتجره ، ويكون فى الجَنْك مع ذلك نحو عشرين مجذافاً كباراً كالصوارى « يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلاً أو نحوها » (٦١٤) .

والبحر الكاهل كلمة مركبة من لفظين : عربى وهو البحر والكاهل فارسى معناه الراكد . وقد سماه بعض الرحالة المسلمين بالبحر الزفتى وبحر الظلمة ، ووصفوه بأنه فى أقصى المشرق ؛ كما أن بحر الظلمات فى أقصى المغرب . ومن هنا فالغالب أن المراد به بحر الصين ، وكان لابد لابن بطوطة من أن يمر به فى طريقه إلى الصين .

بلاد طوالسى

وقد قضت السفينة فى هذا البحر سبعة وثلاثين يوماً وصلت بعدها إلى بلاد طوالسى « وهو اسم ملك هذه البلاد ، وهى بلاد عريضة ، ومَلكها يضاهى ملك الصين ، وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصالحوه على شىء . !

وقد تحير الباحثون فى أمر بلاد طوالسى هذه ، فقالوا : إن المراد بها جزيرة سلبيس أو تونكين أو كمبوديا أو كوشن صين أو ولاية كوان سى أو جزر الفلبين أو أرخبيل سولو (أوخولو) وقد غلب على رأى سير هنرى يول أن المراد بذلك أرخبيل سولو من جزر الفلبين ؛ لأن خط السير يؤدى إليها .

وهو يقول : إن أهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان الصورة ، أشبه الناس بالترك ، والغالب على ألوانهم الحمرة ، ولهم شجاعة ونجدة ، ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ، ويقاتلن كالرجال سواء . وأرسينا من مراسيهم مدينة كليوكرى » (ص٦١٤) .

ومادمنا لانعرف على وجه التحقيق أين نحن فلامعنى لمحاولة تحقيق مدينة كليو — كرى هذه . ولكن الذى يستوقف النظر هنا قوله : إن أهل هذه البلاد يشبهون الترك مع أننا فى بلاد يسودها الجنس الأصفر بملامحه المعروفة ، ولكن الغالب أنه يريد مغول القفجاق ، فقد كانوا عنده أتراكاً ، مع أن ملامحهم مغولية .

ثم يعزز كلامه بالقول بأن على هذه البلدة سلطانة لا سلطان ، واسمها تركى هو أُرْدُوجا ، وقد سبق لابن بطوطة أن أعطى الخاتون الرابعة من زوجات السلطان محمد أوزبك خان اسمها شبيها بذلك . وقد ذهب يول وفون مجيك إلى أن اسم هذه الملكة

اختلط على ابن بطوطة ، وأن صحة اسم السلطانة الباسلة التى لقيها هو إيجاروك وهو اسم الخاتون التى ذكرناها .

وكانت بالفعل امرأة ذات قوة وجلد ولها جيش من النساء يشبه جيش الرجال الذى كان عند أردوجا . ومن الممكن أن نبأ هذه السلطانة التركية قد ذاع حتى وصل إلى هذه النواحى وسمعه ابن بطوطة ممن كان يصاحبهم من أهل البحر ، فغلب على ظنه أنها السلطانة التى رآها فى بلدة كليوكرى .

وجدير بالذكر هنا أن هناك بالفعل فى جنوب شرقى الهند ميناء يسمى كايلوكرى

وقد سبق أن ذكره ابن بطوطة نفسه وقال : إن سلطانها يسمى طيالسى ومن هنا سافر ابن بطوطة بالبحر حتى وصل ساحل الصين ، وهى منتهى مطافه شرقا . ويبدو أن التعب حل به بعد هذا السفر الطويل ، فاختلطت عليه الأسماء والأماكن وتشابه البقر علينا معه . وغريب أمر ابن بطوطة مع البحر : فإنه لايهابه أبدا ، ولم يركب مرة متن الأمواج وأبدى خوفاً أو تحدث عن تعب إلا مرة أو مرتين .

أما ماعدا ذلك – وهذا الرجل ركب بحار الدنيا المعروفة كلها – فما هاب الأمواج مرة ، ولقد أحصيت رحلته فوجدت أن نصفها كان بالبحر . وقد قام فى بعض الأحيان برحلات هائلة فى البحر مثل انتقاله من سُفالة على الشاطئ الشرقى لأفريقية فى موزمبيق الحالية إلى ظُفار على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ، وهى رحلة تزيد على الشهر ولم يذكر لنا كيف قام بهذه الرحلة المخوفة ، ونحن لا نشك فى أنه قام بها ، ولكن العجب أنه لا يشير إليها .

والحقيقة أن ذلك الرجل رزق بدناً عفيًّا قادراً على تحمل الشدائد والصبر على المكاره دون تعب ، فقد رأينا ماعاناه من عناء رحلات البر . ويكفى مالاقاه من المتاعب فى الهند ، وماقاسى من الشدائد هناك . أما البحر فيبدو أن ابن بطوطة كان يستروح السفر فيه ، ولا تخيفه أمواجه ، فقارن هذا بما نجد عند ابن جبير من الشكوى المرة من البحر ، وقد ركبه فى حياته مرتين فحسبُ وقال :

البحر صعب المرام جدا ... لا جعلت حاجة إليه
أليس ماء ونحن طين ؟ ... فما عسى صبرنا عليه !

٣٧
الصيـــن

شكوك حول دخـول ابن بطوطة أرض الصين

حاول نفر من العلماء أن يلقوا ظلالاً من الشك على إمكان وصول ابن بطوطة إلى الصين ودخوله أراضيها ، ولكننا عند الدرس الدقيق لكلام الرجل عن زيارته للصين ومارآه نرانا أميل إلى تصديقه ؛ لأن كلامه يتضمن الكثير من الحقائق التى تؤيدها معلوماتنا عن البلاد فى ذلك العصر ، وتؤيدها كذلك أقوال ماركوبولو الذى زار الصين قبل ذلك بقليل .

وابن بطوطة فى جملته رجل صادق غير متكلف أو مدع ماليس له ، وفى أحاديثه الكثير من الأشياء التى لاتزيد قدره ، ومع ذلك فقد ذكرها على علاتها ، أما الأخطاء التى وقع فيها فى كلامه عن الصين فأخطاء معقولة ومفهومة كما سنرى .

وصفه العام للصين

يقول ابن بطوطة بعد دخوله الصين دون أن يحدد مدخله إليها : « وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة ، لا يضاهيه فى ذلك إقليم من أقاليم الأرض ، ويخترقه النهر المعروف بآب حياة معنى ذلك ماء الحياة ، ويسمى أيضا نهر السِّبر (السرو) كاسم النهر الذى بالهند ، ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق (بكين) تسمى كوه بوزنه معناه جبل القرود ، ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهى إلى صين الصين (كانتون) ، تكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة » (ص٦١٦)

نهر الحياة

ونحن لانعرف فى الصين نهراً كهذا يجرى من عند بكين فى الشمال إلى كانتون فى الجنوب ، وقد اعتمد على هذا الزعم الواضح الخطأ الكثيرون من العلماء ؛ ليقولوا بأن ابن بطوطة لم يصل إلى الصين ، أو وصل إلى ساحلها ، ولم يدخلها ؛ وقد علق على ذلك هاملتون جيب بقوله : « ينبغى أن نذكر أنه لم يعرف من الصين إلا الشريط

الساحلي الصغير ، الذى زاره مضافاً إلى ذلك ما عسى أن يكون قد جمعه من المعلومات من أفواه الناس (ولم تكن تلك الأقوال مما يعتمد عليه ولا شك) .

وابن بطوطة فى هذه العبارة لم يكن إلا مردداً لآراء أهل عصره . قال جيب : « ونهر الحياة الوارد هنا إنما فى جزئه الأول القناة الكبيرة التى كانت تجرى بين بكين ونهر اليانج – تسى ، وقد كان تجار الساحل (ومنهم أخذ ابن بطوطة هذه المعلومات) يعرفون بصورة يشوبها الإبهام الشبكة المائية الداخلية التى كانت تصل هانج – تشاو واليانج تسى بالنهر الغربى وكانتون ربما عن طريق سيانج كيانج .

ونتيجة لذلك اعتبروا مصب باى – كيانج مصبا لكل الشبكة المائية[١] .

هذا ومازالت أجزاء من القناة الكبرى الممتدة من بكين إلى اليانج – تسى باقية إلى اليوم .

رأى علماء الغرب فى زيـــــارة ابن بطوطة للصين

ويضيف جيب ملاحظة لها وجاهتها يقول فيها : إن هناك صعوبة أكبر من هذه تتعلق بما أراده ابن بطوطة من قوله إن زيتون (تسوان – تشاو – فو Ts'wan-chew-fu كانت تتصل بكل من كانتون وهانشو Hang Chow بمجار مائية داخلية ، لأن المفروض أنه يتكلم عن مشاهدة شخصية ، فلم يكن من المنتظر أن يقع فى هذا الخطأ .

ويقول جيب هنا إن ابن بطوطة يهمل ذكر المسافات كما فعل فى كلامه عن الرحلة من قاليقوط إلى كَوْلَم معتبراً هذا أمراً ذا أهمية ثانوية ، أوربما يكون قد أنسى ذكرها خلال السنوات العشر التى انقضت بين زيارته للصين وكتابته نص الرحلة .

ويقول : « وجدير بالملاحظة أن الكتّاب الآخرين – بما فيهم بعض الصينيين أنفسهم – يقولون إن زيتون على شبكة القنوات التى تقع عليها نفسها هانشو (وهى التى يسميها ابن بطوطة الخنسا وعند رحالة الأوربيين كِنْسَى Quincy[٢] .

ويتحدث ابن بطوطة عن فخار الصين المشهور فيقول إنه لايصنع إلا بمدينة الزيتون

---

(١) H.A.R. Gibb, Ibn Battuta. Travels in Asia and Africa, P. 368, n. I

(٢) انظر بالإضافة إلى يول وفون بجيك مقال ر . هارتان فى مجلة الإسلام الألمانية Der Islam. IV, 434.

تسوان – تشاو – فو إلى الشمال قليلا من فوتشو[١] الحالية ، وبصين – كلان التى يراد بها الصين الجنوبية . ويصف طريقة صنعه والمواد المستخدمة فى ذلك . وقد لاحظ بعض العلماء العارفين بصناعة الخزف أن ابن بطوطة أخطأ فى وصف طريقة الصنع والمواد المستعملة فيه ، ولكنه يقرر أن ذلك الفخار الصينى« يحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب ، وهو أبدع أنواع الفخار » (ص ٦١٧) .

ويقول ابن بطوطة : إن دجاج الصين وديوكها ضخمة جدًّا ، ويضيف : « ولقد اشترينا دجاجة وأردنا طبخها ، فلم يسع لحمها فى برمة واحدة ، فجعلناه فى برمتين » ، أما الإوز عندهم فلا ضخامة فيه ، وقد تحدث عن ضخامة ديكة الصين رحالة إيطالى هو القس أودوريك دى بوردينونى Odoric di Pordemone إذ قال إنها أضخم ديكة فى الدنيا ، ولكنه يقول إن إوزّ كانتون أيضاً كبير الحجم : « وهو أكبر حجماً وأطعم مذاقاً وأرخص ثمناً مما فى أى مكان فى الدنيا »[٢] .

ويقول ابن بطوطة : « وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم ، كما تفعل الهنود وملك الصين تَتَرِىّ من ذرية جنكيزخان وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها ، وهم منظمون محترمون » (ص ٦١٧) .

وكلام ابن بطوطة هنا صحيح تؤيده وقائع التاريخ ، فقد كانت تحكم الصين أيام دخلها أسرة يوان Yuan وكان جنكيزخان قد غزا شمالى الصين وجعلها جزءاً من امبراطوريته يحكمها من قراقورم وهى عاصمته ، وبعد وفاته فى سنة **١٢٢٧م** واصل خلفاؤه غزو الصين فقضوا على دولة تشين Chin ثم نفذوا إلى شِسْوان .

وفى سنة **١٢٦٠م** أنشأ قوبلاى خان حفيد جنكيزخان أسرة يوان ، واستمر يحارب حتى وحد الصين كلها تحت رايته سنة **١٢٨٠م** ، وجعل بكين عاصمة ، وأعيد إنشاء القناة الكبرى التى تجرى الآن من هانشو Hang Chow إلى أحواز بكين ، وكذلك أعيد تنظيم قنوات الرى فى إقليم Kanu وقاعدته هانشو التى يسميها ابن بطوطة خنسا

---

(١) وتسمى الآن تشوان – شاو – فو Chuan-Chow-fu

(٢) قال ذلك أيضاً ماركو بولو وفيه شك انظر Cathay, 11,181-185.

وكانت تسمى فى الماضى Quinsay .

وشقت الطرق ونظم البريد ونشطت البحريات والتجارة الخارجية ، وأنشئ ديوان التجار فى شوان شو Chüan-Chou سنة ١٢٧٧ م . ثم بعد ذلك فى نِنْجبو Ningpo وشنغهاى وغيرها من الموانى وعلى تلك المناطق من الساحل نزل ماركو بولو ثم إن ابن بطوطة من بعده ، وقد تعاصر الرجلان بعض الوقت ، فقد توفى ماركو بولو سنة ١٣٢٤ م أى فى السنة التى بدأ فيها ابن بطوطة رحلاته وعمره اثنتان وعشرون سنة .

وقام ابن بطوطة بعد ذلك برحلاته وعمر إلى سنة ١٣٧٨م. وفى أيام قوبلاى خان عظم أمر المسلمين فى البلاد حتى قامت فى ناتان شان فى مقاطعة يونان الحالية (إلى الشمال من الفيتنام) مملكة إسلامية . وانتشر المسلمون فى جنوبى الصين وساحلها الشرقى . ودخلها من الغرب فى إقليم سنكيانج جاليات عظيمة من صينيين أسلموا وعرب وفرس وترك وهنود .

هناك مايبرر دخول ابن بطوطة الصين

وكان يحكم خانيَّة فارس والعراق التى تتاخم حدودها الشرقية حدود الصين الغربية — سلطان آخر من حفدة جنكيزخان هو هولاكو المشهور فى تاريخنا ، ثم خلفه أولاده وأهمهم عندنا قازان الذى أسلم وفتح أبواب مملكة يوان للمسلمين فدخل يوان — وهى الصين الجوبية علماء مسلمون كثيرون قامت على أكتافهم حضارة الصين فى عصر أسرة يُوان ، ثم ضعف أمر هذه الدولة بعد أيام قوبلاى خان وحفدته ،وفى هذه الفترة دخل الصين ابن بطوطة .

ومما يؤيد دخوله فيها ومعرفته بأهلها وأحوالها معرفة مباشرة كلامه عن استعمال العملة الورقية فى الصين ، قال : «وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع مايتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغدٍ ، كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرون قطعه منها بَالِشْت ، وهو بمعنى الدينار عندنا ، وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جددا ووضع تلك ولايعطىِ على ذلك أجرة ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان (٦١٨) .

ويعتبر ذيوع العملة الورقية دليلاً على الهبوط الاقتصادى . فقد تسرب الذهب والفضة إلى الخارج ، وفى أوقات التدهور السياسى واضطراب الأمن يؤثر الناس الاحتفاظ بما لديهم من ذهب وفضة ، وقد أشار ابن بطوطة صراحة إلى ذلك عندما قال « وجميع مايتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه » . وهذا يؤيد ماقاله من قبل .

« وجميع أهل الصين إنما يحتفلون فى أوانى الذهب والفضة » وهذا الاحتفال معناه الاهتمام والادخار ، ويقول فى ذلك : « وعاداتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه ومادونه ، ويجعل ذلك على باب داره .

ولانحسب أنهم يجعلونها على الباب بل يودعونها كهوف المخابئ . وقد استمر التدهور المالى حتى فقدت عملة الكاغد قيمتها تماماً وأوقف طبعها سنة ١٣٥٦م . وفى سنة ١٣٦٨م ، انتهى حكم المغول وقامت أسرة بينج (١٣٦٨ – ١٦٤٤م) ، وفى عهد هذه الأسرة اضطهد المسلمون وتضاءل أمرهم فى البلاد بسبب استبداد أباطرتها وتعصبهم المطلق .

فكأن ابن بطوطة كان آخر رحالة مسلم زار الجاليات الإسلامية فى الصين فى أوجها أيام أسرة يوان . وهذا وحده كفيل بأن يعطى ابن بطوطة مكاناً بين كبار أهل الفكر والعلم من المسلمين . فمعظم معلوماتنا عن الإسلام فى الصين يرجع إلى ملاحظات وتفاصيل نجدها فى مروج الذهب للمسعودى ، وهى مع ذلك تحدثنا عن دخول الإسلام الأول أرض الصين . ومعظم كلامه عن جالية المسلمين فى كانتون وهى التى يسميها ابن بطوطة صين كلان ، وهى فى رأيه قاعدة النصف الجنوبى من الصين المسمى بصين الصين ، أى الصين الحقيقية ، أما الصين الشمالية فهى عند ابن بطوطة بلاد الخطأ ، والخطأ من المغول ، ومن هنا جاء الاسم القديم لبلاد الصين وهو كاتاى Cathay

ومن كلام ابن بطوطة نفهم أن المسلمين كانوا فى عهد أسرة يوان وهم خلفاء قبلاى خان ذوى شأن عظيم ، فقد كانت لهم الأحياء الخاصة بهم فى المدن ، وكانوا يعيشون

فى أحيائهم مكرمين آمنين . وكانوا على درجة كبيرة من الغنى وعلو الشأن ، ثم انحدر أمرهم عندما زالت دولة يوان وجاءت دولة بنج ، وهى دولة صينية صرفة ارتدت بالصين إلى الوراء وأقفلت أبوابها دون أى تأثير أجنبى . ولهذا طارد ملوك أسرة بنج كل الأجانب مسلمين وغير مسلمين .

ويستوقف نظرنا كلامه عن فخار الصين وامتيازه ورقته ودقة صنعه . وهذا يفسر لنا تسميتنا لكل آنية فخارية دقيقة الجدار بديعة الرسم باسم الصينى ، ولايقتصر الأمر علينا ، فأوروبا هى الأخرى تسمى آنية المائدة والزينة من الفخار الأبيض المطلى بالميناء ، والمزين بالرسوم باسم آنية الصين ، وفى الإنجليزية مثلاً يقولون : China أو China Ware

٣٨

صورة الصين عند ابن بطوطة

العملة الورقية والبالشت (السافانا)

ذكر ابن بطوطة فى الصين دراهم الكاغد ، وقال إن الخمسة والعشرين منها تسمى بَالِشْت ، والبالشت أو البالش كان عملة متداولة خلال القرن الثالث عشر فى مناطق الحشائش الطويلة (السافانا) الممتدة شمال البحر الأسود وبحرى قزوين وأورال – وهو بحر خوارزم – وشرقى الصين ، وكانت قطعة من المعدن تزن أربعة أرطال إنجليزية ونصف الرطل أى كيلو جرامين وربع الكيلو على وجه التقريب . وربما يكون المغول هم الذين أدخلوا هذه العملة واسمها بلاد الصين وقد ذكر ماركوبولو « دراهم الكاغد » أيضاً[1] .

ويستوقف نظرنا أن ابن بطوطة يقول مثلاً : « وجميع أهل الصين والخطا إنما فحمُهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا » ، فكأن الصين والخطا عنده شيئان مختلفان ، وهذا صحيح فى زمان ابن بطوطة إلى القرن السادس عشر فيقولون بلاد الخطا أو الخطاى ويريدون بذلك الجزء الشمالى من الصين .

أصل اسم الصين

والخطاى أو القطاى فريق من الترك غلبوا على شمالى الصين وأنشئوا فيه دولة حكمت بكين خلال القرنين العاشر والحادى عشر وهى أسرة لياو ، وقد ظل الاسم ملازما لشمالى الصين فسماه العرب بلاد الخطا ، وعنهم أخذه الأوروبيون فسموا الصين بلاد كاتاى Kathay كما قلنا .

أما لفظ الصين أو الشين فقد أخِذ من اسم أسرة تشين Tsin التى حكمت جنوبى الصين فيما بين سنتى ٢٥٥ و ٢٠٩ قبل الميلاد ، فلزم الاسم جنوبى الصين بعد ذلك ، ثم غلب على البلاد كلها فيما بعد .

---

(١) انظر الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٤٢٣ وما بعدها .

وجدير بالذكر أن البرتقال ، وأصله البعيد من الصين يسمى إلى الآن فى المغرب لتشين وهو اختصار وتحريف لاسمه القديم : تفاح الشين أو تفاح الصين ، فكأن لفظ الشين استعمل للدلالة على الصين فى المغرب .

ويستوقف النظر أن هذا هو اسم البرتقال فى الألمانية الأصيلة فيقولون Appelsienen أى تفاح الصين أو السين ، حتى غلبت اللفظة الأخرى عليها وهى orangen بالألمانية وهى أيضا كلمة شرقية ، فأصلها فارسى هو النارنج ، وتحت هذا الاسم نقل المسلمون البرتقال إلى أوروبا عن طريق إسبانيا ، فسمى البرتقال ولايزال يسمى نارانجا naranja وعن الإسبان أخذ الأوروبيون اللفظ محرفا فقالوا Orange .

مهارة أهل الصين فى الصناعات والتصوير

ويقرر ابن بطوطة ما اشتهرت به الصين عند العرب فى العصور الوسطى من إتقان الصناعات والمهارة فى الرسم ، وهو يقول فى ذلك : « وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقانا فيها ، وذلك مشهور من حالهم فيها .

وقد وصفه الناس فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سواهم ؛ فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً ، ومن عجيب ماشاهدت لهم من ذلك أنى مادخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا رأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد ، موضوعة فى الأسواق » (ص٦١٨) .

ثناء ابن بطوطة على حكومة الصين

ويروى ابن بطوطة الكثير من نظم الصين وعادات أهلها مما يهم المؤرخ ، ومن ذلك رقابة الحكومة الشديدة على سفر الصينيين إلى الخارج ، فهم يقيدون اسم كل خارج من البلاد ، ويعتبرون صاحب الجَنْك مسئولاً عن عودته ، ويحرصون على سلامة التجار الأجانب وأموالهم سواء أنزلوا ضيوفاً على تجار من أصحابهم أو نزلوا فى الفنادق ؟ وهو يثنى ثناء عظيماً على الأمن فى البلاد وحرص الحكومة على سلامة المسافرين على الطرقات .

مدينة زيتون

ثم يرسم لنا خط سيره فى البلاد ويقول إنه أرسى فى مدينة زيتون ويقول : « وهذه المدينة ليس بها زيتون ، ولا بجميع أهل الصين والهند ، ولكنه اسم وضع عليها » ، ويقول إنها : ميناء عظيم ، ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها ، رأيت به

نحو مائة جنكٍ كبارٍ ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة ، وهو خور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالنهر الأعظم ، والمراد بالخور هنا هو فم المصب الواسع الذى يسمى بالإنجليزية estuary .

ابن بطوطة يلتقى هو ونفر من وفد سلطان الهند إلى ملك الصين

ثم يذكر كيف لَقِيَ الأمير الصينى الذى وفد إلى ملك الهند ، ثم رافقه بعد ذلك فى بداية رحلته إلى الصين ثم غرق به الجَنْك ، وقدمه إلى « صاحب الديوان » . والغالب أن المراد بالديوان هنا الإدارة المسئولة عن تجار الأجانب والتجارة الأجنبية فى الموانى ، وقد عرفت موانى مصر والمغرب ديوان المرسى الذى كان يقوم بهذه المهمة ، ويراقب جاليات التجار الأجانب .

ديوان المرسى

ويذهب جيب إلى أن هذا النظام انتقل إلى الموانى الأوربية فى البحر الأبيض ، ومن هنا جاء لفظ douane الفرنسى و dogana الإيطالى و aduana الإسبانى بمعنى الإدارة الخاصة بمراقبة الداخلين إلى الموانى ومراكز الحدود والخروج منها وفى العصور الوسطى كان الديوان يرتب شئون الإقامة والمبيت للتجار الأجانب كوسيلة من وسائل الرقابة عليهم وفيهم من الوثائق أن صاحب الديوان كان يعتبر من كبار موظفى الدولة نظراً لأهمية وظيفته [(١)]

ابن بطوطة وتجار المسلمين

وقد رحب به تجار المسلمين فى المدينة ، وقال إن هذا شأنهم مع من يفد عليهم من تجار المسلمين ، وأنهم يعطون التاجر الغريب زكوات أموالهم ، فيعود كواحد منهم ، وهنا نرى مثلاً آخر على تطبيق المسلمين لأحكام القرآن الكريم الخاصة بابن السبيل .

ويذكر ابن بطوطة أن قاضى المسلمين فى زيتون كان يسمى تاج الدين الأردويلى ، وأن شيخ الإسلام كان يسمى كمال الدين عبدالله الأصفهانى .

وأضاف أن صاحب الديوان كتب فى شأنه إلى « القان » فأمر هذا بإرساله إليه والقان أو القاءان هو الخان الكبير أو ملك المغول ، وهو لقب الخاقان التركى نفسه .

رحلته للقاء خان الصين

ثم يذكر أنه سافر فى النهر سبعة وعشرين يوماً ، وفى كل يوم « نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج إليه ، ونصلى الظهر ، ثم ننزل بالعشى إلى أخرى ، وهكذا

(١) انظر :

mas Latrie, Relations de Commerce de L'Afrique Septentrionale, P.335 ff.

إلى أن وصلنا إلى مدينة صين كلان وهى مدينة الصين ، وبها يصنع الفخار ، وبالزيتون أيضاً ، وهناك يصب نهر آب حياة فى البحر ، ويسمونه مجمع البحرين ، وهى من أكبر المدن وأحسنها أسواقا »(ص ٦٢٣) .

وصين كلان هى الصورة العربية للاسم الفارسى شين كلان ، والسنسكريتى ماهاسينا ومعناه الصين الكبيرة ، والمراد من كلامه أنه وصل إلى مدينة الصين الكبيرة وهى صين كلان أو كانتون ، وهى عاصمة صين الصين أى إقليم الصين الحقيقى ، ويراد به نصف الصين الجنوبى ، فى حين أن بلاد الخطا كانت الصين الشمالية ، وقاعدة الصين الجنوبية أو صين الصين هى كانتون وهى المعنية بلفظ سين كلان هنا .

والطريق النهرى الذى سار فيه ابن بطوطة من زيتون وهى تسوان — شاو — فو إلى كانتون غير واضح ، أو هو كما وصفه — معقد طويل فى حين أن ابن بطوطة كان يستطيع كما يقول هاملتون جيب — أن يصل إلى كانتون عن طريق نهرى ماى وتونج إذا كانت الملاحة فيهما ميسورة .

مدينة المسلمين فى زيتون

وبعد أن يصف ضخامة هذه المدينة وأحيائها وأبوابها يقول : « وفى بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين ، ولهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ، ولهم قاض وشيخ ، ولابد فى كل بلد من بلاد الإسلام من شيخ إسلام ، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه ، وقاض يقضى بينهم .

وكان نزولى عند أوحد الدين السنجارى ، وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوى الأموال الطائلة ، وأقمت عنده أربعة عشر يوماً ، وتحف القاضى وسائر المسلمين تتوالى علىّ ، وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ، ويأتون إليها بالعشارين الحسان والمغنين » (ص ٦٢٣) .

ولم أفهم المراد بلفظ العشارين ، ولكنى أستنتج من معانى صور أخرى للفظ عشار أن المراد بذلك فتيات أو فتيان ذوو عشرة حسنة .

ويقول : « وليس وراء هذه المدينة مدينة ، لا للكفار ولا للمسلمين » . وابن بطوطة يتحدث هنا عن شيء سمعه لاعن شيء رآه ، وربما كانت الجهات التى تلى كانتون فى الشمال والشرق فى تلك العصور مجاهل خالية .

ويضيف : « وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوماً فيما ذكر لى ، يسكنها كفار رحالة يأكلون لحم بنى آدم إذا ظفروا بهم . ولذلك لاتسلك بلادهم ، ولايسافر إليها ، ولم أر تلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رآه » (ص٦٢٣)

والأغلب أن المراد هنا سور الصين العظيم ، ولم يكن يصل إلى كانتون ، ولهذا يقول ابن بطوطة : إنه لم يره . أما آكلة لحوم البشر الذين يذكرهم فقد ذكرهم ماركوبولو أيضاً .

ثم وصل ابن بطوطة إلى زيتون ، أى تسوان تشاو فو ، فوجد أن أمر القان قد وصل بإرساله إليه ، فأركبوه مركباً فى النهر واتجه إلى خان بالق ، وفى الطريق وقف بمدينة قَنْجَنْفُو ، وهو يثنى على جمالها وكثرة زروعها ، فكأنها « غوطة دمشق » كما قال . وقد حقق أمرها السير هنرى يول وقال : إن الغالب أنها مدينة كيان – تشانج – فو Kien-Chang-Fu على نهر فو – هو Fu-Ho فى مقاطعة كيانج – سى Kiang-Si

ويعترض جيب على ذلك ويرى أن ذلك التحديد يقتضى قيام ابن بطوطة برحلة طويلة إلى هانشو – ويرى أن المراد بها فوتشو Fuchow أما فِران Gabriel Ferrand فيرى أن المراد بها Kenjanfu التى ذكرها ماركو بولو واسمها اليوم سى – آن – فو Si-an-fu .

وتنتهى مناقشة جيب لمختلف الآراء حول حقيقة هذا البلد قائلاً إن الأسلم أن نقول إن قَنْجِنْفُو هى مدينة فوتشو التى ذكرها الكثيرون من المسلمين ، أو أن ابن بطوطة خلط بين اسم هذه المدينة ومدينة أخرى[١] .

وعندما نقرأ مناقشات أولئك العلماء الأجلاء ونقارنها بما نجد من دراسات ابن بطوطة عندها نشعر بشىء من الخجل لأن الدارسين عندنا يستسردون الأمور ويفضلون أن ينطلقوا مع أحاديث العجائب والغرائب ، غير متكلفين جداً ولاتعباً معتقدين أن تمجيدهم للنابهين من أهل هذه الأمة يغنى عن بذل المجهود .

---

(١) H.A.R. Cibb, Op. Cit. P.37/n. 19

٣٩

وصوله إلى خان بالق
وهى بكين

المسلمون فى قنجنفو يحتفون بابن بطوطة

استقبلت الجالية الإسلامية فى قنجنفو ابن بطوطة استقبالاً حفيًّا ، فخرج لاستقباله القاضى وشيخ الإسلام والتجار ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار – جمع نفير وأهل الطرب ، « أتونا بالخيل وركبنا ومشوا بين أيدينا » (ص ٦٠٥) ولا غرابة فى ذلك فقد كان الرجل سفيراً لملك الهند .

وفى قنجنفو لقى مواطناً من مواطنيه المغاربة يسمى قوام الدين السبتى ، ففرح للقائه حتى بكى ، وكان هذا الرجل طائل الثراء .

نفوره من بلاد الصين

ثم يقول ابن بطوطة : « وبلاد الصين – على مافيها من الحسن – لم تكن تعجبنى ، بل كان خاطرى شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها ، فمتى خرجت من منزلى رأيت المناكير الكثيرة ، فأقلقنى ذلك حتى كنت ألازم المنزل ، فلا أخرج إلا لضرورة ، وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأنى لقيت أهلى وأقاربى » . (ص٦٢٦) .

مدينة الخنسا

ومن قنجنفو انتقل ابن بطوطة إلى مدينة الخنسا ، وهى كنساى Quinsay الحالية ، وقد ذكرها ماركوبولو باسم Kinsay ، وأثنى عليها ثناء يعادل ما يقوله ابن بطوطة عنها ، فهى عنده أكبر مدينة فى الدنيا ، ويؤيد هاملتون جيب ذلك فيقول : إن كنساى كانت أكبر مدينة فى الدنيا فى القرن الرابع عشر الميلادى .

ولقى ابن بطوطة فى هذا البلد استقبالاً حافلاً ، وهو يقول إنه مكون من ست مدن ، المدينة الثالثة منها يسكنها المسلمون ، ثم يقول : « ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الإسلام ، وبها المساجد والمؤذنون . سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ، ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصرى ، وكان أحد التجار الكبار ،

استحسن هذه المدينة فاستوطنها ، وعرفت بالنسبة إليه ، وأورث عقبه بها الجاه والحرمة ، وهم على ماكان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين ، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة ولها أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية ، وبنى عثمان المسجدَ الجامع بهذه المدينة ، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمة . وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير. وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً » (ص ٦٢٩) .

وبعد أن زار ابن بطوطة المدينة السادسة من مدن الخنسا وهى مدينة الحاكم وهو الأمير قَرَطَى – زوده هذا الأمير بما يحتاج إليه للسفر إلى خان بالق ، وهى بكين وقنجنفو فى رأيه هى آخر أعمال الصين .

وبعد خروجه منها دخل بلاد الخطا ، وهى الصين الشمالية ، « وهى أحسن بلاد الدنيا عمارة ، ولايكون فى جميعها موضع غير معمور . والرحلة من الخنسا إلى خان بالق تستغرق أربعة وستين يوماً . وقد وصل إليها ابن بطوطة ، وإن كان السير هنرى يول يرى أن ابن بطوطة لا يمكن أن يكون قد تعدى هانشو Hang Chow فى رحلته . وهانشو قريبة من شنجهاى ، وهى على الساحل أيضاً إلى جنوبها الغربى .

يقول ابن بطوطة : إن خان بالق تسمى أيضا خانقو ، ولاخطأ فى ذلك ، لأن اسم خان بالق مغولى ، والمغول هم الذين أطلقوه على بكين ، ومعناه مدينة الخان ، وقد حرف هذا الاسم كتاب الغرب فكتبوه Cambalu أو Cambuluc أما خانقو فمعناه الخانية أى مدينة الخان . أما اسم البلد الأصلى Pei-ching فهو الأصل الذى جاء منه اسم بكين ، وهى كانت دائماً عاصمة الصين الشمالية ، وهذا هو معنى الاسم الصينى .

ويقرر ابن بطوطة أن خان بالق هى حضرة القان ، والقان هو سلطانهم الأعظم الذى مملكته بلاد الصين والخطا ، « وهى من أعظم مدن الدنيا ، وليست على ترتيب بلاد الصين فى كون البساتين داخلها ، وإنما هى كسائر البلدان ، والبساتين بخارجها ، ومدينة السلطان بوسطها كالقصبة » (ص ٦٣١) .

وكان ملك الصين فى ذلك الحين هو توجون – تيمور – Togon Timur

(٣٣١هـ – ١٣٧١م) ، وهو آخر أباطرة أسرة يوان المغولية ، وخلفتها أسرة بينج وهى أسرة صينية أسسها تشويوان تشانج الذى تسمى بعد ذلك باسم هونج Hung-Wu وعلى يدى هذه الأسرة (١٣٦٨م–١٦٤٤م) انتهى عصر سيادة المغول فى الصين ، وانتهى بذلك عصر رخاء جاليات المسلمين فى الصين ، فكأن ابن بطوطة رأى الجاليات الإسلامية الساحلية فى أوجها ، وبعد ذلك أخذت تتلاشى ، ولكن الإسلام فى الصين ظل ممثلاً – إلى يومنا هذا – فى ولايات يونان وسنكيانج حيث دخلها من الغرب ، وهنا لانجد جاليات تجار ، وإنما مسلمين صينيين ، أى مسلمين من أهل البلاد .

ويرى ابن بطوطة أنه ليس للكفار على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكة قان الصين وهو يصف قصره وصفاً مطولاً لايصدر إلا عن مشاهدة شخصية .

ويستوقف نظرنا أنه يسمى أصحاب الوظائف فى القصر السلطانى بأسماء تركية أو فارسية ، كأنه كان يستوضح ما يرى من دليل له فارسى أو تركى ، فهو يذكر المماليك البَرَد – دارية وهم – بحسب كلامه – حفاظ باب القصر ، والإصباهية وهم الرماة ، والتزدارية وهم أصحاب الرماح ، والتندارية وهم أصحاب السيوف والترسة . وفى أحيان أخرى يسقط الاسم الرسمى للوظيفة ويذكرها بعملها كقوله سقيفة كاتب السر ، وسقيفة كاتب الرسائل ، وسقيفة الوزير ، وسقيفة كتاب الأشغال وما إلى ذلك .

موت قان الصين

ثم يذكر ابن بطوطه حرباً جرت بين القان وابن عم له خرج عليه اسمه فيروز ، وانتهى الأمر بمقتل القان وانتصار فيروز . وهنا يحكى ابن بطوطة من عادات ملوك الصين عند الموت أشياء بشعة مثل « دفنهم القان المقتول ومعه أربع من الجوارى وستة من خواص المماليك وأغلق عليهم القبر » . ويضيف أنه بعد مقتل القان وولاية فيروز اختار هذا لأن ينقل العاصمة إلى قراقورم « لقربها من بلاد بنى عمه ملوك تركستان وماوراء النهر » .

ويعلق على ذلك جيب بقوله : إن بلدة قراقورم كانت أول عاصمة للمغول ، وموضعها الآن يحدده دير قائم يسمى إردِنى – تسو ، وهى على الشاطئ الأيمن لنهر

أرخونOrkhon على نحو ٣٦٠ كيلو مترٍ جنوب غرب أورجا Urga في منغوليا الخارجية Outer mongolia

أما عن مراسم دفن القان المتوفى فيقول جيب إنها مراسم دفن رؤساء التتر، ولا يمكن أن تكون مراسم دفن قان الصين؛ مما يحمل على الظن بأن ابن بطوطة لا يروى هنا عن مشاهدة مباشرة.

أما عن نقل فيروز للعاصمة إلى قراقورم فيقع موقع الغرابة من هاملتون جيب الذى يقول: «ولما كان فيروز هذا يبدو أنه غير معروف تماماً، ولما كان مقر المملكة لم ينقل إلى قرة قورم إلا بعد وفاة توجون تيمور (إذا كانت التواريخ الصينية صحيحة) فإن **ورود هذا الحادث الذى تم سنة ١٣٧١م فى كتاب لدينا منه نسخة كتبت فى سنة ١٣٥٦م – مشكلة تحير العقل**[١].

وقوع الفتنة وعودة ابن بطوطة

يقول ابن بطوطة بعد ذلك: «ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار علىّ الشيخ برهان الدين – واسمه الكامل صدر الجهاد برهان الدين الصاغرجى، وكان شيخ الإسلام فى مملكة الصين، أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن» أى أنه نصحه بترك بلاد الخطا وهى شمالىّ الصين والعودة إلى صين الصين وهى الصين الجنوبية، فعاد أدراجه معتبراً أن رحلته إلى الصين قد انتهت.

سلك ابن بطوطة فى العودة طريق الذهاب نفسه: عاد إلى الخنسا ثم قنجنفو ثم مدينة الزيتون، وهناك سنحت له فرصة وجود جَنْك للملك الظاهر صاحب جاوة سافر إلى الهند، فركبه إلى جاوة، وكانت الرياح طيبة مواتية أول الأمر، ثم تغيرت عندما قاربت بلاد طوالس، «وأظلم الجو وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس، ثم دخلنا بحراً لا نعرفه، وخاف أهل الجَنْك، فأرادوا الرجوع إلى الصين، فلم يتمكن ذلك، وأقمنا اثنين وأربعين يوماً لا نعرف فى أى البحار نحن؟».

وفى اليوم الثالث والأربعين من هذه الرحلة الحافلة بالمخاطر رأوا جبلاً ضخماً لم يسبق لأحد من أهل السفينة أن رأوه مع معرفتهم التامة بهذه البحار، ثم إذا بهذا الجبل يرفرف ويرتفع فى الجو، فعرفوا أنه الرخ.

(١) H.A.R. Gibb,op. cit, P.373 n. 35

هل رأى ابن بطوطة الرخ ؟

وقد استنكر الكثيرون من الدارسين ذكر ابن بطوطة للرخ ، وهو طائر خرافى لا ذكر له إلا فى ألف ليلة ، وقال هاملتون جيب الذى يميل إلى تصديق ابن بطوطة : إن الأمر قد يكون خداع رؤية ، وقد يكون وهماً ، ومن يدرى ؟ فربما كان هناك حقا طائر ضخم الحجم دون أن يصل إلى الأحجام المبالغة التى ترد عن ابن بطوطة وفى قصص السندباد ولكن فى حجم الفيل مثلاً . . وإذا كانت هناك حيوانات بهذا الحجم وأسماك بأضعافه ، فلماذا يمتنع ذلك فى عالم الطير؟ ثم ، ألم يثبت العلماء أن العصور السحيقة فى القديم عرفت طيوراً هائلة الأحجام إلى جانب الدينوصور والماستودَنت وغيرها ؟

وبعد شهرين من ذلك وصل ابن بطوطة إلى جاوة وبهذا يكون قد خرج من الصين وبحارها .

ولقد حاول الكثيرون من العلماء تكذيب ابن بطوطة فيما ذكر عن الصين كله ، ولكننا نؤيده كما أيده جيب ويول . لقد أعطانا الرجل أحسن صورة بين أيدينا للصين فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم – وهذا هو الأهم – أهدى لنا صورة تعتبر وثيقة لوجود الإسلام الزاهر على شواطئ الصين الجنوبية والشرقية ، وهذا فى ذاته فضل له لا ينكر .

وقد نسى ابن بطوطة فى سياق حديثه هذا أن يذكر لنا إن كان قد قدم الهدية إلى القان أم لم يفعل . وقد كان قد أخبرنا أنه لقى فى الصين بعض أصحابه من أعضاء السفارة ومعهم شىء من الهدية ، ولكنه لم يعد إلى الحديث عن هذا الموضوع بعد ذلك .

وهذه وغيرها من صفحات القلق واضطراب الرواية عند ابن بطوطة كانت سبيل الكثيرين من الباحثين إلى الشك فى حديثه عن الصين خاصة . ولكنى كما قلت مرة بعد مرة إن الرجل لم يختلق من عنده شيئاً كثيراً ، حقيقة أننا نحس فى بعض الأحيان أنه لايتحدث عن رؤيا مباشرة ، ولكن هذا أمر لا ضير فيه ، ومعظم الرحالة يفعلون هذا .

والمهم لدينا أن الرجل زار الصين فعلاً وأعطانا صورة عنها وعن المسلمين فيها

خاصة ، وذلك حسبه ولامعنى لمحاسبته والتعجل فى اتهامه .

ثم إن ابن بطوطة كتب حديث رحلته تلك بعد أكثر من عشر سنوات من نهايتها ، وخلال سنوات عشر ينسى الإنسان الكثير ، ويخلط بين الأشياء أو يأخذ الوهم على أنه حقيقة كما حدث له عندما حكى حكاية طائر الرخ .

٤٠

العودة من الشرق

أقام ابن بطوطة فى جاوة ، والمراد بها هنا سومطرة ، شهرين وصف لنا خلالها مشهد زفاف ابن الملك الظاهر صاحب الجزيرة وصفاً ممتعاً ، ثم أعطاه الملك الكثير من العود والكافور وزوده بطعام كثير ، ثم رحل عنه فوصل إلى كولم بعد أربعين يوماً ، **فوصلها فى رمضان سنة ٧٤٨هـ/أكتوبر ١٣٤٧م ، وهذا هو أول تاريخ يذكره ابن بطوطة منذ زمن طويل .**

من سومطرة إلى ظفار

وأراد العودة إلى دهلى ولكنه خاف ذلك ، فركب البحر ووصل إلى ظفار بعد **رحلة ثمان وعشرين ليلة ، وذلك فى المحرم سنة ٧٤٨هـ/أبريل ١٣٤٧م . قال :** « ووجدت سلطانها فى هذه الكرة الملك الناصر بن الملك المغيث الذى كان ملكاً بها حين وصولى إليها فيما تقدم ، ونائبه سيف الدين عمر أمير جندار التركى الأصل ، وأنزلنى هذا السلطان وأكرمنى » .

والغالب أن الملك المغيث هذا وأباه الناصر كانا من بنى نبهان الذين بدءوا حكمهم فى عمان سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤م ، وكانت عاصمتهم مَقْنَيات وبَهلى ، وقد استمر بنونبهان يحكمون عمان إلى سنة ٨٣٩ هـ/١٤٥٣ م حتى حل محلهم بنو عامر الأزديون .

ومن هناك سار إلى مسقط ثم مرسى القُرَيَّات إلى الجنوب الغربى من مسقط ورأس الخيرات ، ثم إلى مرسى شبة ثم إلى مرسى كلبة – ولم أجدهما فيما بين يدى من المراجع ، ثم إلى قلهات ومازالت باقية إلى اليوم ، وقد ذكرها ماركو بولو باسم calatu ثم يقول « وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز ، وهى محسوبة من بلاد عمان ، ومن المعروف أن عمان فى الداخل ، وعمالتها وسلطان أئمتها كان يقتصر فى الغالب على الدواخل ، فى حين أن بلاد السواحل تبعت عمالة هرمز فى ذلك العصر كما رأينا .

مروره فى إيران

ومن هناك إلىٰ هرمز ، ثم سافر بالبر إلى كورستان – ويغلب أنها خورستان – على الطريق الرئيسى بين بسًّا – وهى فسا – وشيراز . وهكذا نرى ابن بطوطة يسير نحو بغداد على الطريق الذى سار فيه نفسه عندما نزل هذه البلاد أول مرة : أى عبر أقاليم فارس والأهواز والجبال إذ لم يكن هناك طريق داخل الجزيرة من عُمان إلى ساحل الخليج إلى البصرة مثلاً .

وفى هذا الطريق مر بمدن صغيرة كثيرة حتى وصل إلى أصفهان ثم إلى تستر ثم إلى الحويزا فالبصرة ، وهناك زار قبور نفر من الصحابة رضوان الله عليهم .

فى العراق

ومن البصرة انتقل إلى مشهد على بن أبى طالب فى النجف ، ثم إلى الحلة حيث مشهد صاحب الزمان ، والغالب أنه المسجد المسمى بالسهلة بين الكوفة والحلة ، وصاحب الزمان هو الإمام المنتظر الذى سيخرج فى زمانه ليملأ الدنيا عدلاً ، وهناك فى هذه المنطقة جامع يسمى مشهد صاحب الزمان .

ومن هناك إلى صَرْصَر ثم إلى بغداد ، فوصلها فى شوال سنة ٧٤٨هـ /مايو ١٣٤٧م ، وهنا يقول : « ولقيت بها بعض المغاربة ، فعرفنى بكائنة طريف ، واستيلاء الروم على الجزيرة الخضراء جَبَر الله صَدْع الإسلام فى ذلك » (ص ٦٣٧) .

هذا وقد كانت معركة طريف المعروفة فى النصوص الإسبانية باسم Rio Salado يوم الاثنين ٧ جمادى الآخرة سنة ٧٤٠هـ /٢٨ من نوفمبر ١٣٤٠م بين السلطانين أبى الحسن المرينى سلطان المغرب والسلطان يوسف بن إسماعيل بن الأحمر سلطان غرناطة من ناحية ، وألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة تعاونه البرتغال من ناحية أخرى . ثم سقطت الجزيرة الخضراء فى الأندلس بعد ذلك بأربع سنوات سنة ٧٤٣هـ /٢٧ مارس ١٣٤٤م .

فى بغداد

ودخل ابن بطوطة بغداد ، فوجد أن أحوالها تغيرت : فقد انقضت أيام صاحبه السلطان أبى سعيد بهادر سلطان إيلخانية فارس من أولاد هولاكو (٧١٦–٧٣٦هـ/ ١٣١٦ – ١٣٣٦م) ، وخلفه ابن عمته حسن كوجاك جوباتى ، وولى على العراق نواباً عنه فيما بين سنتى ٧٣٩هـ و ٧٥٤هـ /١٣٣٨ – ١٣٥٣م .

ثم صعد فى العراق ، فمر بالأنبار ثم هيت ثم الحديث ثم عانة ، ودخل الشام عند

الرحبة إلى تدمر ثم دخل دمشق بعد غياب عشرين سنة كاملة .

في دمشق

وكان قد خلف فيها ولداً له ، طفلاً أنجبته له امرأة من أهل مكناسة كان أهلها قد هاجروا إلى العراق ، فلما استفسر عن أمر الولد وجد أنه مات من اثنتى عشرة سنة . ثم علم أن فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية ، فذهب إليه يسأله عن أخبار آله فى المغرب ، فأبلغه أن أباه عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى قد مات من خمس عشرة سنة ، ولكن أمه مازالت على قيد الحياة .

ويحكى ابن بطوطة أن الغلاء كان شديداً فى الشام إذ ذاك ، وكان يحكمها أرغون شاه نائب السلطنة للسلطان الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر فى ولايته الأولى .

الوباء الكبير

ثم مضى إلى حمص فحماة فمعرة النعمان فسرمين ثم حلب ، وهناك فاجأه الوباء الكبير الذى كان يجتاح أوروبا وشرقى آسيا وبلاد البحر الأبيض المتوسط إذ ذاك . وبلغه الخبر فى أوائل ربيع الأول سنة ٧٤٩ هـ/يونيو ١٣٤٨ م ، وكان الوباء قد وصل إلى غزة وبلغ عدد الموتى منه فيها ألف شخص فى اليوم ، فارتد إلى حمص ، فوجد الوباء قد أدركها ، وأسرع إلى حماة ثم عجلون ثم بيت المقدس ، وهنا وجد أن الوباء قد خفت وطأته ببركة دعاء خطيبها عز الدين بن جماعة وهو ابن عز الدين بن جماعة قاضى القضاء بمصر .

وقد وجد ابن بطوطة معظم معارفه القدامى فى الشام ، قد ماتوا أواختفوا ، ثم سافر إلى مدينة الخليل فى صحبة المحدث شرف الدين سليمان الملياني ، وهو مغربى وشيخ المغاربة بالقدس الصوفى الفاضل طلحة العبد الوادى .

المرور بمصر

ثم انتقل إلى غزة ، ومنها دخل مصر للمرة (الثانية) من ناحية دمياط . ثم ذهب إلى فارسكور ثم سمنود ثم أبى صير حيث نزل فى زاوية لبعض المصريين بها ، ثم المحلة الكبرى ثم النحريرية – ويسميها النحرارية – ثم أبيار ثم دمنهور فالإسكندرية حيث وجد الوباء قد خف بها بعد أن كان عدد الموتى منه فى اليوم ألفا وثمانين إنساناً .

القاهرة

ثم وصل القاهرة وقد ارتفع الوباء عنها بعض الشى ، قال : « وبلغنى أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى واحد وعشرين ألفاً فى اليوم ، ووجدت جميع من كان بها من المشايخ قد ماتوا رحمهم الله تعالى » (ص ٦٤١) .

وكان السلطان بها هو الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون على ماذكرناه .

قضاء العمرة

ثم هبط الصعيد عند عيذاب ، ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة ، ثم إلى مكة فاعتمر مرات كثيرة فيما بين شعبان وذى الحجة ٧٤٩هـ /أكتوبر ١٣٤٨م–ديسمبر ١٣٥٠م ثم صعد فى الحجاز إلى العلا وتبوك ، ثم زار بيت المقدس ومدينة الخليل ثم إلى غزة وهناك ودع الشام للمرة الأخيرة ومضى إلى القاهرة .

تقريره العودة إلى المغرب

وهناك تملكه الحنين للعودة إلى بلاده ، وآن للغريب النازح أن يعود إلى بلاده ، وقد عبر عن ذلك تعبيراً سياسيا فزعم أن أخبار توفيق السلطان أبى عنان المتوكل المرينى ابن السلطان أبى الحسن (١٣٤٨ – ١٣٥٨م) « قد صنع الله به نشر الدولة المرينية[١] ، وشفى ببركته بعد إشقائها البلاد المغربية »[٢] وهى عبارة فيها مخالفة من الواقع الشىء الكثير ، لأن المتوكل أبا عفان بعد أن حارب أباه أبا الحسن وأشقاه وخلفه بدأ عصر التفكك فى تاريخ بنى مرين ، ثم قال بعد ذلك : « مع ما شاقنى من تذكار الأوطان والحنين إلى الأهل والخلان ، والمحبة إلى بلادى التى لها الفضل عندى على البلدان :

بلاد بها نيطت على تمائمى   وأول أرض مس جلدى ترابها

(ص ٦٤٢)

وفى صفر سنة ٧٥٠هـ/أبريل ١٣٤٩م ركب البحر فى قرقورة . لبعض التونسيين ، والقرقورة والقرقور نوع من كبار السفن كما سبق أن قلناه ، فوصل إلى جزيرة جربة . ثم انتقل إلى قابس ومنها إلى مدينة تونس ، وكانت بلاد تونس تحت حكم الحفصيين .

وكان سلطانهم قبيل دخول ابن بطوطة وهو فى طريق العودة هو أبو حفص عمر الثانى (سنة ٧٥٠هـ) ، ثم خلفه أبو العباس أحمد الفضل المتوكل (٧٥١هـ) ، ولكن بلاد الدولة الحفصية كانت فى ذلك الحين ضحية أطماع بنى مرين الذين نزعوا إلى تقليد الموحدين فى توحيد المغرب ، فغزا تونس واحتلها لفترة قصيرة السلطان أبو الحسن ، ثم

---

(١) يريد أن الله جعل على يده بعث الدولة المرينية .

(٢) يريد بعد أن . . . على الهلاك .

ابنه أبو عنان المتوكل ، الذى سيعنى بأمر ابن بطوطة فى المغرب .

وقد تصادف دخول ابن بطوطة تونس عندما كانت خاضعة للسلطان أبى الحسن المرينى ، بل كان هو نفسه فى تونس . ولقيه ابن بطوطة هناك ، ولهذا نراه يسرف فى مديح أبى الحسن (والد أبى عنان المتوكل) .

ثم سافر من تونس إلى المغرب فى سفينة أحد القطلونيين ، ومرّ بسردانية ونزل بميناء كلياري Cagliari ، وكانت سردانية فى ذلك الحين فى حكم مملكة أرغون .

ثم بارحها إلى تِنس فى الجزائر الحالية ، بعد أن خلصه الله من أسر القطلونيين .

العودة إلى سبتة

ثم مضى إلى المغرب ، فمر بمستغانم ثم تلمسان ، ومن هناك قصد زيارة قبر أبى مدين قطب صوفية المغرب فى مدينة العبّاد على بضعة كيلو مترات شرق تلمسان

وفى الطريق إلى المغرب وفى أثناء مروره بمنازل قبيلة أزغَنْفان — أو أزجنجان — بين مصب الملوية ومدينة مليلة كاد يقع قتال بين جماعته وأهل هذه القبيلة .

ثم مر فى ممر تازا ، ودخل بذلك بلاد المغرب الأقصى وهناك بلغه خبر وفاة أمه بالوباء من حين قريب .

وفى أواخر شعبان ٧٥٠/ نوفمبر ١٣٤٩ دخل فاس ، وآن للغريب النازح أن يعود إلى وطنه بعد أطول رحلة قام بها عربى من التاريخ الوسيط .

٤١

أسلوب ابن بطوطة فى الكلام يتغير

عاد الغريب إلى وطنه بعد طول غياب ، ودخل مدينة فاس يوم الجمعة من أواخر شعبان سنة ٧٥٠هـ/نوفمبر ١٣٤٩م .

وهنا نلمح تغيراً حاسماً فى أسلوب كلامه ونظرته إلى الأمور : فقد رأيناه إلى الآن ناقداً لكل مارأى من الأشياء أو من لقى من الملوك والرؤساء ، والنقد هنا هو تقدير الشيء قدره العادل ، وذكر المحاسن والمساوى ولكنه منذ دخل المغرب مات النقد على شفتيه ، فلم يعد يذكر إلا المحاسن فى مبالغة غير مستحسنة . فسلطان المغرب أبو عنان المتوكل المرينى هو « مولانا الأعظم والإمام الأكرم ، أمير المؤمنين المتوكل عن رب العالمين أبى عنان وصل الله عُلُوَّه وكبت عدوه ، فأنستنى هيبته هيبة سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند ، وحسن أخلاقه حسن أخلاق ملك اليمن . . إلى آخر هذا الإطناب فى المديح » (ص ٦٤٤) .

أبو عنان فارس المتوكل

والحق أن أبا عنان فارس المتوكل كان سلطاناً لا بأس به (جمادى الآخرة ٧٤٩ — ذو الحجة ٧٥٩هـ/يوليو ١٣٤٨—نوفمبر١٣٥٧م) ؛ فقد اجتهد فى توسيع رقعة مملكته حتى شملت بعض الوقت كل الشمال الأفريقى ، وبنى مدرستين عظيمتين هما المدرسة العنانية بفاس ، ومدرسة حومة بن حسين فى سلا .

ولكن إدارته — مثل إدارات كل الدول الزناتية فى المغرب — كانت مضطربة تسودها الفوضى ، وقد انحلت عُرَا المملكة من بعده ، فلا محل لهذا الإسراف فى مدحه ، ولكن لم يكن لابن بطوطة مفر من ذلك ؛ لأنه عاد إلى بلاده بعد سفر طويل ، فكان فيها أشبه بالغريب ، ولم يكن له مال يعيش عليه ، وفى تلك العصور لم يكن هناك سبيل إلى المال للشيوخ وأهل العلم إلا الدولة والسلطان ، ولاسبيل للدولة

أو السلطان إلا بالمديح والتقرب .

ابن بطوطة يدخل حاشية السلطان

ثم إن ابن بطوطة عاش على رفد أمة الإسلام خارج المغرب ؛ لأنه غريب وابن سبيل ، فكان ينزل فى المدارس والزوايا والتكايا ويستضيفه الفقهاء والقضاة ويكرمه السلاطين ، أما فى المغرب فهو لايستطيع العيش على هذه الصورة ، فهو فقيه معروف لايستطيع النزول فى الزوايا ، ولايمكنه العيش على رفد القضاة والفقهاء .

ثم إنه كان يريد أن يحدث الناس برحلته ويجعل منها سبيلاً إلى الشهرة ومعاشاً ، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق السلطان ، وكان أبو عنان فارس المتوكل رجلاً تقيا كريماً برغم أن مافعله بأبيه أبى الحسن لم يكن فيه أى كرم ، ولكنه على أى حال كان باب الرزق الوحيد المتاح لابن بطوطة ، ومن ثم فقد سعى للتقرب من السلطان عن طريق المديح والإلماع بأطراف من حديث رحلته ، ومازال حتى استرعى نظر السلطان ، ودخل فى حواشيه عن طريق ابن جُزى ، وقد استطرفه السلطان ، وأحب حديثه ، وأعجب برحلته فأمر ابن جزى باستكتابها ، وأصبح ابن بطوطة من حواشيه .

وما إن اطمأن ابن بطوطة إلى مكانته ومصدر عيشه ، حتى فكر فى أن يستكمل رحلته بزيارة الأندلس أولاً ثم بلاد السودان الأطلسية آخراً ، قال ابن بطوطة :

الرحلة إلى الأندلس

« ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم ، وعمنى فضل إحسانه العميم — قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت إلى بلدة طنجة وزرتها ، وتوجهت إلى مدينة سبتة فأقمت بها أشهراً ، وأصابنى بها المرض ثلاثة أشهر ، ثم عافانى الله ، فأردت أن يكون لى حظ من الجهاد والرباط ، فركبت البحر من سبتة فى شطى [1] لأصل أصيلاً ، فوصلت بلاد الأندلس حيث الأجر موفور للساكن ، والثواب مدخور للمقيم والظاعن .

وكان ذلك إثر موت طاغية الروم ألفونس (الحادى عشر) وحصاره الجبل عشرة أشهر ، وظنه أنه يستولى على مابقى من بلاد الأندلس ، فأخذه الله من حيث لم يحتسب ، ومات بالوباء الذى كان أشد الناس خوفاً منه » (ص ٦٥١).

---

(١) الشطى مركب صغير ذو شراعين ، واسمه معرب من اللاتينية Sagitta بمعنى السهم ، وفى الإيطالية Saettia . انظر ملحق القواميس لدوزى ، ص ١/٧٥٦ .

وجميل من ابن بطوطة ، وكانت سنه إذ ذاك خمساً وخمسين سنة على التقريب — أن تنزع نفسه إلى زيارة البضع الباقية من الأندلس فى أيامه ، وكانت الرحلة إلى الأندلس فى ذلك الحين مخاطرة لا شك فيها .

مملكة غرناطة عندما زارها ابن بطوطة

وكانت حرب ممالك النصرانية مع بقية الأندلس إذ ذاك على أشدها ، وكان ألفونسو العاشر يحاول جهده أن يستولى على جبل طارق ، ليقطع كل صلة للأندلس بالمغرب ، ولكنه توفى سنة ١٣٥٠م وهى السنة التى دخل ابن بطوطة فيها الأندلس ، وخلفه بدرو الأول ، ولم يكن له اجتهاد فى حرب غرناطة ، فتنفس مخنق الأندلسيين حتى وفاته سنة ١٣٦٩م فى حياة ابن بطوطة .

مدينة جبل طارق

دخل ابن بطوطة الأندلس من ناحية جبل الفتح ، وشاهد التحصينات الكبيرة التى أنشأها فيه أبو الحسن المرينى ثم ابنه أبو عنان فارس المتوكل ، وكانت مدينة جبل طارق مدينة كبيرة زاهرة منذ اهتم بأمرها عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين ثم بنوه من بعده . وكان النصارى قد استولوا عليه قبل ولاية أبى الحسن ، فاستعاده هذا منهم وحصنه سنة ٧٣٣هـ /١٣٣٣م ، وهو الذى بنى القلعة الصغيرة التى ما زالت على قائمة الجبل .

فى رندة

ومن جبل طارق ذهب إلى رندة ، قال : « وهى من أمتع معاقل المسلمين وأجملها وضعاً . وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داوود العسكرى ، وقاضيها ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة ، ولقيت بها القاضى والأديب أبا الحجاج يوسف بن المُنْتَشاقرى ، وأضافنى بمنزله » (ص٦٥٤) ، وهو منسوب إلى منتشاقر Monte Sacro ، وهو تل كبير مشهور فى غرناطة يقابل تل البياسين ، وفيه اليوم كهوف الغجر فى أحواز غرناطة وهى من مقاصد السائحين .

الطريق إلى مالقة

وأقام ابن بطوطة خمسة أيام فى رندة ، ثم صعد مع الساحل فزار مَرْبَلَّة Marbella وهى منتجع السياحة المشهور ، وأراد التوجه إلى مالقة فى صحبة نفر من الفرسان ، ولكنه تخلف عنهم ، وكان ذلك من حسن حظه ، لأنهم عندما وصلوا إلى مدينة سُهَيل (وهى اليوم فوينخيرولا Fuengirola على ساحل مالقة) هاجمهم

العدو ، فقتل واحداً وفر واحد وأُسِر الباقون ! ثم وصل ابن بطوطة بعد ذلك إلى مالقة . . .

ويذكر ابن بطوطة الكثير مما تنفرد به مالقة مثل الرمان الياقوتى والتين واللوز المالقيين ، وبهذه المناسبة يذكر عملة يسميها الدرهم الصغير ، وذكر كذلك الفخار العجيب ، ولم يذكره أحد من الجغرافيين قبله ، وذكر أيضاً مسجدها وقال عنه : «كبير المساحة شهير البركة ، وصحنه لانظير له فى الحسن ، فيه أشجار النارنج البعيدة[1] » .

ثم انتقل إلى بلّش وهى Velez Malaga وكانت من مدن مملكة غرناطة الكبيرة ، ومنها إلى الحمّة Alhama وهى الشهيرة فى قصص الصراع بين الغرناطيين والنصارى ، ثم وصل إلى غرناطة ووصفها وصفا موجزاً لايقارن بما لدينا من أوصاف غرناطة فى ذلك العصر مما كتبه ابن الخطيب .

تعاصر ثلاثة من الأعلام

ومن غرائب الصدف أن ابن خلدون وابن الخطيب وابن بطوطة ، وهم من أعاظم من أنجب الغرب الإسلامى ، تعاصروا معاً وتلاقى منهم اثنان فى غرناطة ، وهما ابن الخطيب وابن خلدون ، وفات ابن بطوطة هذا اللقاء ، وأضاف ابن بطوطة : « ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياض والبساتين ، ولامثيل له بسواها » وهى قرية بمرج غرناطة قريباً منها واسمها الآن[2] Ainadamar

ومما ينفرد ابن بطوطة بذكره عن غرناطة : « وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم ، منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندى والحاج أحمد

---

(١) كذا فى الأصل ، ويغلب على الظن أنه تحريف للفظ البديعة ،

(٢) ذكر جيب فى تعليقاته (ص ٣٧٦ تعليق رقم ٤) أن عين الدمع تسمى اليوم Dinamar أو Adinamar اعتماداً على ما ذكره جايا نجوس فى ترجمته الإنجليزية للجزأين الأولين من نفح الطيب .

Pascual de Gayangos, History of the Muhammedan Dynastiesin Spain. I, 349.

وما ذكرناه نحن أصح ، وقد اعتمدنا فيه على تحقيقات لويس سيكودى لوثينا فى كتابه : وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى (منشورات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ص ١٩٦١ ، انظر الفهرس ص ١٨٠ تحت لفظ عين الدمع) .

التبريزى والحاج ابراهيم القوندى والحاج حسن الخراسانى والحاجان على ورشيد الهنديان وسواهم » (ص ٦٥٦) .

ولابد أن هؤلاء الفقراء قد وفدوا على غرناطة للجهاد فيها فى عصر المحنة التى كانت تجتازها .

ثم عاد ابن بطوطة أدراجه فمر بالحمة ثم بلش ثم مالقة ثم حصن ذكوان ثم رندة إلى قرية بنى رياح : « فأنزلنى شيخها أبو الحسن على بن سليمان الرياحى ، وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان » (ص٦٥٧) . وهذه أول مرة نقرأ فيها عن قرية أندلسية فى ذلك العصر (القرن الرابع عشر الميلادى) يحتلها فريق من عرب بنى رياح من بنى هلال الذين هاجروا إلى الأندلس .

ثم عاد إلى المغرب عن طريق جبل الفتح ثم أصيلا ، ثم اتجه إلى مراكش رأساً حيث كان السلطان أبو عنان فارس المتوكل .

ولقى السلطان ، وركب معه إلى سلا ثم إلى مكناسه ثم فاس ، وهنا يقول : « فودعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان » (ص٦٥٨) .

وهكذا لا ينتهى هذا الرجل من رحلة حتى يشرع فى أخرى . ومن الواضح أنه قرر أن يزور كل بلد فيه إسلام ، ونفذ ماعزم عليه ، فاستحق بذلك لقب رحالة الإسلام .

* * *

موقف ابن خلدون من ابن بطوطة

وقد سمع ابن خلدون بأمر ابن بطوطة وحديث رحلته بعد عودة ابن بطوطة إلى بلده ، وقال فى المقدمة : « ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مدين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند ، وهو السلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان ، واستعلمه فى خطة القضاة بمذهب المالكية فى عمله ، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان وكان يحدث عن شأن رحلته ، ومارأى من العجائب بممالك الأرض ، وكان يحدث عن دولة صاحب الهند ، ويأتى من أحواله بما يستغرب به السامعون ، مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء ، والولدان ، وفرض لهم رزق ستة أشهر

يُعطوْنها من عطائه وأنه عند رجوعه يدخل فى يوم مشهود . يبرز فيه الناس إلى صحراء البلد . ويطوفون به . وينصب أمامه فى ذلك الحفل منجنيقات ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه . وأمثال هذه الحكايات . تتناجى الناس بتكذيبه » .

وليس فى ذلك الكلام تكذيب من ابن خلدون لابن بطوطة . ولكنه يقول ماسمعه من الناس . غير أنه يقول بعد ذلك .

« ولقيت أنا يومئذ فى بعض الأيام وزير السلطان . ففاوضته فى هذا الشأن . وأريته إنكار أخبار ذلك الرحيل لما استفاض الناس فى تكذيبه . فقال الوزير : إياك أن تستنكر هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره . فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن . وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه . فمكث فى السجن سنتين ربَّى فيها ابنه فى ذلك المحبس . فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها . فإذا قال أبوه : هذا لحم الغنم يقول : وماالغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها . فيقول : ياأبت تراها مثل الفأر . فينكر عليه ويقول : وأين الغنم من الفأر ؟ وكذا فى لحم البقر والإبل ؛ إذ لم يعاين فى محبسه إلا الفأر . فيحسبها كلها من جنس الفأر !

وغريب أن يكون هذا موقف ابن خلدون من ابن بطوطة . أما كان أجدى به أن يمضى هو بنفسه إليه ويتحدث معه ليستجلى حقيقة أمره ؟ ولكن ابن خلدون كان سريعاً إلى سوء الظن . سريعاً إلى النيل من الناس . وله أمثال هذه فى مصر وغيرها أخبار كثيرة

٤٢
الرحلة السودانية

تعتبر رحلة ابن بطوطة الأخيرة ، وكانت وجهتها السودان الأطلسى — من أمتع رحلاته وأكثرها فائدة ودقة ، وقد اهتم بدراستها والتعليق عليها نفر من العلماء الإنجليز والفرنسيين فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، ولكن معلوماتنا عن أفريقية المدارية والاستوائية الإسلامية قد اتسعت الآن ، فأصبحنا أقدر على تحقيق نص ابن بطوطة وأعرف بقدره العلمى [١] .

وأول بلد نزله ابن بطوطة من السودان الأطلسى كان سجلماسة ، وكانت فى ذلك الحين من أكبر المراكز التجارية على الحدود الجنوبية للمغرب ، ومنها كانت القوافل تدخل صحراء الرمال وتقضى شهراً حتى تصل إلى أُودَغَشْت ، وهى أول سوق تجارية كبيرة يلقاها المسافر من المغرب الأقصى إلى أفريقية الغربية المدارية .

ولسجلماسة تاريخ طويل فى حولياتنا الإسلامية ، ولكنها تدهورت اليوم ، وأطلالها اليوم على مجرى وادى زيز على نحو ثمانية كيلو مترات من تافلالت الحالية ، وهو يعجب بتمورها بصورة خاصة ويقول : إنها أحسن من تمور البصرة ، ثم يقول : « ونزلت بها عند الفقيه محمد البشرى ، وهو الذى لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين ،

---

(١) انظر :

W.D.Coaleg. The Negroeland Of The Arabs London 1841.

وهو كتاب قديم فيه أخطاء كثيرة ، ولابد من الحذر عند استعماله .

De slane, Le voyage d'Ibn Battuta au Sudan Journal Asiatique Mars 1843.

M. De La Fasse, Haut Sénégal. Niger Paris 1912.

ويتضمن بين محتوياته ترجمة فرنسية ودراسة لرحلة ابن بطوطة هذه جـ ٢ ص ١٩٤ — ٢٠٣ .

J. Marquart, Die Benin-Samm lung in Leiden. Leiden 1913.

Pierre Bertaux, L'Afrique de la Prehistoire a l'époque contemporaine Collection Bordas. Paris 1973.

فيا شد ما تباعدا ! فأكرمنى غاية الإكرام ، واشتريت بها الجمال ، وعلفتها أربعة أشهر» (ص ٦٥٨) .

وفى الأول من المحرم ٧٥٣هـ/١٨ فبراير ١٣٥٢م دخل ابن بطوطة الصحراء فى رفقة مُقَدمها أبو محمد يندكان المسوفى ، فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوماً إلى تغازى ، يقول : «وهى قرية لا خير فيها . ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقفها من جلود الجمال ، ولا شجر بها إنما هى رمل فيه معدن الملح ، يحفر عليه فى الأرض فيوجد منه ألواح ضخام ، متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض ، يحمل الجمل منها لوحين.

ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر دِرْعَة وسجلماسة ، ومن لحوم الجمال ومن أنْلى المجلوب من بلاد السودان ، ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ، ويباع الحمل منه بأيولاتان[1] بعشرة مثاقيل إلى ثمانية ، وبمدينة مالى بثلاثين مثقالاً إلى عشرين ، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً » ص (٦٥٨) .

وتَغَازَى التى يشير إليها مازالت باقية إلى اليوم ، وهى إلى الشمال الغربى من تاوديني ، وقد أخطأ ابن بطوطة عندما قال : إنها قرية لاخير فيها ، لأن الملح فى تلك الأعصر كان مادة اقتصادية عظيمة القيمة ، فقد كان الناس يتناولون منه مقادير كبيرة فى كل بلاد أفريقية المدارية والاستوائية ، لأنه يحفظ الماء فى الجسم ، فلا يبخر كله نتيجة الحر الشديد وكذلك الحال بالنسبة للحيوان ، فكان الناس يقبلون عليه ويدفعون فيه الثمن الغالى ، وعلى موارد الملح وتبر الأنهار قامت ثروات الدول الإسلامية التى نشأت هناك وأهمها مالى وغانة وصُنْغَى .

أما عبيد مسُوفة الذين لقيهم فى تغازى فهم بقايا قبيلة مسوفة العظيمة التى أقامت مع أخواتها لمتونة وجزولة وغيرها من صنهاجة الجيل الثانى دولة المرابطين ، وقد استهلك المسوفيون أنفسهم فى إقامة الدولة المرابطية وفى حروبها فى المغرب والأندلس ..

ومن كلام ابن بطوطة نفهم أن بقايا المسوفيين هؤلاء كانوا يعمرون الصحراء من

---

(١) تكتب أيضاً أيوالاتن .

تغازى إلى تمبكتو ، وكانت منازلهم تمتد شرقاً حتى منطقتى الواحات فى بلاد غير الهُقَار التى تعرف فى النصوص الأوربية باسم Ahoggar جنوبى جمهورية الجزائر الحالية .

والأنلى صنف من الحبوب الصغيرة يشبه الدخن ، وهو الذرة الصغيرة ، وكانوا يصنعون منه الدقيق والخبز .

وأيوالاتان نسبة إلى ولاته وهو اسم قبيل مازال فى شرقى السنغال الحالية . وفى خرائطنا اليوم قريتان باسم أيو الاتان هناك ، وابن بطوطة يقصد الشرقية منهما ، وهى على خط عرض ١٧,٠٢ شمالاً وخط طول ٦,٤٤ غرباً .

ويذهب هاملتون جيب إلى أن أيوالتان هذه حلت محل مدينة غانة القديمة ، وهى آخر محطات القوافل العابرة للصحراء فى القرن الثالث عشر . وهذا فى رأينا خطأ ؛ لأن مدينة غانة دثرت ثم حلت محلها مدينة كومبى صالح إلى جنوب بلدة ولاته المذكورة آنفا ، وهى إلى الغرب من تمبكتو ، ويخطئ جيب مرة أخرى عندما يقول : إن ولاته حلت محل أودغشت ؛ لأن هذه الأخيرة ظلت قائمة إلى شمال نهر السنغال .

ويقول ابن بطوطة : إن الناس فى السودان يتصارفون – أى يتعاملون – بالملح ؛ كما يتصارف الناس بالذهب والفضة بعد أن يقطعوه قطعاً . ويضيف «وقرية تغازى – على حقارتها – يُتَعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ، والذى بغَّضه فيها هو كثرة الذباب فى أرضها ، وكذلك ماؤها فقد كان زعاقا . وبعد تغازى تدخل القوافل صحراء لا ماء فيها يقطعونها فى عشرة أيام ، ولهذا فهم يحملون الماء من هذه القرية .

ويقص علينا ابن بطوطة بعد ذلك شيئاً من أخطار هذه الصحراء ، وكثرة من يهلكون فيها إذا فرغ منهم الماء أو إذا ضلوا الطريق .

ثم تصل القافلة إلى موضع يسميه «تاسر هلا» استعصى علينا تحقيقه ، وهذا أمر غير مستغرب ؛ لأن هذه المواضع تقوم على آبار تكتشف فى مواضعها ، فإذا نضبت البئر زال الموضع جملة ، وفى الكثير من نواحى الصحراء الكبرى أمثلة كثيرة على ذلك .

وقد يتجمع الماء بعد زمن طويل فى البئر نفسها فتقوم قرية جديدة باسم جديد ، وهذه ناحية من نواحى الصعوبة فى الدراسات الجغرافية فى الأقاليم الصحراوية .

وهنا يتحدث ابن بطوطة عن التكشيف ، وهو الكشاف بتعبيرنا اليوم ، وهو الرجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة ، فيتقدم إلى أيوالاتان بِكُتُب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ، ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع ، ومن لم يكن له صاحب بأيوالاتان كتب إلى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه فى ذلك ، وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء ، فلا يعلم أهل أيوالاتان بالقافلة ، فيهلك أهل القافلة أو الكثير منهم (ص٦٥٩) .

ويبدو أن المراد بالمسوفيين هنا هم الطوارق وأصلهم من هذا الفريق من قبائل صنهاجة الصحراء التى أقامت دولة المرابطين ، والغالب عندنا أن الطوارق ينحدرون من قبيلة «تارجا أخت مسوفة » والنسبة إليها تارجى التى عربت إلى طارقى ثم جمعت على طوارق ، وها نحن أولاء نرى هنا أنهم يسمون المسوفيين .

ثم يقول : إن هذه الصحراء «كثيرة الشياطين ، فإن كان التكشيف منفرداً لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك » ، وهذه إشارة إلى مايصيب الكثيرين من الناس فى الصحراء من أوهام ومخاوف وحالات نفسية إذا ضلوا الطريق أو حسبوا أنهم ضلوه ، وخاصة إذا كان المسافر منفرداً .

ولقد دفعت رفقة ابن بطوطة لتكشيفها — أى دليلها المسوفى — مائة مثقال من الذهب فقادهم بمهارة إلى أيوالاتان فى سبعة أيام ، وفى الأول من ربيع الأول ٧٥٣ هـ وصل ابن بطوطة إلى أيوالاتان .

وفى أيوالاتان كان لابد لهم من أن يلقوا نائب السلطان ، ولقبه الفربا واسمه حسين ولم يسعد ابن بطوطة بلقاء فربا حسين لما رأى من تعاظمه واستكباره ، فقد كان يكلم الناس بترجمان احتقاراً لهم . يقول ابن بطوطة : «فعند ذلك ندمت على قدومى إلى بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض .. (ص٦٦١) .

وكان لا بد لهم من أن يحضروا طعام الفـربا هذا وهو جريش أنلى مخلوطاً بيسير عسل ولبن ، قد وضعوه فى نصف قرعة صيروه شبه الجفنة ، فشرب الحاضرون وانصرفوا ، فقلت لهم : ألهذا دعانا الأسود ؟ قالوا : نعم ! وهى الضيافة الكبيرة عندهم ، فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم . وأردت أن أسافر مع حجاج أيوالاتن --

عائداً إلى المغرب – ثم ظهر لى أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم » (ص٦٦١) .

وهكذا نرى كيف أن ابن بطوطة الذى عرف الإكرام والتدليل فى رحلاته السابقة يدركه الضجر ؛ لأنه لقى ماتصور أنه سوء معاملة مرة ، ويشكو من تواضع ما قدم إليه من طعام ، وهو الذى تعود الطعام الوافر المستجاد ، أوربما تكون هى السن وطول الرحلات قد أثرت فيه ، فمالت به إلى الضجر . وكانت سن ابن بطوطة الآن اثنتين وخمسين سنة ، فقد ولد سنة ثلاث وسبعمائة ونحن اليوم فى سنة ٧٥٣ هـ /١٣٥٢م . وما فوق الخمسين كانت سنًّا عالية فى تقدير أهل تلك العصور الذين كانوا يصفون ابن الأربعين بأنه كهل ، وهو فى عرفنا اليوم فى عنفوان الشباب !

ولم يرض ابن بطوطة عن المسوفيين الساكنين فى أيوالاتن قط بسبب تساهلهم فى مسائل العلاقات مع النساء ؛ فإن رجالهم لاغيرة فيهم ، ولاينتسب أحدهم إلى أبيه ، بل إلى خاله ، ولايرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه ، يقول : « وذلك شىء مارأيته إلا عند سكان المُلَيْبَار من الهنود ، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن ! » .

وهكذا نرى أن ابن بطوطة لا تعجبه بلاد أفريقية المدارية ولايرضى عن أهلها فهى فى نظره بلاد فقيرة وابن بطوطة برغم أنه خرج من بلده بدنانير قليلة تعود إلى الآن أن يجد السعة حيثما نزل . حقًّا إنه فى بلاد مثل تونس ومصر لم يكن يجد إلا المأوى والطعام البسيط ، ولكن هذا الطعام كان وافراً مع بساطته ، فيملأ الإنسان بطنه بثريد أو فول أو عدس ولايشعر بعد ذلك بالجوع ، ثم إنه كان يجد الأنس فى تلك البلاد فى صحبة الشيوخ وأهل الفقه والعلم ، ويجد كذلك المتعة فى لقاء الأولياء وزيارة المزارات والمشاهد ، أما هنا فى بلاد أفريقية المدارية فطعام قليل ونوعه لا يعجب ابن بطوطة . ثم إنه لايجد علماء أو فقهاء أو قضاة يأنس إليهم أو أولياء يتبرك بهم .

فسئمت نفسه ومال إلى العودة من حيث أتى ، ولكن حب الرحلة دفع به إلى مواصلة السفر حتى يلقى سلطان البلاد .

ويبدو كذلك أن ابن بطوطة لم يستطع رياضة نفسه على التعامل مع السود وفهمهم ، فإن ماتصوره من كبرياء الفربا حسين إنما كان مظهراً من مظاهر خوف أهل

هذه البلاد من الأجانب الذين كانوا كثيراً مايغيرون على بلادهم ، ويخطفون نساءهم وأولادهم !

ومما زاد فى سأم ابن بطوطة شدة الحر وهو بالفعل أمر مرهق بالنسبة لأمثاله ؛ فإن التعود على البرد ميسور ، أما الحر فمن العسير التعود عليه وخاصة إذا اتصل يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر !

٤٣

فى مملكة مالى

ويمضى ابن بطوطة فى التعبير عن استيائه من أهل أيوالاتن فيقول : إن نساءهم لايحتشمن من الرجال ولايحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات «والنساء هناك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحب من النساء ، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلاينكر ذلك ! » (ص ٦٦٢) .

وهذا الكلام – إذا صدق – فإنه من بقايا طور سيادة المرأة فى الأسرة أو مايسمى بالماترياركات Matriarcat وهو دور مرت فيه أمم كثيرة ؟ لأن الرجل فى الجماعات الإنسانية الأولى كان يقوم بالصيد والحرب فحياته معرضة للخطر . والعنصر الثابت فى الزوجية هى الأم .

ولهذا فقد كانت هى المسئولة عن الأولاد ، وفى حالة موت الأب ، وكان كثير الحدوث ، حل الخال محل الأب .

وما توهمه ابن بطوطة قلة غيرة من الأزواج إنما هو مظهر من هذا الطور الاجتماعى ؛ لأن الزوجة مادامت تحمل معظم المسئوليات فقد كانت تتمتع بحرية واسعة ، وظاهر أن أولئك القوم كانوا حديثى عهد بالإسلام .

النساء فى مالى

وعلى أى حال فقد نفر ابن بطوطة من أولئك القوم نفوراً شديداً ، فقرر الخروج إلى مالى ، وبينها وبين أيوالاتن أربعة وعشرون يوماً ، فخرج فى نفر قليل من صحبته ومعهم دليل من غير مسوفة .

غرائب من الأشجار

وهو يصف الطريق بأنه كثير الخضرة والأشجار ، ومن بين هذه الأشجار «شجرة قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ، ويشرب الناس الماء الذى فيها» (ص ٦٣٣) ، والمراد بذلك شجرة الياوباب واسمها العلمى (Adansonia Digitate)

وهى شجرة سريعة النمو تخزن الماء فى جذعها ، فيحفر الناس فى الجذع ليأخذوا الماء ، وتحل الشجرة بذلك محل البئر . وقد نقل الإنجليز إلى منقطة كردفان الكثير من هذه الأشجار لتوفير مورد ماء دائم للشرب فى تلك المنطقة .

أشجار غريبة أخرى

ويذكر ابن بطوطة أشجاراً أخرى منها واحدة يغلب أنها شجرة التابيوكا التى تخرج ثمراً فى هيئة الكمثرى إذا طاب انفلق عن دقيق يطبخ ويستعمل للغذاء ، وكذلك يذكر القرع الضخم الذى يفرغ مما فى داخله إذا طاب ويجفف الغلاف ويستعمل إناء ، وهذا هو أصل « القرعة » وهو إناء معروف كان مستعملاً فى مصر والسودان ، ويذكر نباتاً يسمى القونى « وهو كحب الخردل يصنع منه الكُسْكُسو » وهو الطعام المغربى المشهور .

وبعد مسيرة عشرة أيام وصل ابن بطوطة إلى زاغُزى ، وقد حققها دى لافوسى (Delafosse) وقال إنها ديورا وسماها بارت Barth تورى سَنفا ، يسكنها فيما يقول ابن بطوطة تجار السودان ويسمون وَنْجَراتة ، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الأباضية من الخوارج ويسمون صغنغو والسنيون المالكيون يسمون عندهم تورى ، « ومن هذه القرية يجلب أنلى إلى أيوالاتن » (ص ٦٦٤) .

والونجراتة هم الونجارة أو الوانقورى ، وهو الاسم الذى أطلقه شعب الغولا وصُنْغى على شعب السويتكى والمالنكى ، وهو شعب يغلب على الظن أنه هاجر من المغرب إلى بلاد السودان ، وأخذ الطابع السودانى ، وعلى أكتاف هؤلاء قامت دولة صُنْغَى .

ومن هناك وصل إلى نهر النيجر ويسميه النهر الأعظم وهو النيل ، وكلامه يدل على أنه كان يعتقد أنه فرع من نيل مصر ، فهو ينحدر إلى بلاد النوبة ، ويقول : إنهم « على دين النصرانية » ثم إلى دنقلة ، وهى أكبر بلادهم ، وسلطانهم يدعى بابن كنز الدين أسلم على أيام الملك الناصر .

ثم ينحدر إلى جنادة ، وهى آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر (ص ٦٦٤) .

وفيما عدا ما يقوله عن اتصال النيل بالكونغو – كل ما ذكره ابن بطوطة عن السودان النيلى وأهله صحيح ، ولكن كنز الدين هو كنز الدولة الذى ينسب إلى بيته عرب الكنوز ، وهم كانوا الطليعة التى قضت على دول النصرانية فى شمالى السودان .

ثم وصل إلى تمبكتو ودهش لرؤية التمساح فى ماء النيجر ، ثم استرسل فى المسير حتى وصل « مدينة مالى حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها » ومن هناك اتصل بمعارفه ومن كان كتب إليهم من الفقهاء والقضاة ، فأكرموا وفادته .

ويذكر ابن بطوطة أنه لقى سلطان مالى ويسميه « منسى سليمان » وهذا صحيح . وهنا يجدر بنا أن نذكر أن مالى لم يكن اسم بلد ، بل اسم ثانية الممالك الأفريقية السودانية الكبرى التى قامت فى غربى أفريقية ، وقد أنشأها فى أوائل القرن الحادى عشر زعيم يسمى كاتيا فى منطقة الفوتاجالون ، ثم توسعت حتى شملت حوض النيجر الأعلى كله ، ودخلت فى حوزتها تمبكتو وجاو ورسجو وغيرها من المدن الكبرى هناك .

وكانت عاصمتها كنجابى (Kingabe) على المجرى الأعلى لنهر النيجر عند منبعه ، وتلك هى المدينة التى دخلها ابن بطوطة وسماها مدينة مالى ، وفى أوائل القرن الثالث عشر تولى أمر هذه المملكة (مارى ويانة) المعروف عند مؤرخينا باسم مارى جاطة وهو من أعاظم ملوك مالى ، **وتوفى سنة ١٢٥٥م** وخلفه ابنه مَنْسَى أولى ، وهو أول من حج إلى مكة المكرمة عن طريق مصر .

وفى سنة ١٣٣٧م تولى الملك أبو بكر الثانى المسمى بكنكان موسى أو مَنْسَى موسى ، وهو أعظم ملوك مالى على الإطلاق ، وقد حج حجة مشهورة ومر بالقاهرة وأفاض على الناس هدايا الذهب ، مما أذاع فى الدنيا شهرة مالى بالثروة ، **وتوفى سنة ١٣٤١م .**

وخلفه ابنه منجان الأول ، ولكن عمه سليمان ورث الملك بعد وفاته وحكم فيما بين **سنتى ١٣٤١م و ١٣٦٠م ويصفه ابن بطوطة بأنه بخيل ، ثم قال بعد انصرافه من لقائه :**

« ولما انصرفت بعث إلى بالضيافة ، فَوجِّهْتُ إلى دار القاضى ، وبعث بها القاضى مع رجاله إلى دار ابن الفقيه فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافى القدمين فدخل علىّ وقال : قم ، قد جاءك قماش السلطان وهديته، فقمت وظننت أنها الخلع والأموال ، فاذا هى ثلاثة أقراص من الخبز ، وقطعة لحم بقرى مقلو بالغرتى ، وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم ، وتعظيمهم للشيء الحقير » (ص ٦٦٦) .

وكان ابن بطوطة رجلاً جريئاً ،فأقام أربعة أشهر يتردد على مجلس السلطان عساه يظفر منه بهدية . فلما عيل صبره تحدث إلى الترجمان فى ذلك فقال له الترجمان : قل للسلطان ماتريد وأنا أترجمه عنك .

قال ابن بطوطة : « فجلس فى أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له : إنى سافرت فى بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك أربعة أشهر ولم تُضفنى ولاأعطيتنى شيئاً ، فماذا أقول عنك عند السلاطين ؟ ، « فقال : إنى لم أرك ولا علمت بك ! »(ص٦٦٦)

إكرام ملك مالى إياه

فذكّره الفقيه والقاضى بأنه رآه بالفعل وأرسل له طعاماً ، وهنا تغير موقف السلطان ، فأمر له بدار يسكنها ونفقة تجرى عليه . وفى ليلة السابع والعشرين من رمضان فرق السلطان الزكاة « وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا ، وأحسن إلىّ عند سفرى بمائة مثقال ذهباً » . وبهذا قرت عين ابن بطوطة ورضى عن مالى وملك مالى منسى سليمان ، ومنسى معناه الأمير أو الرئيس .

ويقدم لنا ابن بطوطة تفاصيل غاية فى الطرافة والأهمية عن مملكة مالى أيام منسى سليمان أى فى أوج قوتها ، ووصفه يدل على مُلْكٍ ثابت ونظام حكومى بدائى ولكنه واف بالغرض ، وإن كان لايكاد يجد فرصة للتندر بالسلطان وأهله إلا ابتدرها .

ماذا أعجب ابن بطوطة فى مالى ؟

عندما يقترب موعد مغادرته البلاد يعقد فصلاً يذكر فيه ما استحسنه من أفعال السودان وماستقبحه منها ، ونذكر هنا ما استحسنه وهو العدل وقلة الظلم : « فهم أبعد الناس عن الظلم وسلطانهم لايسامح أحداً فى شىء منه ، ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلايخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولاغاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان . . ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذاكان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام ؟ » (ص٦٧٢)

وأما مالم يستحسنه فيتركز كله على خروج النساء عاريات ، وهو شىء طبيعى فى تلك البلاد ، فإذا نحن استثنيناه وجدنا صورة مشرقة لدولة مالى الإسلامية ولأثر الإسلام فى نفوس الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

دخل ابن بطوطة مالى فى ١٤ من جمادى الأولى سنة ٧٥٣هـ وبارحها فى ٢٢ من محرم سنة ٧٥٤هـ/٢٨ يونيو ١٣٥٢م – ٢٧ فبراير ١٣٥٣م ، وفى طريق عودته عند بلدة تسمى ميمة رأى فرس البحر وتعجب من هيئته ، ووصل تمبكتو ولم يصفها ، ومنها إلى كوكو وهى جاو الحالية على شاطئ النيجر وتسمى أيضاً جاو جاو.

صنغى

وكانت هذه البلدة عاصمة مملكة صُنْغَى الإسلامية ، وقد بلغت أوجها فى عهد سلطانها سُنى – على (١٤٦٥م – ١٤٩٢م) وقد قضى على مملكة سلطان المغرب أحمد المنصور الذهبى سنة ١٤٩١م ، ومن هناك أخذ ابن بطوطة طريق المغرب إلى تكدا مع قافلة من الفدامسيين ، وتكدة هى تجادا أو تَكّادا ، وكانت أكبر مركز من مراكز الطوارق سادة الصحراء وحراسِ طرقها[١] .

---

(١) انظر عنها تعليق جيب فى كتابه الآنف الذكر ، ص ٣٨٢ تعليق ٣٥ .

٤٤

العودة وكتابة الرحلة

طريق العودة

فرغ ابن بطوطة من زيارته للسودان الأطلسى الإسلامى ، واستكمل بذلك العمل الذى فرضه على نفسه من زيارة عالم الإسلام كله فى عصره ، وأخذ طريق العودة فوصل إلى تكدا ، وهى كما قلنا تَجَدًّا أو تَكَدًّا ، وهى على قول الرحالة الألمانى بارت تجدا أيت تيزمت على نحو ١٨٠ كيلو مترٍ من أغادس الحالية إلى الشمال الغربى منها .

ولكن الشيء المحير هو معدن النحاس أو مناجمه التى يقول ابن بطوطة : إنه رآها هناك ، مما حدا بأحد الباحثين وهو(F.R.Rodd)[١] إلى القول : بأن موقع هذا البلد لا بد أن يكون إلى جانب أغادس الحالية .

وإذا كان معنى لفظ تجدا هو الوحدة الصغيرة التى يتجمع فيها المطر فما أكثر التجدات على ذلك ! ويذهب جيب إلى أن تجدا هذه كانت أكبر مراكز الطوارق فى الصحراء .

فى بلاد الطوارق

وقد ذهب ابن بطوطة لرؤية ملك تكدا ، وكان قد خرج لمحاربة عدو له ، فاستصحب ابن بطوطة القاضى والخطيب ولقى الملك . وكان يسمى إزاراً ويصفه بأنه بربرى أى من البربر ، وعلى هذا فهو فى الغالب من الطوارق كما يقول جيب .

وقد رضى ابن بطوطة عن هذا الملك ، لأنه أكرمه بالطعام الطيب الذى يحبه ابن بطوطة ، وهو رأس غنم مشوى فى السفود ، وأعطاه عشرة مثاقيل من الذهب ، وهذا

---

(١) أنظر :

Cautier et chudeau, Mission du Sahara, II, 257.
F.R. Rodd, People of the Veil, 452-456.
Delafosse, Hought-Sinègal-Niger, Paris 1912.
II, 193.
H.A.R. Cibb, *Op. Cit* P. 382. n. 36.

شيء آخر يحبه ابن بطوطة ويطلق لسانه بالمديح .

وعندما عاد إلى تكدا وجد رسولاً من السلطان أبى عنان فارس المتوكل المرينى يستدعيه للعودة إلى فاس للقاء السلطان ، فسر ابن بطوطة بذلك وامتثل للأمر على الفور .

والغالب أن السلطان المرينى كان مشوقاً إلى معرفة هذه البلاد السودانية التى يأتى منها القدر الوافر من التبر .

وأخذ ابن بطوطة الطريق إلى تُوَات ، قال : « ورفعت زاد سبعين ليلة ، إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات » .

بلاد التبر

فخرج من تكدا فى الحادى والعشرين من شوال ٧٥٤هـ /١١ من سبتمبر١٣٥٣م ، ووصل إلى كاهر « من بلاد السلطان الكركدى » كما قال ، وكاهر هى كوبر أو جوبر ، وجوبر اسم إقليم واسع تابع لبلاد الهوسا وعاصمته سوكوتو إلى الغرب من تشاد .

وهو يصفها بأنها بلاد أعشاب ، وبعد مسيرة ثمانية عشر يوماً فى برية لاعمارة فيها ولا ماء إلا فى جزئها الأخير وصل إلى الموضع الذى يفترق فيه الطريق .

فأما الذاهب إلى مصر فيأخذ طريق غات ، وأما الذاهب إلى الغرب فيأخذ طريق توات ، فأخذ طريق هذه الأخيرة ووصل إلى بلاد الهُكار ، وهى مركز كبير من مراكز الطوارق الملثمين .

وهو يصفهم بأنهم لاخير عندهم ، ولكنه وصل إلى بلادهم فى شهر رمضان وهم يمتنعون فيه عن الغارة على أى قافلة أو العدوان على أحد .

قد قطعوا أرض الهكار فى شهر ، ثم وصلوا إلى بودا وهى من أرض توات ، وكانت إذ ذاك باباً من أبواب المغرب وأُكْلُ أهلَها التمرُ والجراد « وهو كثير عندهم ، يختزنونه كما يختزنون التمر ويقتاتون به » .

وفى أواسط ذى القعدة ٧٥٤هـ /ديسمبر١٣٥٣م وصلوا سجلماسة ، أى دخلوا أرض المغرب ، وكان الوقت شتاء والبرد قارساً والأرض مغطاة بالثلوج فى هضبة الأطلسى التى اخترقها فى طريقه إلى فاس « فوصلت إلى فاس ، حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله ، فقبلت يده الكريمة ، وتيمنت برؤية وجهه المبارك ، وأقمت فى كنف إحسانه بعد

طول الرحلة ، والله تعالى يشكر على ما أولانيه من جزيل إحسانه وسابغ امتنانه ، ويديم أيامه ، ويمتع المسلمين بطول بقائه » .

« وها هنا – يقول النص – كان ختام الرحلة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأمصار ، وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة . والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى » ، وهو التاسع من ديسمبر ١٣٥٥ م .

وقد ختم الرحلة ابن جزى بعبارة لطيفة قال فيها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة ، أكرمه الله ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ، ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد » .

وكان فراغ ابن جزى من كتابة تلخيصه فى شهر صفر ٧٥٧ هـ/فبراير ١٣٥٦ م .

* * *

نص الرحلة من تقييد ابن بطوطة وتحرير ابن جزى

ونفهم من هاتين الخاتمتين أن ابن بطوطة لم يُمْلِ حديث الرحلة على ابن جزى كما يظن ، بل قام بتقييد رحلته بنفسه ، ثم تولى ابن جزى اختصار هذا التقييد ووضعه فى أسلوب جيد ، لأن ابن بطوطة ربما يكون قد أطال فى ذكر التفاصيل ، فكان لابد من اختصار كلامه .

والغالب أيضا أنه لم يكن بصاحب أسلوب حسن ، فاحتاج الأمر إلى من يصوغ الرحلة فى أسلوب أدبى ، وهذا هو الذى فعله ابن جزى ، وهو عمل ليس باليسير . وكان يقوم بالعمل أولاً فأولاً ، وهذا يفسر لنا قصر المهلة بين فراغ ابن بطوطة من التقييد وفراغ عبد الله بن جزى من التحرير .

* * *

وقد حرصت فى أثناء عرض الرحلة مرحلة مرحلة والتعليق عليها وتحليلها وتحقيق مواضعها وماورد فيها من تفاصيل – على بيان أهمية كل مرحلة وكل حقيقة أوردتها مما يغنى الآن عن تعليق شامل مفصل ، وإنما الذى لابد منه – كلمة ختامية توجز فضل هذه الرحلة وقدر صاحبها ، فنقول :

هذا رجل ندب نفسه للقيام بعمل لا تقوم به إلا هيئة من العلماء يؤيدها مال كثير

رحلة ابن بطوطة استطلاع للعلم الإسلامى فى عصره

وتأييد سياسى كبير ، وهو اكتشاف عالم الإسلام الواسع أو استطلاع أحواله بتعبير آخر وزيارة بقاعه ولقاء أهله وحكامه والتعرف عليهم . وقد قام ابن بطوطة بهذا العمل بصورة كاملة تستوقف النظر ، وقد رأيناه بعد أن كشف عالم الإسلام حتى الصين ، وعاد إلى وطنه – نهض مرة أخرى فزار ماتبقى للإسلام من الأندلس ، ثم زار أفريقية الأطلسية وانحدر حتى تمبكتو وجادو ، ثم اخترق الصحراء الكبرى عن طريق تكدا وتوات وسجلماسة ، وذلك لكى يستكمل عمله ويوفى على غايته ، وهذا يدل على عزم ثابت ونفس قوية وقوة محركة كامنة فى تلك النفس .

وقد دفعت ابن بطوطة إلى ذلك حوافز قوية من دينه فى المكان الأول ، ثم من تعطشه إلى المعرفة فى المكان الثانى ، ثم من حبٍّ للمغامرة وجرأة على ركوب المصاعب والتعرض للمخاطر فى المكان الثالث .

وهذه كلها دوافع نبيلة تكشف لنا عن إنسان نبيل طموح جدير بكل تقدير وإجلال ، وهو بهذا العمل الذى قام به وبالدوافع الشريفة التى حفزته عليه – يعد بحق من عظماء أمة العروبة والإسلام ، وهو دون شك أيضا من عظماء التاريخ العالمى كله .

فنحن إذا كنا نفخر بأنه أعطانا صورة للعالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى – فإن تاريخ العلم يذكر اسمه كواحد من طلائع عصر الكشوف الجغرافية .

ولا عجب والحالة هذه أن نجد أهل الغرب قد عنوا بهذه الرحلة أكثر مما عنينا بها ، وما من فصل من فصولها إلا تعاقب على درسه الثلاثة والأربعة وأكثر منهم . وهم لم يقنعوا مثلاً بطبع الرحلة (دون مقدمة !) أو بتأليف كتب قليلة عنها ، بل درسوا وحققوا أسماء الأماكن والمسافات وفحصوا كل حقيقة ذكرها فحصاً دقيقاً .

ويرى القارئ فى ثبت المراجع أننى اعتمدت فى هذه الدراسة على عشرات من الأبحاث الجليلة قام بها نفر من أجلاء علماء الغرب ، وفى الغرب يعرفون أقدار الرجال أكثر مما نعرف !

وقد رأيت اجتهاد ابن بطوطة فى القيام بمهمته التى كلف نفسه القيام بها :

ولاحظت استقصاءه لكل شيء وإجهاده نفسه فى مشاهدة كل شيء بنفسه ، ونسترعى النظر هنا إلى القيمة الحضارية لهذه الرحلة ، فإن هذا الرجل عنى عناية تامة بكل ما يدخل فى نطاق الحضارة !

فهو لا يدخل بلداً إلا وصف منازله ودوره ومواد بنائها ، ولا يفوته أن يصف الهيئة العامة للبلد من ضيق فى الشوارع أو اتساع ، ومن نظافة أو قلة عناية ، وهو حريص كذلك على أن يصف كل طعام أكله فى كل بقعة زارها ، وهو لا يكتفى بالذكر بل يصف لنا كيف يصنع هذا الصنف أو ذاك ، ومم يصنع ؟ وكيف يقدم ؟ .

ويضيف إلى ذلك معلومات ضافية عن الزروع والمنتجات والأشجار والثمرات ، يذكر ذلك بكل دقة ، ولا يمر بفاكهة أو ثمرة غريبة إلا وصفها وذكر لونها وطعمها وسعرها فى كثير من الأحيان .

ولو أحصينا أصناف الطعام الذى وصفه فى كتابه لكانت لدينا خريطة غذائية أو ما يسمى بالفرنسية (Carte Gastronomique) للعالم الإسلامى من طراز فريد .

ومثل ذلك يفعله بالملابس ، فهو يصف ملابس الناس فى كل قطر ، ويبلغ به الأمر أن يصف ملابس كل صنف من أصناف الناس رجالاً ونساء ، ويدخل هنا تفاصيل غاية فى الدقة تدل على أننا أمام رجل حضارى يعرف قيم الحضارة المادية والمعنوية ويزنها وزنها الصحيح .

ولنضف إلى ذلك اهتمامه بالعملة والأسعار وسعر الصرف فى كل مكان ، ومقابلة ذلك بما يساويه من العملة المغربية على أيامه ، وكانت عملة صحيحة تصلح أن تكون معياراً للقياس . وهنا أيضاً مجال بحث واسع يستطيع الإنسان أن يكتب فيه دراسة ذات قيمة .

ثم إن الرجل كان معنيًّا باللغات ، فنى تطوافه أتقن التركية والفارسية ، وعلى طول رحلته يذكر المصطلحات والأسماء ويترجمها إلى العربية ، بل هو فى بعض الأحيان — يورد جملاً بالفارسية أو التركية ويترجمها . وفى مرة من المرات ذكر أبياتاً من الشعر الفارسى ثم ترجمها إلى العربية .

ومع أن مطلبه من الرجال كان الأولياء والشيوخ والقضاة وأصحاب الكرامات —

فإنه لم يغفل ذكر من عرفهم فى رحلته من أهل العلم والفكر ، فذكر السعدى وجلال الدين الرومى الشاعرين الفارسيين . وذكر ابن تيمية وأطال الحديث عنه ، وذكر من لقى من أقطاب شيوخ الصوفية ووصف حلقات ذكرهم .

ولم يشغله ذلك عن لقاء السلاطين والأمراء والتحدث إليهم وعنهم .

وما من أثر ذى أهمية إلا وصفه ، سواء أكان بناء إسلاميا أو معبداً هندوسيا أو بوذيا ، وهو هنا يصف ما يرى وصف رجل آثار يقرر ما يرى ويعطيه حقه من الوصف التفصيل !

وابن بطوطة – بعد ذلك كله – صادق الحديث فى جملته : فهو لا يبالغ ولا بكذب ، ولا يحاول أن يعطى نفسه أكثر من قدره ، بل هو يحكى أحياناً حكايات تشينه بعض الشىء : مثل حكاية رفض ابنة الوزير فى ملديف الزواج منه ، وحكايته مع سلطان مالى عندما أراد أن يسترعى نظره إلى أهميته ، فقال له السلطان : مارأيتك وما سمعت بوجودك ! وما إلى ذلك مما روينا بعضه فى هذه الفصول .

وهذا الصدق من أكبر مميزات هذا الرجل ، وقد أثبتت الأبحاث والدراسات أن الرجل صادق فى معظم ما قال ، حتى فى الحالات التى زعم فيها أنه ذهب إلى مكان ما لاستكمال الحديث وروى ما سمعه عنه دون أن يراه . وهى حالات قليلة جدًّا . حتى فى الحالات التى نراه يتحرى الصدق ، ولا يسترسل مع أحاديث الخرافة ولا يقبلها ، حتى حديثه عن طائر الرخ يمكن أن يكون صادقاً إذا نحن نزعنا من أذهاننا صورة رخ السندباد ، واستبدلنا به صورة طائر ضخم من مخلفات العصور البائدة .

ثم إن الرجل مرتب ومنهجى ، وحديثه عن كل قطر يدخله يسير على منهج : فهو يذكر البلد ويصفه ويعين حدوده ويذكر ما شاهده فيه ، ويرى ما عرفه من عادات أهله ونظام حياتهم ومأكلهم ومشربهم وملبسهم ، ثم يتحدث عن سلطان البلد وكيف رآه ؟ وماذا جرى بينه وبينه ؟ ، وقد يعقب بذكر شىء من التاريخ .

ورواياته التاريخية – فى الغالب دقيقة ، وأسماء الأعلام عنده مضبوطة ، أو هو يتحرى الضبط فيها ، فيذكر نطق كل اسم علم ، فيقول مثلاً : إن ذيبة المهل على وزن ذيب مع إضافة تاء التأنيث ، وقد يخطئ أحياناً فى هذا الضبط كقوله مثلاً : إن

القطيف على وزن مصغر قطِفْ ، وهو خطأ ، وقد لا يكون الخطأ خطأه . وتقديراته للمسافات صحيحة إلى حد كبير .

ومن هنا فنحن أمام عمل علمى من الطراز الأول ، كتبه رجل عالم ومكتشف لا يقل عن عظماء المكتشفين فى التاريخ ، ولو وعى معاصروه ومن جاء بعدهم قدره لكان لهذا الكتاب شأن عظيم فى تقدم هذه الأمة . كما كان الحال مع ماركو بولو فى تاريخ العلم الأوربى .

ولكن هذا شأننا أبداً مع رجال العلم عندنا وأعمالهم : فهذا ابن خلدون مثلاً دخل بعلم التاريخ فى عصر جديد بمقدمته ، وهى بداية رائعة لعصر جديد من الفكر العلمى ، ولكنها ظلت بداية ، ولم يواصل السير بفكر ابن خلدون أحد ممن جاء بعده ، بل ارتددنا سيرتنا الأولى فى كتابة التاريخ ، وهذا هو الإدريسى الذى قفز بالعلم الجغرافى من القرن العاشر الميلادى . إلى السابع عشر ، فماذا صنعنا بجغرافيته ؟ ثم هذا هو ابن بطوطة : فتح لنا آفاق الدنيا بكشوفه ، فاستمعنا لحديثه ، ثم توسدنا الفراش على عهدنا — وواصلنا النعاس !

ولقد قيل عن كتاب رحلات ماركو بولو : إنه « واحد من أعاظم الكتب على مر العصور » وتوالت طبعاته والدراسات حوله حتى أصبحت هناك مكتبة تسمى مكتبة ماركو بولو ، وأفادت أوروبا من كتاب رحلاته فوائد أكبر فيما يتعلق بعلاقاتها مع المغول أو مع الصين وآسيا . وعلى أساسه رسمت سياسات وخطط بعضها يتصل بالتجارة ، وبعضها يتصل بالسياسة ، لأن ماركو بولو وعميه نيكولو ومايتو اخترقوا عالم الإسلام ، وتسللوا إلى بلاد المغول ، وحاولوا أن يكسبوا قبلاى خان للنصرانية ، وبذلوا فى ذلك جهداً كبيراً واصله الأوربيون — والبابوية خاصة — من بعده .

فماذا أفدنا نحن من كتاب ابن بطوطة ؟ بل أين عنايتنا به ، وليس لدينا طبعة واحدة محققة لرحلاته ؟ وقد صوبت وأنا أقوم بهذه الدراسة — عشرات الأخطاء فى الطبعة البيروتية التى صدرت فى بيروت سنة ١٩٦٨ ، ومع ذلك فهى أحسن مالدينا ، ومن العجب أن ناشرها لم تسمح نفسه بأن يطلب إلى واحد من أهل العلم أن يكتب له مقدمة حرصاً على المال !

لقد تعاصر ماركو بولو وابن بطوطة بعض الوقت ، فقد عاش ماركو بولو فيما بين سنتى ١٢٥٤ و ١٣٢٤ ، وعاش ابن بطوطة فيما بين سنتى ١٣٠٤ و ١٣٧٨ .

وقد بدأ ابن بطوطة رحلته فى ١٤ من يونيو ١٣٢٥ أى بعد موت ماركو بولو بسنة ونصف السنة تقريبا ، فقد توفى هذا فى البندقية فى الثامن من يناير ١٣٢٤ — وفى رحلتيهما زارا المواضع نفسها وسلكا فى كثير من الأحيان الطريق نفسه ، كما هى الحال فى رحلة الاثنين فى الصين والعودة من هناك إلى الغرب ، ولكن شتان ما بين الاثنين فى الدقة وتفتح الذهن ويقظة القلب ودقة الكلام وصدقه ، وما أكثر ما كذب ماركو بولو ! وما أقل ما بالغ ابن بطوطة !

فانظر — هداك الله — بعد ذلك كله إلى مقام الرجلين فى التاريخ المعتمد للحضارة العالمية .

ويكفى أن تعلم أنهم هناك رسموا مئات الخرائط لرحلة هذا الرجل ، أما رحلة ابن بطوطة فأول خريطة شاملة لرحلته وضعها عربى هى هذه التى تجدها فى كتابنا هذا .

* * *

وبعد ، فهذا أوان الفراغ من هذا الكتاب ، فهو فى مجموعه مقدمةٌ ليس إلا ، مقدمةٌ وفتح باب للدارسين من أهل الجغرافية وتاريخ الفكر الجغرافى وأصحاب العلم فى كل فن .

وهى — فى الوقت نفسه — تحية لرجل من أعظم من أنجبتهم هذه الأمة ، وصفحة عتاب لهذه الأمة التى أفضل عليها الله سبحانه بكل حيز فلم تنتفع إلا بالقليل منه ، وآثرت اللهو حيناً والبكاء على الأطلال حينا ، واللهو لا يصنع أمة ، والبكاء على الأطلال يضيع حرمة الأطلال ، ويهبط بأقدار الباكين !

أبعدنا الله وإياكم عن اللهو ، ووقانا هوان البكاء على مافات ، ورزقنا القوة على أن نفتح فى حائط الجهل شقًّا يسيراً يدخل منه شعاع من النور ، كهذا الذى صنعه الحسن بن الهيثم فى حجرة السجن الذى كان فيه ، فأنشأ بهذا الشعاع المفرد علماً خالداً هو علم البصريات ، ولله سبحانه الفضل والمنة ، وهو على كل خير مستعان .

القاهرة — مايو ١٩٧٩ م .

الفهارس

الأعلام

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ل)

(م)

ألفاظ الحضارة

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

موضوعات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٨٠ / ٢٩٧٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٣٣٠ - ١٨ - ٩

١ / ٧٩ / ٢٢٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

رحلات ابن بطوطة

٢ رجب ٧٢٥ / ١٤ يونيو ١٣٥٥ ـ ذوالحجة ٧٥٤ / سبتمبر ١٣٥٣

٢٢ سنة واربعة اشهر ميلادية

٧٥٠٠٠ ميل انجليزى تقريبا

هذا الكتاب

كانت رحلات ابن بطوطة بمثابة « تقرير » عن أحوال الأمة الإسلامية خلال القرن الثامن الهجرى – الرابع عشر الميلادى – وقد أقدم الكثيرون على عرض هذا التقرير بوجوه متعددة ، فمنهم من اختصره . . ومنهم من هذبه . . ومنهم من انتقى منه ، وكل يؤكد لابن بطوطة فضله وقدرته . .

أما تحقيق هذه الرحلات ووضعها فى إطارها الجغرافى والتاريخي من بدايتها إلى نهايتها ثم دراستها جملة واحدة ، وإظهار قيمتها لعالم الإسلام ، فأمر لم يقدم عليه أحد من قبل .

وها هو ذا الدكتور القدير حسين مؤنس يقدم هذه الإضافة العلمية مذيّلة بفهارس عامة تأخذ بيد القارئ والدارس ، وتهيئ الإفادة الكاملة . .

٢٥٠